خيرى شلبى

الأوباش



الكتاب الذهبي
(٨٨) يوليو ١٩٧٨





الغلاف بريشة الفنان
هبـــة عنـــايت

الأوباش

خيرى شلبى

القمر يتســـــلل الى الاسطبل

قال الجد « مهيوب » لحفيده « طلعت » :

يعز على أن تطلع الترحيلة ياطلعت . ولـــكن ، انت رجل . أما انا فقد تعبت . أمك « توحيدة » أتعبتنى فى حياتى . لم أنجب سواها وبضعة رجال . أما الرجال فقـــد أخـــذتهم « السلطة » واحدا وراء الآخر : مرة لانشاء المصارف ، ومرة لصد غضب النيل حين يفيض عن الحد ، وثالثة لحفر قنـــاة السويس ، ورابعة للجهادية وخامسة وسادسة وســـابعة وعاشرة . من حب الله وفضـــــله على تذكرنى ، فاختبرنى ، فأصابنى فوضعنى بذلك فى صفوف المؤمنين .. اذ لم يعـــــد لى أى ولد ممن ذهبوا . والحمـــد لله لم يبق ســـوى أمك العزيزة « توحيدة » أراد أن تعوضنى عن المرحومة أمهـــا وأن تؤنس وحدتى بك ياأعز الابناء ..

تعرف ياطلعت ؟ .. هى الوحيـــدة فى بلدتنا لم تطـــلع الترحيلة طول حياتها . أوصتنى أمها بها خيرا فلم أعرضـــها للاهانة فى بلاد الناس . غير أن الزمن غدار . هبط البلـــدة ذات يوم رجل متقمط يركب حمار العمدة وخلفه خفير يلهث . قالوا أنه رجل كبير هارب من بطش الملك ، لكن العمدة قال

أنه واحد من أقاربه الذين يعيشون فى أم الدنيا ، وأنه يعمل قاضيا فى المحاكم ، وقال أيضا أنه هارب من بطش الملك — ولم نكن نعرف لماذا يريد أن يبطش به الملك . صـــار الناس يذهبون الى « دوار » العمدة ليتفرجوا عليه وهو يجلس فى الفرانده يدخن الغليون . من ســـوء بختهـــا مرت البنية من أمامه حاملة « البلاص » قادمة من الترعة . ماكاد المســـاء يحل حتى جاء الخفراء ودعونى لمقابلة العمدة .

قال لى العمدة أننى تشرفت بالرغبة الســـامية ، وأن حضرة القـــاضى قد خطب ابنتى .. أنا ؟.. توحيـــدة ابنتى يتزوجها حضرة القاضى ؟ سامحك الله ياعمدة قل كلاما غير هذا يكون المزاح فيه خفيفا ومقبولا . غير أن حضرة القاضى قال لى فى تودد : « اجلس ياعم مهيوب » . فجلست . أخرج من جيبه حزمة من ورق البنكنوت . منظـــرها أطار لبى . وضعها بين يدى ، قال : « عدها » . صارت يدى ترتعش — أنا الذى فى ترحيلة العمر كلها لم أنز بورقة واحدة منها . قال: « كم ؟ » . قلت : «مائة» قال : «حلال عليك مقدم صـــداق لابنتك» . لم أجد كلاما لحظتها . لم أشعر الا بيدى بين يدى القاضى نقرأ عقد القران .

يومها قال القاضى أننى لا يجب أن أحمل الهم أو أنشغل بشىء ، فكل شىء سيكون هو مسئولا عنه ، وما على الا أن أسلمها له كما هى ، لتمكث فى بيت العمدة أياما ، تســـافر بعدها الى بيته — بيتها ، فى أم الدنيا . كل فتاة ليلتها نظرت الى أمك فى حقد مسموم ، وكل فتى نظر الى القاضى فى حقد أشد سما . اندفعت الالسن تقول وتعيـــد وتزيد ، وانتقلت فلذة كبدى الى بيت العمدة وانتهى كل شىء .

قل فى ليلة الفرح ماشئت فانى لا استطيع وصـــفه لك . انما العروس التى كانت تجلس فى بيت العمدة ليلة العـــرس كالوردة المفتحة لم تستطع أن توقف ســـيل دموعها . كانت ياولدى تعرف أن هذا الفرح ليس سوى حلم قصير الاجل . فبعد ثلاثة أيام خرج القاضى مع الفجر مسافرا . قالوا انه

ذهب ليجهز للعروس ، ولسوف يعود ويأخذها وربما يأخذنة معها . غير أنه لم يعد ، حتى الآن لم يعد ..
ظلت أمك فى بيت العمدة حتى وضعتك . كانت تخفى ما تلاقيه من ذل ، فللعمدة نساء أربع ولامك حجرة الكرار . ومن يوم ماسافر زوجها شالت حمل الدار كله على ظهرها وكان لابد أن ألم لحمى ، بعد أن نفد الصبر ومات الامل ..
واندفعت أجرى فى بلاد الله خلق الله أبحث عن أبيك. والعجيب ياولدى أنه ما من مكان سألت فيه عنه الا وسمعته ورأيته ولكن هيهات أن امسك بالجسد . وهاانت ذا ياطلعت ياولدى ترانى قد تعبت وكففت عن السفر وراء أبيك ، فيكفينى السفر وراء الرغيف، . ولكن أمك الحبيبة لاتزال تستقبل المساء كل يوم باسمة ، بينما تنظف زجاجة المصباح .

**

.. زهق « طلعت » من هذه الحكاية التى بات يكرهها كره العمى . كثيرا ما غمز جده فى ذراعه ليكف عن الاستمرار فيها ، ولكنه لايريد أن يكف عن حكايتها ليل نهار . قال طلعت لنفسه : انه لا يخشى أن يفتضح أمرى فى الغربة . ثم قال لجده وهو يحزم وسطه بالمنديل المحلاوى :
— اننا فى الترحيلة ياجدى .. ومعنا أنفار من كل البلاد ..
فنظر اليه « مهيوب » وهرش ذقنه وابتسم . وكان طلعت يريد أن يقول له أنهما فى الليل سينامان فى الاسطبل مع الانفار ككل ليلة ، وانه ان سمع جده يحكى هذه الحكاية ثانية فسوف يهرب ويرمى نفسه فى المصرف . على أن صفارة الخولى انطلقت من بعيد تنذر الانفار أن ساعة القيالة قد انتهت . فأخذ « مهيوب » يلم نفسه من تحت ظل الجزورينة ويتجمع واقفا . وأخذت الاجساد المرتمية فوق الارض تتململ وتجرجر نفسها سائرة فى اتجاه الخولى ..



الفصل الأول

كيف التقت البلدة بالاسطبل

« بالحـــــق ياناس دبه من بلدى »
« ولا بلـــــد الوالدين ولا جـــدى »
« لا هى بلدى ولا مسكن اجدادى »
« دى بلاد الغز والشـــقا يا حادى »

(موال مصرى)

— ١ —

نظر العجوز الى « الدنيا المقلوبة » حوله وامامه داخل الاسطبل . أيقن أن الولد قد ضاع بين الاقدام . وضع يده على قلبه ، وتنهد ، ثم نادى :

— ياطلعت .. ياولد ياطلعت .

تلفت اليه أكثر من واحد ، لعل اسمهم جميعا طلعت . فعاود النداء :

— ياطلعت يا ابن القاضى .. يا ابن القاضى

ارتطمت به الاكتاف من كل ناحية . صار يترنح لاهثا شاحبا ، يلعن الاسطبل وشورته السوداء ، والناظر والذين خلفوه .. ثم وقع . راح يصرخ ويعافر بساقيه النحيلتين وذراعيه ، ويحاول النهوض فتمنعه الاجساد التى تتدافع ..

— عم مهيوب ؟ .. عم مهيوب ياديـاب

— دياب .. الحق بى ياولدى ..

استطاع دياب أن يتمطع بالطول وبالعرض عدة مرات حتى أوسع للعجوز فراغا يتحرك فيه . نهض مهيوب يلقط أنفاسه الهاربة يتشبث بمن حواليه . تلقفه دياب تحت ذراعه ومضى به . قال مهيوب :

— الولد .. تاه الولد منى ياديـاب ..

— ابن القاضى ؟

— ومن غيره ؟

— لا تنشغل .. سيبين بعد أن تهدأ الحالة .

— من سوء بختنا بعث الله لنا بمن يشاركنا فى موضع القدم .

ـــ نحن نتساهل .. أن ربنا يعاملنا بسوء نيتنا .
ـــ نحن أصلنا من أصل واطئ .. يكرمنا الله باسطبل ننام فيه بدلا من العراء ، وبعيدا عن التهمة الازلية التى كانوا يلفقونها لنا كل عام .. فاذا بنا ، حتى نحن يا أبناء البلد الواحد والحارة الواحدة ، نتخانق حول المكان .

ـــ آه ماذا سنفعل اليوم .. فى العام الاول كان الاسطبل يكفينا .. وكنا نتعارك هذا يحب المصطبة ، وذاك يحب الركن الدافئ .. اظننا اليوم سنبتهل الى الله قائلين : اللهم اكرمنا بشبر واحد .
ـــ ربنا يستر .. ستصل الخناقات اليوم لرب السماء.
ـــ ها .. لقد بدأت

وأشار بيده ، فاذا برجال يرتفعون فوق الاعناق وينهالون ضربا بالعصى فوق الرؤوس والاكتاف . اخذت الجموع تتراجع . صوتت نساء ، صرخ أطفال . صار الاسطبل مثل يوم القيامة كما يصفه فقيه الجامع : لا أحد يعرف أحدا والرجل ينسى زوجته والزوجة تنسى طفلها والطفل ينسى الابوه والامومة ولا يفكر الا فى نفسه . غمغم مهيوب وهو يغمز دياب :
ـــ شف يادياب ان كان احدهم من بلدنا ؟
ـــ لا يظهر للعين غير الذين يضربون .. يعنى لا احد من بلدنا
ـــ سنأكلها الليلة ان شاء الله .
عرف دياب أنها « العلقة الساخنة » التى يأكلها اهل بلدته دائما باعتبارهم « غرابوة » لا شوكة لهم .. فغمز مهيوبا فى كوعه ليطمئنه . لكن دائرة الضرب توسعت بسرعة دون أن يتحرك من مكانه أحد . زحف الضرب من مجموعة الى أخرى حتى صار بجوار وجه دياب . انتفض واستعد ليضرب من يعتدى عليه أو على بلدياته ، غير انه فوجئ بشيخ الغفر نفسه ـــ شيخ غفر التفتيش ـــ يرسل الضربات فى كل اتجاه ، ويصيح آمرا :

ــ اضرب ياغفير .. اضرب ضرب موت فى أولاد الكلب الاوســاخ هؤلاء ..

ــ ياشيخ الغفر حاســب ياشــيخ الغفــر .. نحن مظلومون والله ما نستحق الضرب .

صاح شيخ الغفر :

ــ احرس ياغرباوى يانجس

ارتعش دياب . غمزه مهيوب :

ــ اســكت يادياب .. الضرب ليس فينــا نحن .. الضرب عام ..

ثم أخذ يرتعش هو الآخر ..

تمكن خفراء التفتيش من اخماد كل حركة وصوت .. دفع شيخ الغفر الناس أمامه وداس فوقهم حتى وصل الى المذود المستطيل بطول الجدار فوقف فوق حافته صائحا :

ــ ياحوش ياأولاد الزوانى .. الاصطبل أصلا جعــل للغرابوة من عام مضى .. هكذا أمرت الست ووافق التفتيش انما الباشكاتب له رأى هو الآخر .. وليس مـ قولا أن يمشى رأى الست ولا يمشى رأيه .. قال : الاســطبل للانفار .. صنف الانفار .. لا يهمنا ان كان النفر من بلد التفتيش أم من بلاد بعيدة .. من يعمل فى أرض الوسية فهو نفر رغم أنف الذين خلفوه .. ومادام نفرا فلابد أن يبيت فى الاسطبل .. ومن ينام فى الاسطبل ، ياحمير يابهائم ، يحمد الله ان وجــد مكانا يأويه .. فلا تقلقوا رؤوسنا بعد الان ..

ــ لكن ياشيخ الغفر ، اهل البلد عنــدهم بيوتهم .. وبيوتهم فى نفس البلد .. دعوا الاسطبل لنا .. انه عــلى قدنا .. ونحن من بلاد بعيدة ولا مأوى لنا غير الاسطبل ..

هكذا صاح واحد من « الغرابوة » بصــوت مرعوش مخرخش ترادم عبيه الصدأ .. شخط فيه شيخ الغفر :

ــ انكتم انت الآخر يا ابن الــ « .... » ..

من سوء بخته كانت الــ « .... » هذه واقفة بجوار ابنها ، فانبرت بلسان غرباوية أصيلة لم تعرف لها أهلا ولا

بلدا ، ولا تعرف أصولا ولا ترعى حرمات ، غسلت شيخ الغفر وعصرته ونشرته ، وأفهمته أن هذه الـ « .... » هي بسلامتها أمه ، أمه فقط ، وأنه لهذا يعمل فى التفتيش ، ولابد ان أمه قد ذاقت طعم حتى خدم التفتيش كى يصبح هو شيخا للغفر فيه . لم يستطع أى خفير أن يضربها على هواه ، فما من خيزرانة هوت عليها الا وتلقفتها بيد مدربة ثم طوحت بها فى وجه الجميع ، مطوحة خلفها بصراخ متفجع موجوع ..

وصاح شيخ الغفر :

ــ ستلم علينا التفتيش .. دعوها .. هل نجعل عقولنا على قد عقلها .. انها امرأة .. وغرباوية .. تقول ماتشاء فلا حياء عند أهلها .. وعلى العموم فأنا أستاهل قطع رقبتى لانى سبق أن جئت فى صف الغرابوة .. ومن يجىء فى صف الواطىء يأخذ على دماغه .. فوالله ياأولاد الفجرة ياغرابوة لارينكم شغلكم (ثم صرخ فجأة) الغرابوة هنا .. وأهل البلد هنا ..

وأشار نحو الباب للغرابوة ، ونحو عمق الاسطبل لاهل البلد .. فتدافعت الاجساد من جديد وراحت تتصادم ؛ وصاح الغرابوة : « فى عرضك ياشيخ الغفر .. الحق علينا ياشيخ الغفر » . الا أن الانفار من أهل البلد كانوا قد سيطروا بالفعل على الاسطبل . جلس من جلس وتمدد الكثيرون فاردين أذرعهم وأرجلهم ليحددوا ــ مبدئيا ــ المسافة التى سيحتلها كل منهم على الدوام . أما الغرابوة نصاروا مثل غابة هزيلة من أعواد التيل تتقارب وتتقارب فى حزم صغيرة ثم تنحاز الى جوار الباب . ثم خرج الخفراء وأغلقوا باب الاسطبل بالضبة والمفتاح .

ــ ٢ ــ

صاح دياب :

ــ أمرنا لله ياجماعة .. لكن أين زوادتنا ؟

صاح واحد :

ــ اين بلاويهم ؟
انطلقت أصـــوات :
ــ شوفوا أين كنتم تضعونها .
سحب مهيوب ذراع دياب خوفا من أن يشتبك فى عراك .
وهنا صـــاح رجل :
ــ عباءة من هــذه ؟
ــ عبـــــاءتى .
هكذا رد مهيوب بسرعة . كورها الرجل ورماها على طول ذراعه ، فانفردت فى الهواء ثم انطرحت فوق حزمة من أعواد التيل . صار كل واحد يخلص رأسه منها ويدفعها بغيظ كأنه يتبرأ منها . تمكن دياب من سحب طرفها ثم شـــــدها ، بينما يصيح مهيوب متفجعا : «والجوال .. كان معها جوال» . فرد واحد من أهل البلد : « هى الآن مع الجوال » . انفجـــرت الصدور ضاحكة ، وصفق دياب وصاح :
ــ لاجوالك ولا تفتى .. سنلوص باذن الله ونأكل طينا .
وقال مهيوب :
ــ الولد أيضا زمانه سرق .. ياللمصيبه .. يا ابن القاضى .. يا طلعت يا ابن القاضى ..
ردت أصوات فى ضيق :
ــ القاضى وراءنا وراءنا .. نحن بعد لم ننس القاضى الذى حكم علينا بهذا الذل .
صاح مهيوب يبكى : « ياولد » . وكانت ثمة حركة تبـدو مقتربة من ركن بعيد ، وكان الصبى يتعثر ويقع بين الاجساد فى لمحة قصيرة تلقى الصبى عددا من الصـــــفعات والركلات والشلاليت والزغدات ، وكل واحد يقول له بغيظ شديد : خد يا ابن القاضى .. سلامات يا ابن القاضى .. ها .. القاضى .. انت والقاضى على .. » فصاح مهيوب يتلوى من الألم :
ــ حرام عليكم ياناس ياكفره .. انه ابن قاض محترم .. لاتظنوه لعبة .. انها الايام السود جاءت به اليكم .
تخطى الولد حدود الخطر وصار فى زمام الغرابوه . تلقفته الايدى واسلمته الى بعضها ..

ــ فلنقعد وأمرنا لله ياعم مهيوب •• نقعد فى موضع اقدامنا .. مادام الناس لايجدون من يحكمهم . وضـــعوا مؤخراتهم فوق الارض متقرفصين • تململت الاجساد المتمددة بجوارهم ، وبرطمت . زمجر دياب مثل كلب مسعور :

ــ اليس لنا ان نخمد مثلكم يا أولاد الفرطؤس ؟ •• كـــل واحد يقول يانفسى •• حتى انتم ؟ ••

قال مهيوب فى تسامح مقصود :

ــ لايريدون الاتعاظ .. ربنا يسهل لهم .. تتفرعن اليوم يجيئك فى الغد من يكتم انفاسك •

وكانت نظرات طلعت قد راحت تتجول فى الاجساد الممددة فى أنحاء الاسطبل وكأن منظر المقابر فى بلدتهم قـــد حضر : مجموعة من الهياكل الطينية ذات أدمغة تتجاور • هل رأيت قبرا يتحدث الى اقبر ؟ •• هكذا سأل نفسه • وقال مهيوب :

ــ أمرك لله ياولدى .. نم على ركبتى .. أما أنا فسأنام على كتفك يادياب •• وأما انت يادياب فلتبحث لنفسك عـــن مكان بين هذه الاكتاف ••

ابتسم دياب :

ــ اطمئن ياعم مهيوب •• أغلب هذه الاكتاف من بلدتنا •• ولن تميل برأسنا •• أخذت كل مقبرة تتلوى كالحية وتطلب من زميلتها أن تنزاح قليلا • وصارت المقابر تلقى بظلالها فوق بعضها .. ثم تمدد المتقرفصون . وصدرت عن دياب خرخشة وطقطقة مثل طقطقة الاصابع . فبدأ عليـــه أنه تذكر شيئاً . فدب يده فى جيبه واخرج مظروفا كبيرا وضعه على الارض :

ــ مخدة لائقة لك ياطلعت •• خذها ونم فوقها •

ثم تناول رأس طلعت ووضع المظروف تحتها • قال طلعت جـــذلا :

ــ ما هذا الورق يا خال دياب •• ان كان كتابا فســـوف أقرأ فيه •

ــ مازلت فى الكتاب ياخى ؟ انك تحلم •

رفع « مهيوب » رأسه مغتاظا :

ـ كتاب ماذا ياجدع ٠٠ الولد فى المدرسة ٠٠ وقد جـــاء هنا ليدبر لنفسه بذلة وحذاء ٠
قال دياب :
ـ اذن فالورق من نصيبه ٠٠ والله بعد مامشيت عدت ثانية واخذته ٠٠ انه دفتر كبير ياطلعت ٠٠ ملآن بالكتابة والاختام والبصمات والتساوير الغريبة ٠٠ ذاكر فيه يا طلعت ٠

يد طلعت تتحسس المظروف فى فرح :
ـ من أين جئت به ياخال دياب ؟
ـ لقيته
ـ أين ؟
ـ فى مسطاح المصرف ٠٠ رأيت طرفه والباقى منه كـان مدفونا تحت الردم ٠٠ كنت أفعل مثلما يفعــــل الناس فى مسطاح المصرف ٠٠ وسمعت صوتا يقول : وررر ٠٠ ررر ٠٠ قلت ما هذا النقرزان ؟ نظرت فرأيت كلبا يبول فوق ورق ٠٠ ضربت الكلب ونزعت الورق ٠ فخـــــرج هذا المظروف ٠٠ فوضعته فى عبى وجئت به ومال « مهيوب » على أذن « طلعت » وهمس :
ـ فى الصباح اربطه حول ظهرك ٠٠ ليحميها من عصـــا الخـولى ٠٠
ثم اعتدل ونام ٠

ـ ٣ ـ

الرأس مسنود فوق المظروف الكبير ، والعين مفنجلة لاتريد الركون الى النوم ٠٠ سقف الاسطبل مثل خيمة من الدخـــان الثقيل ، ينحدر مائلا نحو اليمين ونحو اليسار ٠ الواح من الصاج منطرحة فوق عروق من الخشب ٠ مابين الجـــدران والسقف فراغ يتسلل منه الضوء ٠ وتنهـــد طلعت وتمتم : القمر يدخل حتى فى الاسطبل ٠٠
وأحس برأس تعاكس رأسه ، وعرف « طلعت » انهـــا من رءوس أهل البلد المتمددين فى شريحة بطول الاسطبل ورؤوسهم

نحو الباب تلتصق برؤوس الغرابوة الذين أعطوا أرجلهم فى اتجاه الباب كذلك حتى لا تصطدم برؤوس أهل البلد .. ثم أحس بأن الرأس تزحف حتى تجاور رأسه فوق المظروف ·
فتح الاثنان عينيهما ·· وضحكا بصوت خافت ··
ــ أتعرف القراءة والكتابة ؟

ــ نعم اننى أروح المدرسة ولولا الاجازة ماجئت هنا ·
وبلح فى عينى الرأس بريقا يزداد لمعانا فى ضوء القمر ·· وقال الرأس أنه يود أن يتعلم الكتابة حتى يكتب شبكاويه بنفسه ، ثم قال بعد برهة انه سوف يكتب عريضة ، للباشخولى يشتكى فيها الخولى ، وأخرى للباشكاتب يشتكى فيها الكاتب وثالثة للناظر يشتكى فيها الباشكاتب ، ورابعة للمفتش يشتكى فيها الناظر ، وخامسة للمندوب يشتكى فيها المفتش، وسادسة للتفتيش يشتكى فيها المندوب ··

ارتعش طلعت وانتفض جالسا · ومثله فعل صاحب الرأس فبدا أنه صبى عجوز جدا . وهمس « طلعت » بصوت مرتجف:
ــ ما الذى حدث لكم ·· من الذى طردكم من دوركم ؟
ــ الحكومة ··
ــ ماذا ؟
ــ الحكومة ··
ــ لماذا ؟
ــ ضديات ··
ثم تنهد مثل رجل كبير وهو يحاذى سبابتيه . انتفضت اشياء كثيرة بأعماق « طلعت » ··
ــ أصل الحكاية يا ·· ما اسم الكريم ؟
ــ طلعت ..
ــ عاشت الاسامى ياسى « طلعت » .. أما أنا فاسمى « عمرو » .

ــ بالجوده ·
ــ أصل الحكاية ياسى « طلعت » اننا سرقنا عرق الانفار ··
ــ سرقتم عرق الانفار ؟·· عرقنا ؟

ـ الحكومة قالت هذا ·· وظلت النيابة تأخذنا وتردنـــا وتأخذنا وتردنا وفى الآخر حكمت علينا بأننا سرقنا ··وطلبت منا ان نرد ماسرقناه ·· قلنا ياحكومة والله مامعنا ثمن الكفن ·· قالت الحكومة نأخذ كل ماتملكون ونبيعه ونعطى ثمنـــه للمقاول .. من لم يدفع أخذوا ماعنده من أشياء .. ومن ليس عنده يشتغل فى التفتيش نفرا والمقاول يقبض أجره ··

زام طلعت كأنه فهم الكثير . فقال « عمرو » : ان البلدة كلها جاءت تشتغل أنفارا وتنام فى الاسطبل ، ومن بين من هنا شيخ غفر البلد وباشخولى السراية وكثـــيرون من الرجال المحترمين ، ويعلم الله كم من الايام او الشـــهور او الســـنين سيقضونها هنا كى يسددوا ما عليهم · وكان « طلعت » يريد أن يسأل « عمرو » عن الشكاوى التى يريد ان يكتبها ، ويسأله عن أشياء كثيرة كثيرة ، لكنه تاه فى دماغه وصار يدعك عينيه ويتثاءب ، فقال « عمرو » : ان الصباح رباح وأنه سوف يبرطل الخولى بخيارة خضراء ليجعل « طلعت » فى الفرقة التى سيكون هو فيها حتى يجعل باله منه ، وتثاءب بدوره ، وهز « طلعت » رأسه موافقا ، ثم وضع رأسه على المظروف فطقطق بصوت عال واوسع لرأس « عمرو » مكانا على المظروف · تجاور الرأسان· أما الجسدان ·· فانعكسا ··



« طلعت » يفتح الدفتـــــر

« تسلم لى عينك من رباط الشاش »
« قولوا الحقيقة لامه ــ يا صبايا »
« دا الواد صغير لسه ما اتهناش »
« وريني وشك يا ابنى يا ضـــنايا »

(بكائية من الدلتـــا)

— ١ —

اسمى « عمرو » ياسعادة البيه · وصلتى بالمرحـــوم اننى كنت أسهر الى صلاة الفجر لكى أسمع صوته عند الاستغاثة . وانا أيضا احب ان استغيث مثله واصيت ··

لا أعرف الفاعل · انما الذى حدث اننا كنا نمشى على شاطىء ترعة خلاف · وكان المنسر ساعتها يخرج من البلد ·· يركب الحمير والجمال فوق الاجوله والغرارات ·

والله العظيم أقول الحق · كان المرحـــوم حبيب الله ·· والناس تحبه ··

كان يمشى ونحن نمشى وراءه ·· لنعرف ماذا جرى لاهل البلد ··

فى كل موسم شغل كانت الانفار تجىء . . وفى الصباح ترى البلد نفسها مسروقة . وكان الانفار يشيلون التهمة . كنا ربك والحق نصدق أنهم هم السارقون . . فالانفار كانوا ينامون على الطرقات ، وفى القنوات ، وفوق الاشجار ··

اقصد أن أقول ان أهل البلد كانوا يصدقون أن الانفار هم الذين يسرقونهم ··

نعم نحن جميعا انفار ·· انما هناك أنفار « غرابوه » لانعرف من أين يجيئون ··

شغلتى يابيه اننى واحد من رجالة التفتيش ·· حمار ·· حمار الكاتب ·· الكاتب لايذهب للعمل بلا حمار ·· واذا لم أكن أنا موجودا فان حمارالكاتب لايخـــرج ·· طبعا ·· من يجرى خلف حمار الكاتب وهو يلف على الانفار ؟·· الكاتب لايتنازل عنى ·· فى يوم طلبونى فى مكتب الوسية لانظفه ·· فتزربن الكاتب وقال للناظر ان هذا الولد ــ أنا يعنى ــ مثـل

بالبالطو والجلباب والطربوش والقلم والحمـــار ٠٠ ورأيت الناظر يضحك ويوافقه ٠٠

سأدخل فى الموضوع ٠ أخبرت جنابك ، أن الانفار ٠٠ كانوا ٠٠ ينتشرون ٠٠ ولهذا ٠٠

طبعا أعرف ٠٠ معلوماتى أن البلدة كانت حين يجيء الانفار تحدث فيها سرقات . . و . . كان العمدة يرمى التهمة فى وجه الانفـــار ٠

الباشكاتب يابيه ٠٠ كان يلم انفارا ويسلمهم للعمدة ٠٠ طبعا كانوا يبكون ٠٠ ولا احد يصدق انهم أبريـــاء ٠ وتجيء الهجانه فتلم الانفار المتهمين وتربطهم فى حبل وتجرجرهـــم وينتهي الموضوع ٠٠ أما الآن فالانفار فى الاسطبل والبلد كلها مسروقة حتى العمدة ٠٠ فمن الذى سرق ؟ لابد انها الشياطين . . أمرك يابيه . . لم أصنع لى ختما . . وسأبصم . .

— ٢ —

. . اسمى عبد الجواد احمد سالم . .

. . أحلف بالله أقول الحق . .

. . شف يابيك . . يحفظك الله . . كنا ســـاعتها فى الظهر ٠٠ ماندرى الا والجدع يسقط وسطنا ميتا ٠٠ سابت ركبى ٠٠ كان صوت المرحوم حلوا ، ولم يكن يسكت ليلا ونهارا ، فقد كان دائما فوق المئذنة . .

٠٠ شف يابك أنا — يحفظك الله — فى حالى ٠٠ لكنى أعرف أن المرحوم ليس له أعداء ٠٠ كلنا نحبه ونعشق صـــوته ، وننتظره ، ولو غاب لايجيء النوم ٠٠ كان يذكـــرنا بالله لكى نقوم ونصلى ٠٠

ليس القاتل من أبناء البلدة أبدا ٠٠ وعلى الطلاق يابيه أنـا لا أدافع عن أهل البلد فهم جميعا ملاعين والشيطان أقـــوى منهم ٠٠ انما انا متأكد أن هؤلاء الملاعين كلهم يحبون « جمعـه الحصاوى » ويموتون فيه حبا ٠٠

لايابيه ٠٠ هذا لم يحدث ابدا ٠٠ لم يتجمهر ٠٠ لم يهتف

بسقوط الملك ٠٠ أما الطوب فهل يعقل ان جمعه يقذف أحـدا بالطوب ؟ انه اذا اعتدى عليه أحد يرفع صـــوته فقط ، فى الحال يطلب المعتدى عفوه ٠٠

العمدة يقول مايعجبه ٠٠ المرحوم كان يمشى فى البلد ، وهو مكشوف عنه الحجاب وهذه مسألة بتاعة ربنا ٠٠ فلما يقف يتضح أن هنا سرقة ٠٠ وتبين السرقة ٠

معلوماتى أن العمدة لايحب شيخ البلد ٠٠ ويخـــاف من الاسطى فانوس ٠٠ والاسطى فانوس يخاف من الحاج سليم ٠٠ ومع ذلك فهم جميعا أصحاب مثل العسل على اللبن ٠

فى الحق يابك ياما سمعنا .. لكن .. لانعرف أين طريق الحـق ٠٠

من أدرانا ؟ ٠٠ الواحد منا يعرف أنه مدين لافندينا ٠٠ لكن مامقدار الدين ؟ هذا مايعرفه العمدة والكاشف ٠٠ فيقـــول العمدة : ادفع ٠٠ أدفع كم ؟٠٠ ادفع كذا ٠٠ ويكون المطلوب كثيرا ـ أكثر مما تعطيه الارض ٠٠ فنحرر ايصالا بالبـــاقى والباقى فى العام التالى يتزايد ٠٠ مايدرى الواحـــد منا الا والارض قد انتزعت منه ٠٠ فى هذا العام تنازل أكثر من واحد عن أرضه ٠٠ سلمها للتفتيش بلا كلام ٠

يحفظك الله يابك هذا ماعندى من أقوال ٠٠

طبعا أبصم ٠

— ٣ —

((أ))

سأقول بأننى لم أترك الدرك ٠ لا ٠ أقول اننى لم اتركـه الا بعد الفجر ٠ قومى ياوليه ٠ اشتركى معى فى البـــلوى ٠ طبعا ، الآن تنامين ، لكن ليلتها تركبك عفاريت الارض ، وأنا ماكنت اقدر أن افعل شيئا ٠ كان الليل طويلا فى الدار ولـم يكن النوم يريد ان يجىء ٠ قومى ياوليه وهاتى لقمة طفح ٠

لا أدرى لماذا أجوع حين أخاف • لكن ماذا يجعلني أخاف ؟ شيخ الغفر هو المسئول : اذهب نم فى الدار . ولماذا ياشيخ الغفر خدلك راحة ليلة وابسط نفسك مثل ليالى السوق • ولـــن اترك دركى ؟ لاخوف الليلة من شيء لان الانفار مسجونون فى الاسطبل . قومى ياوليه . اريد أن أسألك : اذا سألونى عن دركى ، أيصح أن أتكلم عن شيخ الغفر ؟ قومى يا امرأة وردى على • لكن يا شيخ الغفر •• ماذا جعلك تهتم براحتى فى تلك الليلة ؟ كل الغفر يظهر فى عيونهم انك قلت لهم مثل ما قلت نى . طبعا .. كل الدركات كانت فارغة .. والسرقات كانت من كل مكان • سنروح كلنا فى داهية • قومى يا امرأة الكلب اجلسى معى وونسينى . نصف البلد الان يحقق معهم : حتى المسروقين ، نذهب نحضرهم فى اليوم الواحد مرات • المصيبة ان الحكومة للآن لم تأخذ أقوالنا .. ولا أحد يريد أن يطمئن بالى • قومى يا امرأة وهاتى الجوزة فأنا خرمان • لا أدرى ماذا أقول يارب ؟ • ان سألونى عن دركى فى تلك الليلة ماذا أقول؟ هل كنت هناك ؟ فلماذا سرقوا من محل حراستك •• هل كنت تنام ؟ وقعتك سوداء . لو أنى تزوجت حمارا أو جاموسةكانت وقفت بجوارى فى الشدة • اتفوه • لا آخذ منك سوى بحلقة العينين •• ماذا ؟• لايعجبك كلامى ؟ قومى يابنت الكلب عليك اللعنة • قومى • قومى • قومى • قومى ••

((ب))

وصار يضربنى يا سعادة البيه ولم يكن هو زوجى الــــذى أعرفه ، فصوت حتى التم الجيران كلهم • ماكنت أريد فضيحة وأنا يا بيه امرأة غلبانة ، مالى أحد فى هذه الدنيا سواك أنت يابيه يحفظك الله . لكن . أعمل معروف . اذا كنتم ستضرون الرجل فلا داعى • ماكان بودى أن أشكوه • صـــــواتى كان السبب وياريتنىماصوت. خافالناس أن أكون ميته فجاءوا بى الى هنا • وحق النبى أشرف خليقة الله لا أعرف كيف تطاوعنى نفسى أن أحكى ما حكيت • انى متنازلة عن الشكوى ، فزوجى كان يخرف طول الليل ولم يقصد ان يؤذينى • فاتركوه يرجع

لاولاده ٠٠ أنا لم يحدث لى شىء وهو برىء والله وكيل ٠٠ زوجى غلبان والله يا ناس ٠٠

((جـ))

أنا قلت هذا ؟ كيف ؟ ٠٠ امرأتى طالق ان كنت قلت هذا ٠٠ زوجتى هذه امرأة مجنونة ٠٠

الحق يابيه والله اعلم أن هذا الكلام ليس غريبا على ٠٠و٠٠ الله وكيل ٠٠ لا اتذكر ان كنت قلته او فكرت فيه فقط ٠٠ انما دماغى ساعتها كان يملأ قفه ٠٠ ويظهر أنه كان يخر الكلام لوحـــده ٠

٠٠ سأقول وامرى لله ٠٠ شيخ الغفر فى تلك الليلة قابلنى وقال لى اذهب ونم فى حضن عيالك ٠ فذهبت ٠ وفى الصباح سمعت ان البلد كلها مسروقة ٠٠

((د))

شفت ياشيخ البلد ؟ ٠٠ ســــمعت ٠٠ جاءت رجلى فى الموضوع ٠٠ فماذا أفعل ؟ ٠٠ الغفر كلهم سيقولــون نفس الكلام ٠ ليس لى دعوى فى هذا الامر ٠سأقول أننى نفـــذت أوامر شـــيخ البلد . تنكر . تنـــكر انك نبهت عـــــلى بأن أخلى كل الدركات وأذهب لأضاجـــع أولادى ؟ ٠ هه ٠ والبانجو ؟ من الذى أهدانى حفنة البانجو وأوصــــانى أن أخلطها بالدخان وأشرب حتى أنبسط وأضحك وأفعل كـل شىء بمزاج ؟ . لازال البانجو موجودا عندى . لا لن أخفض صوتى بعد الآن ولتسمعنى الحكومة فى الدوار وسوف أثبت هذا فى المحضر ٠ ما مجنون الا الشيطان أما والله مصيبه ٠٠ امرأتى تفهم أحسن منى ٠ ٠قالت لى: قم يامجنون شف شغلك وهات الغفر وزعهم فشيخ البلد عدولك ٠ هذا كلامك يتحقق يا أم أمين ٠ ماكنت أظن بأنك تريد أن تأخذ منى مشـــيخة الغفر لتعطيها لواحد من أقاربك ٠٠ ما ٠٠٠ حاضر يابك ٠٠

أنا قادم .. وسأثبت ما كنت أقول ..

صدقنى أن هذا الرجل كذاب فى اصل وجهه . أنا شيخ البلد وأعرف أمثاله .. أزى الصحة يابك شربت .

هل يعقل أن رجلا مثلى من رجال الامن يأمر الغفر ان يناموا فى دورهم ؟ •• هه هه •• أهلا بك يابيك .

هذا الرجل هو شيخ الغفر من سنوات طويلة .. مصاب بداء الفكر والعياذ بالله •• ويصور له الشيطان أشياء غريبة •• ويقول أننى أريد أن أوقعه فى التهمة لآخذ منه مشيخة الغفر .. وهو عدم المؤاخذة فى دى الكلمة رجل غبى .. لايعرف اننى لايمكن أن أتنازل عنه أبدا ، فهو مطيع للاوامر ولا تجىء من ورائه المشاكل •• لكن ماذا أفعل له •• انه يمشى وراء زوجته ويسمع كلامها أكتر من كلام العمدة •• هه ••كيف الاحوال يابيك نورت •

العمدة ؟ •• معذور يابيك وحياتك عندى •• مسكين .. هل يرعى قطنه ؟ أم يرعى أولاده ؟ أم يجلس فى قصر التفتيش ليلعب الدوميو ؟ .. طبعا .. لعب الدومينو هذا مهمة من مهمات العمدة نحو الباشكاتب ، لابد أن يقوم من أمامه كل يوم مغلوبا .. أم يلف البلاد والعزب ليحصل أموال افندينا مع الكاشف ؟ •

طبعا يابيك •• الكاشف مندوب أفندينا من أجل التحصيل •• والعمدة ليعاقب من يتأخر فى الدفع ، أو يتلاعم ،أويهرب من دفع الجزية •• والحق لله فان العمدة يخدم الكاشف كثيرا .. نعم .. من لم يدفع أموالا يدفع حتى سرواله .. أهلا بسعادة البيك •

الله العالم يابيك .. لا تجعلنا نرتكب معصية .. فما اعرفه ان الدفع يسير .. قد لا يدفع أحد كل الدين .. لكن يدفع جزءا ، والكاشف لايرهق أحدا : ادفع ماعندك ونحرر بالباقى كمبياله •

العمدة كان يخزن له .. شىء مضحك . جائز يابك . لكنى أعرف ان الكاشف لا ياتمن أباه •• صدق يابك ، فلعل الكاشف جن ، أوضاقت كل مخازنه •• وعموما يابك لاتستبعد

شيئا ٠٠ فالعمدة من يومين ثلاثة أفهمنا ان خزائنه فرغت حتى من قوت بقية أيام العام .. وهو اليوم يبلغ أنه سرق من خزائنه أشياء تخص الكاشف .. أهلا بالاسياد .

العمدة حر فى ذمته يابيك وانا لا أطعن فى ذمته لا سمح الله ..

أبدا والله يابيك لا أحمل للعمدة الا كل محبة .. هل تجد البلد أحسن منه ؟ ٠٠ أقسم بجلالة قدرك يابيك ان البلد مبسوطة منه لانه لا يحب التدخل فى شئون أحد ، وهو لم يتسبب لى فى ضرر ٠

قل يارب ٠ أهلا بالأسياد اشرفتم بلدتنا ٠ الواحد يوشك أن يتمنى كارثة كبرى حتى يتشرف بضيافتكم أطول وقت ٠٠ هه هه هه ٠٠ ٠

والله يابيك ماكنا نفعل شيئا فى قعدتنا فى بيت العمدة ٠٠ كنا فى المقعد ٠٠

والمقعد يحفظك الله شيء يبنيه الواحد فوق السطح لينام فيه فى القيالة .. كنا نتكلم .. أقصد . لا أتذكر بالضبط . انما رحنا نتكلم حتى نسى الواحد منا ماكان تكلمه فى أول القعدة ٠

نفعل ؟ ٠٠ آه ٠٠ كنا نلعب الدومينو ٠ طبعا كان هناك ضيوف غيرى ٠ كان هناك الاسطى « فانوس » ٠٠ والحاج « سليم الضبع » .. أما تعرفه يابيك ؟ .. أشهر رجل فى هذه المديرية ٠٠ يورد الانفار للتفتيش ٠٠ العقبى لك يابيك يملك أيضا نصف محاصيل المديرية، يملكها وهى سنابل فوق الاعواد.

السر يابيك ان الدنيا اعطته ٠ فى يده القرش على طول الخط والدنيا زواج وطلاق وكوارث ومطالب لا ترحم أحدا . والزارع لايملك قرشا قط ، وعلى طول الخط ، فماذا يفعل .. أقرضنى يا حاج « سليم » .. خذ .. لكن لن أدفع الا من محصول القمح .. لا مانع .. ما ثمن الاردب الآن ؟ .. عشرة قروش مثلا .. اكتب ايصالا بثلاثة أرادب .. أمرك ياحاج . الزارع عند الحصد يسلم بالفعل ثلاثة أرادب وما قبض سوى ثمن الاردب الواحد فى زمن القحط ..

الحاج سليم كما اخبرت سيادتكم يشتغل بتوريد الانفار .. له فى كل مكان متعهد .. وكل متعهد له فى كل مكـــان صبيان ،العقبى لك يابيك .

شف يابيك .. أنا رجل أقول الحق ولو على نفسى . فعلا .. الحاج سليم رجل حشاش .. هذا ما نعرفه جميعا عنه ، لا يتحرك الا والصنف فى جيبه ، وهو معلم ، حتى فى شـــغل مزاجه ، لا يشبع من شد الانفاس .

أبدا والله يابيك عمرى ماذقت الصنف ولا جربته . قلت اننى أقول الحق ولو على نفسى . أشهد ان الجوزة بقيت طول الليل تكركر .. وأنا لم أعرف ان كان « الحجر » حشيشا أو دخانا أقرع .
آه .. قلت اننى أقول الحق ولو على نفسى . فى الحـــق شربت الجوزة معهم ،انما لم أكن أعرف ماذا أشرب .. من ادرانى يابيك ؟ .. أهلا بك يابيك شرفت البلد كثيرا .

فى اول القعدة كان الحاج سليم يرص الحجر بنفســـه ، ويدندش ناره ، ويقول بصوت حلو : «ميت مسا» .. اقرضنى عقلك يابيك .. كان يسلمنى البوصة ويطرقع لى بالماشة فى نغم حلو .. فشربت ولم أسال ما هذا .
نرجع يابيك .. الحاج سليم ليس من البلدة طبعا ، بـل ليس من المديرية أصلا ..

لانعرف يابيك . هو فى العادة يحضر ليقابل أحد رجـال التفتيش . والعادة أن الحاج يبيت عندنا حين يجىء .. عندى أو عند العمدة لاتفرق .. أهلا بسعادة البيك .. قل انالرجل يعاشرنا من سنوات طويلة ويعز عليه أن يكون فى التفتيش ولا يمر علينا ليقضى معنا ليلة أو ليلتين . شرفت يابيك. أهـــلا أهلا .. من زمن طويل لم نركم ، هذا والله دليل على ان البلد بخير ..

لايابيك هذا هو كل ما عندى .
طبعا طبعا .. هذا هو توقيعى .

الفصل الثالث

القيـــــظ

« الطور اشتكى منى وقال يادراعى »
« فرقلتك تاجى على الاوجـــــاع »
« البقرة قالت : مقدارى ـــ مالى »
« دالحيل والقـــوة للتـــــيران »
« عتبكم على الفــلاح وانا مالى »
« عتبكم ع اللى عد فيكو المـــال »

(اغنية حرث من الدلتا)

— ١ —

كان « مريس » الخولى قد غرس العـــوجاية فى الارض وارتكن عليها بجذعه فى عياقه ، وأخذ يطوح خيزرانتـــه فى الهواءيلاعب بها خصما غير مرئى. راقبه الاولاد وهم مصطفون على حافة الزراق ، فزغولت بطونهم وقالوا فى أنفسـهم انه متشوق للضرب من أول النهار وانه لهذا يدرب العصا .. ثم

هرشوا جميعا فى اقفيتهم وظهورهم ..

انتهى الكاتب من تدوين اسمائهم فى الدفتر المستطيل ، ثم وضع القلم فوق أذنه وشمر الجلباب والبالطو ، وقفـز القناة الرفيعة التى لوصغرت لتحولت الى زراق .. فتطـوح زر طربوشه وتناثر فوق سطح الطربوش . ضحك الاولاد وكتموا الضحك فجأة ، ثم انفجروا فيه ثانية حين لمحـوا ابتسامة كبيرة على شفتى « مريس » الخولى .

ثم دب النشاط فجأة فى الخيرزانة ، فراحت تشرخ الهواء وتئز . اعتدلت الاجساد ورفعت رءوسها ونفخت صدورها ثم ماتت فيها كل حركة .. تبختر « مريس » امامهم رائحا غاديا عدة مرات ، فى المرة الاولى تأكد أنهم ثلاثون نفرا بالتمام ، وفى الثانية عرف كم غرباويا فى فرقته ، وفى الثالثة فحص وجوه البنات وعرف أن عدد الجميلات فيهن ثلاث .. فعاد ودقـق فيهن وحدهن ، وتمهلت نظرته عند واحدة بعينها فامتد خيط الابتسامة المرتعشة من وجه الى آخر . بطـرف الخيزرانه أشار الخولى نحو البنت الحلوة وزغد صدرها صائحا فيها :

ـ أنت .. اطلعى

ارتعشت وهى تنسلت من الصف وتتقدم نحوه فى خوف .

قال من بين اسنانه :
ـ من اى بلد يابنت ؟
بلسان معووج ردت البنت :
ـ من عزبة الطوال ..

ضحك الانفار من ابناء البلد ، واحمرت وجوه بلدياتها ، وقال الخولى :
ـ ما اسمك ؟
قالت بدلال :
ـ فكيهة ..
ـ عندك بلاص ؟

انشرح وجه الفتاة ، قالت :
ـ ما عندى .. انما استطيع الاتيان به ..
لكنه شنوح وقال :

ـ اذهبى الى عزبة السراى واحضرى واحدا منها .. قولى أين دار « مريس » يدلونك عليها .. فلما تقابلين أمى قولى لها أعطنى البلاص يقول لك « مريس » .

استدارت الفتاة وراحت تتبختر وتشيعها شجيرات القطن بالحفيف . ثم قفزت وصارت على الطريق المحفوف بأشجار الجزورين على الجانبين . مضت فى اتجاه السراى .

الانفار الذين هم بلدياتها نفخوا صدورهم وابتسموا . حسدهم الباقون ، فالبنت « الملاية » صارت منهم ، ستكون شغلتها فى الفرقة ملء البلاص والعودة به مرتين فى النهار ، لتمر عليهم واحدا واحدا ، وعند كل واحد يميل البلاص على راسها فيمتلىء الكوز فيتلقفه النفر ويكرع . أما الخولى فله « قلة » مخصوصة توضع تحت ظليلة من أعواد التيل وفى حلقها عود النعناع وماؤها ليس من الترعة أو المصرف الراكد بل من بئر الساقية حيث الماء مرشح وبارد وصاف ، وفوق ذلك يستطيع الخولى ان يخرج من دارهم فى الصباح دون أن يشغل باله بأمر الغداء ..

— ٢ —

انفرش الضحى على الغيطان وانسكبت الشمس على شجيرات القطن فلمعت قطرات الندى فوق وريقاتها الخضراء ، وغاضت قمم أشجار الجزورين فى حضن الشمس فاربد لونها . ثمة أراض تتهيأ لاستقبال شتلة الارز أغرقتها المياه وبدت من بعيد كمرآة تمسكها الشمس بين يديها وتتفرج على نفسها فيها .. هكذا ارتأى الكاتب وهو يتراقص فوق الرهوان تهتز الارض حواليه ، ومن خلفه صبى يلهث ليلحق به .

نظر الكاتب حواليه ثم شد لجام الحمار ليتمهل قليلا حتى يتمكن هو من تحديد الطريق الى أقرب الفرق التى تتناثر حواليه . برطم ، بصق على الارض ، المشهد الذى يجب أن يراه لم يره ، أنه لا يمكن أن يستريح الا اذا نظر فجأة فرأى جسورا من الظهور المحنية تزحف منكفئة فوق الارض ، تقلب الشجيرات أو تزرع الشتلات أو تعزق الخطوط بالفؤوس أو تسلك مجرى المياه بالكريكات . أما مايراه الآن فلا يمكن أن يرضى عنه ، فالجسور كلها منهارة ، مابين وقوف ونصف انحناء وركض سريع . هذا ليس شغلا ، بل هنكرة فارغة : الخولة أصلهم أولاد كلب لا خشية لهم ، الانفار الذين هم من أهل البلد يستهزئون بهم ولا يريدون تسييدهم .. لابد أن يتدخل التفتيش بنفسه فى هذا الامر .. اذا استهتر الانفار بالخولة سراقت الوسية واحترقت .. أى نفر يستهتر بالخولى يدفن فى الارض الى منتصفه حتى يقر للخولى بالاحترام والا اقتدى بهم الغرابوة .. اذا كان الخولة لا يملئون انظار أهل البلد فانهم فى النهاية خولة التفتيش .. اختارهم التفتيش ووضع ثقته فيهم ، ومن لم يحترمهم فهو اذن لايحترم التفتيش وتلك مصيبة ، لابد وأن يرفع بهذا تقريرا الى الباشكاتب .. ماذا كان يظن أولاد القحبة هؤلاء ؟ .. أن نختار منهم خولة تباشر الفرق ؟ كيف وهم جميعا لصوص حكمت عليهم المحكمة .. نعم لابد وان يرفع بهذا الامر تقريرا الى الباشكاتب قبل ان يستفحل

الامر وتسقط العصا من أيدى الخولة .. ما هذا الصوت الذى بدأ يتضح ؟ .. أولاد الكلب يغنون أيضا ؟ ..

ـ ياليل ياليل ياليل .. وياليل عل الدنيا
حكمت على السـبع راح للكلب حدا الـكوم
لما صحي الكلب قال له السبع صحى النـوم
أنا أسألك يارب يامجـرى بحـور العـوم
ترجـع السـبع يخطـر زى عـاداته
وترجـع الكلب ينبش فى تـراب الكـوم

هكذا ؟ .. من ياترى ذلك الخولى الذى سمح بهذا الغناء؟. الا يدرى أنهم بذلك يشتمون التفتيش ويلومون الحكومة ؟ .. لنفرض أن الحكومة حكمت عليهم ظلما ـ لنفرض يعنى ـ فما دخل التفتيش فى ذلك ؟ .. أن الحكومة اذا بلغها الامـر فسوف تقول أن التفتيش هو الذى يشجعهم ..

ـ الدنيا جارت تقول البغل فى الابريق
والدهر رقص ديب من بعد فى الابريق
أخد الرهان عيال ماتجيش ولا فى لبريق
واتلخبط الرأى ما بقيش ولا نادر
والندل عمل الولايم قال أنا نادر
ماحد قادر يقول البغل فى الابريق

يالمصيبه . هذا صوت جرؤ وقال : البغل فى الابريق ، هذا يوم اسود من قرون الخروب على دماغك يا ابن المفترى يا هذا الخولى ، أما الذى بتمشدق بهذا اللغو فلى معه شأن آخر ، لقد عرفته ، انه ذلك الفلحوس عبد السلام باشخـولى السراية السابق ، اله عين يتكلم بل يغنى ! باشخولى السراية الذى انكشف المستور لديه واتضح انه شارك فىسرقة عرق الانفار وأنه «والس» مع الذين قاموا بتهريب حقيبة المقاول ، لايختشى على دمه وها هوذا يغنى ويلخبط فى الكلام .. الخوله أصلهم أولاد كلب حقراء برشوهم الانفار بخيارة أو سيجارة أو كلمة ياخال .. لابد أن يريهم شغلهم ..

هبط الى الارض واقفا . أمر الصبى أن يربط الحمار فى هذه الشجرة ويداريه ويدارى نفسه . ثم هبط الى مسطاح المصرف . وكان منسوب المياه قليــلا فمشى بحــذائه حتى لايتمكن الانفار من رؤيته . وعند أقرب ماسورة من المواسير الكثيرة التى تعبر المصرف ، توقف ، ثم ركب الماسورة .. وراح يزحف فوقها بحذر شديد .

— ٣ —

اصطفت أكوام الشتلة على حافة الزراق ، وراح أحــد الانفار .. وهو رجل طويل عريض .. يعيد ترتيبها فى حــزم رفيعة ، ويفرزها ، فيرمى كل العيدان الذابلة الصفراء والتى بلا جذور . وكانت أيدى الانفار تغرس الاعواد فى الارض ، وهم يزحفون مقبلين . وحين اقتربوا من حافة الزراق كان على النفر « القيده » أن يتقدم ليتملى فى خط جديد ، ويتقدم وراءه بقية الانفار ليتملى كل فى خطه حتى النفر الاخير « الساجه » . ولما كان « الساجه » عادة هو اضعف الانفار فى الفرقة فعلى النفر « القيده » أن يأخذ خطه مع خطه أثناء العودة ..

انتهز الانفار الفرصة وتلكئوا فى الوقوف عند حافة الزراق . اغتاظ الخولى ولعن الآباء والبلاد التى رمت بهم . تقــدم « القيده » واخذ حمولته من الشتله ، وتبعه الذى يليه فالذى يليه حتى جاء دور النفر « الساجه » فلم يجد الا قدرا ضئيــلا من الحزم ، فاغتبط لذلك ، وقدر أن الاهمال فى هذه الرجعة ستكون قلة نصيبه من الشتلة هى المسئولة عنه .

لف الخولى ووقف فى مواجهتهم ونظر اليهم من أمــام وتأكد ان « القيده » ليس ولدا هنكارا كعادة بعض الغرابوه الذين يحاولون دائما اتعاب الغرابوة فى الجرى بلا نتيجــة . خشى الخولى أن يمتدح شغله فينفشخ الولد ولا يستطيع هو بعد ذلك أن يعدل عليه الخط . تجاوز « القيده » وبكفه حجبه الشمس عن عينيه ونظر الى بعيد فرأى شبح الكاتب يقترب خلسة ، فانهال ضربا على الجميع من « الساجه » الى « القيده »

وأمرهم أن يطيبوا يوميتهم بالحلال . لو لم يكونوا رجالا كبارا لارتفعت صيحاتهم ، لكنهم اكتفوا بالنظر الى الخولي فى كراهية شديدة . قال الذى بجوار « القيدة » فى همس : على مهلك يا ابن الحلال ·· لماذا تتعافى علينا ·· النهار لايزال طـويلا وانت ستتعب بعد ساعة واحدة ·· رغم أن « القيدة »استمع اليه الا أنه كان يمعن فى تركيز عينيه فى الارض ويتباعد عن جاره كأن الكلام ليس له ·

فى تلك اللحظة جثم شبح الكاتب ، فارتبك «القيدة»والذى بجواره · انغرزت أصابع « القيدة » فى الطين ، شـــدها ، فخرجت بلا فردة الجورب التى يلبسها لتحمى يديه مـــن التشقق ، وكان عليه أن يستعيدها ويلبسها فى الحال دون أن يلحظ أحد ، لكن جاره فى سرعة الشيطان وخسته داس بقدمه فوق الفردة فغيبها فى الطين ومضى كأنه فعل ذلك عفـــوا · نظر اليه«القيدة » بحقد وكراهية ، واندفع يواصل الشغـــل بيد عاريه ·



شـيخ البـلدة كان السـلطان

« وشـــدادى وشـــدادى »
« لم الحمير التلاليس كتـير »
« رايحين تلموا فى غلة البرسيم »
« وشـــدادى وشـــدادى »
« وتلموا الغلال من جميع لبلادى »
« واضرب لها بالطار يامداحى »
« أمك حزينة ومطالبه لفراحى »

(من أغانى الحمارين)

— ١ —

.. يابيك هذا حرام . نفرض اننى لست العمدة — نفرض يعنى ، وقدمت شكوى لكم فماذا تفعلون ؟ .. طبعا ستقومون بالواجب فأنتم كلكم واجب ..

أقصد اننى أمامكم الآن أحس انى لست فى نظركم عمدة . وانا أخشى أن أكون قد زعلتكم فى شىء .. وأحب أن أقول لكم أننى معتدى عليه .. سرقت أموالى — أقصد أموال التفتيش — أقصد أموال افندينا ..

طبعا يابك .. ان الكاشف يحفظها عندى حتى تصبح شيئا يستاهل تعب النقل .. كنت أخزنها له .. فماذا أقــول الآن لأفندينا ؟..

أصل الموضوع وما فيه أننى كنت أجلس مع ضــيفى .. وكان معنا شيخ البلد والاسطى «فانوس» .

هل أكذب .. نعم كنا نشرب الجوزه .. لكن اكرامــا لى دع مسألة الجوزة هذه .

يو .. ياسعادة البيه .. كان حشيشــا ، هأنذا قد قلت .. قلت ..

كنا .. الاسطى فانوس والحاج سليم وشيخ البلد نجلس فى بيتى .. الله يلعنه شــيخ البلد .. يتعبنى دائمــا .. ان قلت يمينا قال يسارا .. لايحب الخير لأحد .

كنا فى تلك الليلة نتحدث .. الحاج سليم كان يحكى لنا كيف استطاعت هنومه هانم زوجة حضرة الناظر أن تجعــل التفتيش يوافق على أن يعطى الاسطبل للانفار ينامون فيه بدلا من تركهم يهربون ونتعب فى البحث عنهم .. كان الحاج سليم

غرحان ، فلقد ضمن بقاء الانفار،كان النفر اذا هرب من الشغل يدوخ السواقون وراءه ، فان وجدوه لايرضى بالعودة الا اذا قبض بقية أجره ، وقبض الاجر ليس سهلا عند الحاج سليم ، أما الآن فسيبقى الانفار ، وستمتنع السرقات •• تصور يابيك شيخ البلد هذا كان يحرض الحاج سليم أن يخصم من أجر الانفار ثمن المبيت ، مع انه يعرف ان الاسطبل ممنوح للانفار مجانا ، وأكثر من هذا يعرف أن الانفار لاتقبض أصلا الا العربون الذى جاءت به •• شف الرجل الاهبل •• مكثنا تلك الليلة نتعارك فى هذا الامر حتى أنهى اللص مهمته فى سلام •

اقصد بالعركة أن الحاج سليم كان يشاورنا .. نقول كذا فيقول كيت .. تعجبنا كلمة لا تعجبه كلمة .. هكذا يعنى .. لا والله يابك مالى مصلحة فى هذا الامر •

سأقول لحضرتكم .. هذا كشف بالاشياء المسروقة .. من بيتى وحده عشرة جوالات قمح •• خمس غرارات برسيم .. أردب فول .. ثلاثة قناطير قطن .. وفوق هذا كله .. المصيبة السوداء •• حقيبة صاحبنا الحاج سليم • • عار ياسعادة البك أن الرجل الضيف يسرق فى بيتى • • ألا تعرف ماشكل حقيبته ؟ •• هى مثل الصندوق •• كبيرة •• و •• كانت فى الحق ثقيله •

الله أعلم .. انما لو حملتها تتصور انها مصنوعة من زلط •

لم أفتحها والله يابيك .. لاأعرف ان كان فيه أموال أو هدوم .. لكن الحاج قال ساعة تسلمها لى انها تحمل مستقبل أولاد الناس •

جائز •• جائز كانت تحمل أموالا • • لاأعرف • • لا أعرف •

هو لم يعرف حتى الآن ان الحقيبة ضاعت •• فانه سافر قبل الفجر بقليل ••

آه .. أودعها عندى حتى يرجع من مشوار قرب البلد

ليأخذها .. قمت بنفسى ووضعت الحقيبة فى المخزن . . ثم صعدت لأسهر فى المقعد معهم .
أغلقت المخزن طبعا .. لكن .. القفل الذى على بابالمخزن قفل سوقى يسهل فشه .
والـ .. هـ .. ى .. ى .. بوصفى عمده .. استبعدت قدوم لص الى بيتى .
أتذكر أننى لما صعدت الى المقعد .. سألت الحاج عما تحويه الحقيبة .. فقال .. فيها أمعائى .. فيها مستقبل أولادالناس .. فسكت ..
عن نفسى .. أتوقع .. والـ .. هـ .. ى .. أراهن انها كانت تحمل بعض الخرق ، وبعض الاوراق ، وبعض الاشـياء التى يستعملها فى السفر .

أنا أعرف هذا الحاج .. طبعا سيبالغ ..سيقول انالخزينة كلها كانت فى الحقيبة .. دبرنى يابيك .

من أتهم .. فى الاول كنا نتهم الانفار .. أما اليوم فمن نتهم ؟ ..
أعداء ؟ وما أكثر أعداء العمدة .. وخصوصا ان كان مثلى شديدا لايعرف أباه فى الحق .
سأقول لحضرتكم .. حين رأيت ذلك الولد المدعو جمعه .. الله يرحمه .. عرفت أن السرقات بدأت تنكشف . . فقمت لأرى ماذا جرى لى أنا أيضا .

أصل المرحوم كان يلف البلد .. ولما رأيت النـاس كلهم خلفه عرفت أنهم قادمون للشكوى من شىء ، وأن هـذا الشىء سرقات .

كنا ساعتها نجلس فى الفرانده بجوار الدوار . . وكان الحاج قد توكل .. كنا مازلنا فى جلستنا منذ الليل ..سلمنا على الضيف وبقينا .
آه .. المقعد ؟ .. آه .. شف يابيك .. جمعه .
حاضر .. حاضر .. حاضر .

كنا في الليل في المقعد كما قلت سيادتكم ٠٠ ولما ودعنا الحاج نزلنا وجلسنا في الفراندة .. لان الصبح في الفراندة عندنا يكون جميلا جدا يابيك .. والله يابك لو تجلس معنا في الصبح دقائق تعود صبيا من جديد ٠

حاضر ٠٠ حاضر ٠٠

قلت لحضرتكم ان المرحوم هو الذي ذكرني ٠

أرجو أن يتكرم أسيادي بقبول الدعوة عندي هذا اليوم ٠٠ سأجهز للاسياد عشاء طيبا .

لا سمح الله يابك اني أفعل الواجب ٠٠

لا يابك ماعندي من أقوال أخرى ٠

حاضر .. ستضحك طريقتنا في التوقيع .. ولكن .. هو توقيع ٠٠

— ٢ —

بعد اذن سعادتكم .. أصلي متعب طول النهار ولابد أن أجلس ٠٠ وهذا هو من عشمي فيكم طبعا ٠٠ لاأقول انني في مستوى العمدة او شيخ البلد ولكنني اقول أن جنابكم أصحاب ذوق أبا عن جد ٠

ليس من الضروري أن أعرف أصلكم ٠٠ يكفي أن أراكم٠٠ سيماهم على وجوههم ٠٠ لاشك أن جنابك تعرف أولادي ٠٠ انهم مثلك .. أفندية محترمون .. وأيضا في النيابة والحكومة وهم أكبر من حيث السن فقط ٠

وهو كذلك ٠٠ لاتؤاخذني ٠٠ لاتؤاخذني ٠٠

اسمي في شهادة الميلاد . «عبد الرحمن الكخيا » .. أما الاسطى فانوس هذه فلها حكاية ٠٠ أهل البلد أطلقوا على هذا الاسم ٠٠ أيام كنت مازلت أعمل في قصر التفتيش ٠٠ كنت لاأحب العمل الا في الليل ٠٠ فالصراف الذي يريد أن يلم الغلة من الفلاحين لاينجح الا في الليل .

السبب يابك ان الفلاح اذا عرف انه سيدفع الدين يتغيب

عن الدار ، ولايرجع الا لينام .. وأنا . . موتي وسمي من يماطل في الدفع .. وأحب أن أتقن عملي ثم انني أعرف صنف الفلاح .. صنف لايجيء لمن يحترمه .. تعطيه بفوق دماغه بركع .. ويتمسكن حتى يتمكن .. يأخذ منك السلفة ويتفرعن بعدها .. ووالله لقد تعبت ، ولعبت مع هؤلاء الفلاحين .. «حاوريني ياطيطه» .. الواحد منهم لايشعر الا وأنا فوق دماغه .. أقتحم الدار بلا استئذان . . طبعا . . أستأذن ممن ؟ من رجل واطي ؟ ومدين للتفتيش ؟ ويلوعني في التحصيل ؟ أقتحم عليه الدار وأنتف ريشه .. لايمنعني شيء . لا برد ولا مطر ولا ظلام . الفانوس في يدي . . والشمسية أيضا في يدي الاخرى .. وحقيبة الاوراق والفلوس مع خفير مخصوص .. والعمدة قيد النده . . الفلاح من أخبث مخلوقات الله .. حين أراد أن يسميني الشبح أو الهم أو الموت او المصيبة ، تخابث وسماني .. فانوس .. وأنا طبعا مسلم ، واليهود عادة مشهورون بشغلة الصرافه ، والواحد منهم يسمى بالاسطى .. ومع أنني لست يهوديا الا حين أساوي الحسبة ، الا أن اللقب تعلق بي ، وصرت أنادى بالاسطى فانوس حتى في بيتي .. ! .. وللعلم فأنا من أصل تركي .. ولهذا خدمت في التفتيش .

طبعا .. نصف عقار التفتيش آل اليه بفضلي .. ضيعة مولانا كانت في الاصل فدادين قليلة .. محسوبك ضاعفها له .. أعطى للفلاحين ديونا .. وكان معظمهم من الاعيان المالكين .. سقيتهم بعض كؤوس الخمر .. أعجبتهم .. طلبوها .. افتتحت لهم خمارة .. على فكرة .. المنطقة التي نحن فيها الآن بما فيها بيت العمدة .. اسمها الخماره .. لان الخماره كانت قائمة هنا قبل ان يهدمها أفنديننا .. صار الاعيان يشربو ويسكرون على الحساب ويوقعون على عقود بيع الاراضي مقابل كأس .. أوباش كلهم ولا يصح أن يملكوا .. وفي النهاية أنا مظلوم .. لم آخذ أكثر من عزبة .. عزبة هي كل مكافأتي عن خدمة عمر كامل .

العمدة ؟ .. شيء يضحك .. أهمس فى أذنكم : انه رجل كذاب .. أعرفه ابا عن جد .. أبوه كان يعاوننى فى الشغل وكان كالمنشار ، طالع يأكل نازل يأكل .. العمدة الآن بسم الله ماشاء الله يمتلك مساحة طين لايستأهل منها قيراطا .

شف يابيك .. لاتأخذ من أقوال العمدة شيئا تعتمد عليه وتتعب نفسك فى التحقيق .. العمدة هرب أشياء كثيره .. هربها فى عز الليل .

لا لا .. الكاشف لم يترك فى بيت العمدة شيئا من محصول أفندينا .

ما سرق من العمدة من شيء .. لا تكتب هذا فى المحضر .. لكنى أخبرك بشكل شخصى .. الموضوع بكل بساطة أن العمدة سرق حقيبة الرجل الضيف .. لكن ما جاء بلاشا راح بلاشا .. ماتحمله الحقيبة يغرى بسرقتها .. كانت تحمل ذهبا يشربه الناس .

كل لبيب يفهم بالاشارة .. أرجــــوكم لاتكتب هذا فى المحضر .. انى أخدم حضرتكم من اجل عيون الحق .. فــلا تتسبب لى فى وجع الدماغ .. الامر بكل صراحة ان الحـاج سليم يتاجر فى الحشيش والافيون .. وكانت الحقيبة مملوءة بأجود صنف .

عرق الانفار يابيك ... ما من أحد فى الانفار يقبض أجــرته بالكامل .

أحكى لك .. الناظر يتعاقد مع المندوب على طلب الانفــار بسعر كذا للنفر الواحد .. ويروح يتعاقد مع الحاج سليم على طلب أنفار بنصف السعر الذى تعاقد عليه مع المنـدوب .. الحاج سليم يتعاقد مع السواقين ــ وهم صبيان المقاولـين فى القرى والعزب ــ على توريد الانفار وبنصف السعر الـذى تعاقد عليه مع الناظر .. السواقون يلمون الانفار بالاكــوام رجل وأولاده ، حارة كاملة ، نصف عزبة والنفر الواحد لايكون له سعر ، وكل مجموعة تأخذ عربونا تقسمه على نفسـهـا بمعرفتها .. والكل فى النهاية يعمل بهذا العربون فقط .

يشكو ؟ .. من يشكو ؟ .. ان من يريد ان يشكو عليه أن يعرف أصلا : يشكو من لمن ؟ .. ما أكثر ما فكـــر ناس فى الشكوى .. لكن الشكوى لاتخرج أبعد من جوف المظلوم .. ولهذا فالحاج سليم أبرع من تاجر فى الانفار وفى الافيون .

أعرف هذا الحاج كما اعرف وجهى فى المـــرآة .. كنت الصراف وكنت أقبضه ثمن الانفار .. انهداهية لاتستهزىء به ولاتقل لى حكومة ولا غيره .. فهو يستطيع ـ عدم المؤاخذه ـ أن يبيع الحكومة ويقبض ثمنها منها دون ان تعرف الحكومة .. ولولا اننى من اصل طيب ، واخاف الله ، ولا أحب آكل السحت لاصبحت الآن من رجاله ، ولاصبحت أساوم فى لقب الباشا .. مع ان عائلتى أكبر من هذا اللقب ، ولو كنت شغوفا بـه لانهيت المسألة من زمن ، انما أرى كثيراً من تجار البصـــل والمغات والخيش اخذوه ، وانا ـــ عدم المؤاخذه ـــ لا أحب أن آخذه .

أمرك فلنرجع للموضوع . كنت اقول بانى عجنت سليمـا وخبزته ، فكثيرا ما .. اقترض منى مبالغ ليدفعها فى صـفقة أفيون كبيره .. من طبعى اننى لا أرفض حاجة للمحتاج .. وخصوصا فى مسألة الفلوس هذه ، فى الحق كنت أسلفه ..

أم .. .. م .. م م .. طبعا هو ليس عبيطا كى يخبرنى عن أصل السبب على المكشوف .. انما كنت أعرف الامـــر لوحدى .. فأنا أفهمها وهى طائرة .. وحين اسلفه لا أصـير ماكينة : هات وخذ فى الحال .. لا .. المسألة تتم على مهل ..

فنجان قهوة .. كرسى دخان .. غدا .. جواب .. رد الجواب .. مرسال .. يعنى لابد ان افهم جو المسألة وأضمن أموال التفتيش ـــ اقصد أموالى ـ بالفهـــــلوة أكون عرفت نوع الصفقة .

كان يؤكد ظنى ان الحاج يرد فلوسى بعد نهار واحـــد ، ويضيف اليها ما ربحنه خلال النهار .

كان الربح يوازى ـ أحيانا ـ ربع المبلغ .. فبـــأى دماغ

أتصور ان الحاج سليم يتاجر فى شىء مشروع ؟٠٠ ميز أنت يابيك .

لا أنكر انى كنت شريكا فى القعــده ، لكنى شريك جلوس فحسب ، ولم أهتم بشىء مما دار ، ولذا لا اتذكر شيئا مما دار يعنى ٠٠ كنت الاحظ ان العمدة مشغول بحوار مع شـــيخ البلد من ناحية ومع الحاج سليم من ناحية اخرى ٠

كنا نلعب دومينو انا والحاج ٠٠ وكنت طول عمرى لم أغلبه ٠٠ فهو دماغ يعرف كيف يسد عليك طريق الفوز ٠٠ لكنى ليلنها غلبته .. مصرت سعيدا ، وظللت سعيدا حتى أحسست بأنى العب مع نفسى .. كنت عبيطا .. خيل لى انى أغلب والحاج سليم فى دنيا أخرى .. يلعب لعبه ، ويميل على العمدة يتكلم ، ويميل على شيخ البلد ليهمس ، وأنا من عبطى مندمج فى اللعب بكل حماس ٠

كنا نشرب طبعا ٠٠ هل انكـــر ؟٠٠ شيخ البلـــدة كان السلطان ــ اى كان يقوم برص الحجر وبتويجه .. كان طريفا ٠٠ فالرص مزاج يستهوى شيخ البلد طول عمره ٠٠ والحاج سليم يعرف هذا ٠٠ ويسحب الكيس من جيبه فيقضم قضمة كبيرة يرميها فى حجر الشيخ ، فيدفنها فى كفه ليرص منها ، فتغيب القطعة فى كفه تقول ابتلعتها مقبرة أو ذابت فى دمه ؟ بعد ثلاثة حجارة أو أكثر يطلب غيرها .. الحاج سليم يكون منتظرا هذا .. لكنه يحتج ، وشيخ البلد يجمع حجارة الدار كلها ويرصها فى انتظار هذه اللحظة ليشير اليها بأصبعه قائلا لقد شربنا كل هذا ، ونكون قد شربناه فعـــلا ولكن من بداية القعده ، ولكن الحاج سليم يتحسس الحجر بكفه فيقدر كـــم دورا لعبه بالنار هذا الحجر ، ونضحك حتى نفقد كل وقار ، وفى النهاية لابد للحاج ، ونضحك حتى فى حجر شيخ البـــلد قائلا : املأ عينيك .. ثم ينتظر المكافأة ، ويكون الشـــــيخ مستعدا لها ،بتعميرة مضاعفة تغطى الحجر كله ونارها مسبسبه مثل حب الرمان ، ويسلمه البوصه ليسفح الحجر كلــــه فى سحبتين ٠

مايمكنني تأكيده هو أن العمدة لم يفقد شيئا انه على العكس كسب الصفقة كلها •• فمن يدرى •• هل ثبت لكم أن الحفيبة ضاعت من بيته ؟ •• من أدراكم ان العمدة لايفتعل الامر ليحظى بالصفقة وحده ؟ •

لا أملك اثباتا • لكن هذا ما أعرفه •

سامحك الله •• طبعا يمكنني التوقيع •• وقلت لحضرتكم أنني كنت الصراف الاوحد فى التفتيش •

وعلام أوقع يابيك ؟

لا •• لا •• اسمح لى •• ماقلناه الآن كلام يخرج عن دائرة التحقيق •• اسمح لى •• انى لست بجاهل •• أولادى مثل جنابك وكلاء ومحامون •

أعنى أنى أفهم ايضا فى القانون •

يعنى أن كنت تريد منى أن أوقع •• تبدأ التحقيق من جديد لكى اتكلم كلاما للتحقيق •• اما الذى اقلته الآن فكان خدمة من أجل خاطركم •

— ٣ —

أنا ؟ •• السواق الخصوصى •

- نعم يسموننى هكذا •• واذن فهو اسمى •

ما غريب الا الشيطان يابيك . .وما دخلى أنا اذا كان اسمى هكذا ؟

وأنا صغير كانت أمى تنادينى بـ « ياشحات » •• لكن الجهادية حين طلبتنى قالت للعمدة أن اسمى «سعد أبو مندور» •• وقال العمدة ان اسماء الناس كلها فى دفاتر عند الحكومة •• وذهبت للفرز ، وكدت « آلبس » لولا أن « النضاره » وجدت فى عيبا •• وهو أن قاعة العين فيها لا أعرف ماذا ؟ •• عشبنا وشفنا للعين قاعة كالتى ننام فيها •

يابيك لاتحرق دمك مع امثالنا • • لماذا تأكل فى نفسك

هكذا ؟ علينا ؟ على الحق ؟ على الواجب ؟ .. كل هذا لايستأهل .. ان كان علينا فملعون أبونا .. وان كان على الحق فهو ضائع ضائع .. من يوم ان وعيت وأنا اسمع الناس تتحدث عن الحق الضائع .. ولم أر هذا « الحق » يبين أبدا .. من أدرانا .. ربما لايكون هناك مايدعونه بالحق هذا ..

حقا حقا يابيه .. أنا فعلا ابن كلب وملعب .. كلهم يصفونني هكذا .

يا بيه .. ان من يدخل الخدمة فى « الحاج سليم » لابد وأن ينسى اسمه .. فكل واحد فينا ولد .. وكل واحد منا معروف بما يفعله فى خدمة الحاج ، فالولد السواق والولد الحلاق والولد العربجى والولد الحمار والولد السايس والولد الغفير والولد بتاع الزريبه .. والاسم عندنا هو الذى يجىء منه أكل العيش .

نعم يابيه فى تلك الليلة كنت مع الحاج سليم فى بيت شيخ البلد وبقينا ساهرين حتى قبيل الفجر .. ثم رحلنا ، وطلع علينا النهار فى مفارق الطرق .. فذهب الحاج الى بيت له فى المنصورة ، وعدت انا الى دارى فى « ميت الشيوخ » لكنه بعث من ينادينى فعدت اليه .. فأرسلنى الى حضرة العمدة بكلمة .. فما أدرى الا وأنا واقف أمامكم ..

هى كلمة جئت بها للعمدة فقط وليس لى أن أفرط فى الامانه .. هكذا أمرنا الله .

تضربنى ؟ .. انك ان ضربتنى فلن يتعب الا انت .. أتقصد أن جسمى عرف الكرباج والبوصة والنبوت والمطواة وحد الفأس واللسع بالنار والخوزقه .

نعم .. جنابك قلت الفائدة : الضرب يلذ جسدى ، فأنا لم ارنفسى الا مضروبا على الدوام .. تعرف يابك .. بعض الناس كانوا يؤجروننى لاتلقى الضرب بدلا منهم .

لا .. كله الا هذا .. ارح نفسك وابتعد عن هذه الكلمة

فأنا لن افرط فى الامانة ٠٠ هل ترضى لى بالكفر ؟ ٠٠ ان كنت ترضاه فهذا شىء آخر ٠

هى كلمة والسلام ٠٠ وحين لقيت العمدة كحجت فى أذنه ولا أعرف ان كان صوتى جاء أم لم يجىء .. لكن العمدة هــز رأسه موافقا فعرفت اننى قلتها .. ثم سجننى وجاء بى الى هنا لا أدرى لماذا ؟ ٠

العمدة قال ؟ ٠٠ هو حر ٠٠ العمدة يقول مايشاء فهو حــر فى الامانة ، وكل واحد حر فى الامانة ٠٠ ولكن مادام حــــرا فمصيبته سوداء ٠

أقصد أن أقول : لم الكذب ؟ اننى لست حرا فى أى شىء حتى اكون حر التصرف فى الامانة ٠٠ أما العمدة فهو عمدة ٠٠ ويستطيع أن يفرط فى الامانة كما يعجبه ٠

لماذا تشخط فى هكذا ٠٠ ان الحاج لم يفعلها معى ٠٠ هــل أنا لاسمح الله عبت فى حق الحكومة ؟ ٠٠ أقول أن العمدة عمدة ويستطيع التصرف من نفسه ٠٠ أما الركش من أمثالنا فهــم لايستطيعون ٠

الركش هم الركش من غير مؤاخذه ٠٠ يعنى التراب الذى لاينفع فى تسبيخ الارض ٠٠ فهو لافائدة منه ولا منجـــاة من ضرره .. نعم .. الركش ركش فى كل شىء والعمدة عمـــدة فى كل شىء أيضا ٠

لا ٠٠ اننى لن أقول ماذا قلت للعمدة ٠٠ أما ان قلتم أنتــم ماذا قلت أنا للعمدة فهذا يكون كلام العمدة وليس لى دخــــل فيــــه ٠

العمدة قال ؟ ٠٠ خلاص ٠٠ هو حر ٠٠ والله يابك صــدق مايعجبك .. ان كنت جنابك تريد تصديق العمدة فأنتم أحرار وأنتم حكومة مع بعضكم ، ولكن مثلما ندعكم فى حالكم دعونا أنتم أيضا فى حالنا ٠

أنا أقول من غير أن تتساءل عن جبلتى .. اننى لو قلت كلمة الحاج فسوف يطلق الرصاص على ٠٠ ويبعث بمن يقضى على

أولادى .. خير لى ياسيدى الافندى ان اختار الموت لوحدى .. فلكم أن تقتلونى الآن .. ولكن الحاج سيتأكد اننى لم أخن أمانته .. ولو قلتم اننى قلتها فسيضحك ، لانه سوف يعرف ان موتى تحت يدكم معناه اننى لم اشأ قولهـــا .. وحينئذ سيرعى أولادى من بعدى .. على اننى متأكد أنكم لن تقتلونى مهماقلت أو فعلت .. فأنتم بالطبع لستم مجرمين ، والا فكيف تسميكم حكومة ؟ .

الحبس .. الحبس .. ضعنى فى الحبس .. هأنذا .



الفصل الخامس

قبلما تسقط المئذنة

« الحلس قال للتور مالك ومالى »
« اسحب على باطك بلا جمالى »
« ياشايله البلاص دلى واسقينى »
« ياحاردة القصه على الجبين »
« يامطرزه الجبه لجد البديل »
« يا محرمه العشاق نوم الليل »

(اغنية للساقية)

— ١ —

قال « دياب » لـ « الاعرج » :
ـ والله ياسى اعرج لقد تقطع قلبى ·· الكاتب كان يضرب عبد السلام ضرب موت ··
وكان « دياب » يضغط بقدمه فوق سلاح الكوريك ليغوص فى الارض وبيديه سحب الكوريك نحو بطنه بعنف ، فدفع سلاح الكوريك مزيدا من الردم راح الاعرج يتلقفها فى مقطف كبير ليسوى بها زراقا جديدا ··
ـ أقطع ذراعى ان ماكان هناك ثار قديم بين الكاتب وعبد السلام ··
قال الاعرج وهو يتلفت حواليه ليتأكد من انهما الان وحدهما فى هذه المقطوعية :
ـ انك لا تعرف السبب ·
سر « دياب » لان نفرا من أهل البلد رضى بأن يحادثه فى ود كأن لا فرق بينهما ، وقال :
ـ ماالسبب ياسى « اعرج » ؟
قال الاعرج وهو يبرك فوق المقطف ويدك الردم فيه :
ـ ان التفتيش لايطيق سيرة « جمعه » .
ـ جمعه من ؟
ـ جمعه المؤذن .. لقد كان مؤذنا وصييتا .. ولكنه قتل ·· أقصد ·· مات
ـ هل ··
ـ لا ·· لقد مات ·· وحكم علينا جميعا أن نصير أنفارا ··

ـ لكن ٠٠ عبد السلام ٠٠ الحق لله ٠٠ لم يجىء بسيرة جمعه فى مواويله ٠٠

اقترب الاعرج منه وهمس :

ـ المهم أن يغنى دالسلام ٠٠ فكلما غنى أحد ٠٠ يتذكر الناس جمعه ٠٠

زام « دياب » وهبطت قدمه بعنف فوق سلاح الكوريك . وقعت كتلة جامدة من الردم ، فانهال عليها بقدمه حتى نعمها ، وقال :

ـ ليست هذه أول مرة أسمع فيها اسم جمعه ٠٠

لكن « الاعرج » نظر الى « العقال » فوجده لايزال أقل من منسوب المياه فى المصرف المجاور ، ووجده ضعيفا أيضا ٠٠ فقال كأنه واحد من رجال التفتيش :

ـ هم يادياب ٠٠ هم يادياب ٠٠

وراح « دياب » يضغط بكل قوته على سلاح الكوريك ٠ لكنه قرب رأسه من رأس الاعرج وقال هامسا :

ـ لماذا أنت خائف هكذا ؟

فنظر اليه الاعرج فى غيظ ، وراح يعبىء الردم فى المقطف دون أن يرد ٠٠ وراح « دياب » يضغط ويطرد الردم ، ولم يفكر فى اعادة السؤال .

ـ ٢ ـ

ما أن أغلق باب الاسطبل وتباعدت أقدام الخفراء حتى اشتعلت عشرات المشاعل وامتلأت سماء الاسطبل بالدخان . ابتهج « طلعت » وأحس بالفرح ، وتذكر مولد سيدى ابراهيم الدسوقى الذى ذهب اليه مرة مع جده مهيوب ، كان الدراويش يجلسون هكذا ويملئون الدنيا أصواتا وكلاما ولكن لا أحد يفهم شيئا ؛ ولا أحد يعرف أن كانوا يتشاجرون أم يتحدثون ٠٠

نظر حواليه ٠ رأى كل من فى الاسطبل يتحدث ٠ مع ذلك

هناك كثير من الاجساد تتمدد وتطلق الشخير . أراد أن يتحدث مع جده « مهيوب » ولكنه خشى أن يصل بهما الحديث الى موضوع أمه وأبيه ، فترك جده يتقلب ويبسمل ، ومد يده ليوقظ « عمرو » ولكنه سحبها ، اذ كان « عمرو » قد التصق بالارض ومرت من فوقه الاقدام كثيرا تبحث عن سطلها واشيائها ، وقال لنفسه : « لقد تعب عمرو اليوم » وأحس أن يحبه حبا كبيرا فهو الذى يحمية من عصا الخولى بأن يساعده فى تنقية خطه ، وقال لنفسه انه حينما يكبر يصبح أفنديا محترما سوف يجيء الى هذه البلدة ويسأل عن « عمر » وربما استطاع أن يوظفه في وظيفة ما . حينئذ تذكر المظروف الكبير فراح يتحسسه ، لم يكن يعرف إن المظروف مسل الى هذا الحد ، انه لم يعد يستغنى عنه لحظة واحدة ، ساعة القيالة يقرأ فيه وقبل النوم ، ولو كان الود وده لظل يقرأ فيه الى ما لا نهاية ، وسأل نفسه : أتكون قصة من القصص التى كان بعض الناس فى بلدته ينسخونها ويقرأونها ؟ ان أمه تحتفظ بكثير من مثل هذه القصص ذات الغلاف المزوق وتقول أنها كانت أشياء أبيه التى تركها يوم السفر فأخذتها ، قرأ فيها كثيرا وتعلم منها كيف يقرأ بسهولة ، وكيف صار بذلك لامعا فى الكتاب محظيا بشكر سيدنا على الدوام . لكن هذه القصة التى فى هذا المظروف مملوءة بكلام كثير مما يدور فى هذه الحياة ، ففيها الانفار والمقاول والتفتيش ، وفيها كذلك عمرو وعمده وشيخ بلد وشيخ غفر ، وفيها حكومة ونيابة وربما قاض .. انه لمتحير فى أمر هذا المظروف ..

وبدأ يقلب الاوراق حتى وصل إلى الصفحة التى كان توقف عندها ..

— ٣ —

اشارة

من عمدة كفر أبو سالم شرقية الى نيابة كفر الشيخ زمام

الوسيلة تعلق جلالة الملكة بخصوص الحاج سليم الضبع أشهر مقاولى الانفار وأكبرهم فى العب نفيد بأنه كان بالبلد منــذ حوالى جمعه وأنه بات ليلتها طرف زوجته وفى الصباح توكل على الله لاتدرى الى أين . وبسؤالها أجابت بأنها لا تعرفأى شيء عن عمله أو سفرياته . ولما قلنا لها كيف اذن تعيشين على ذمته.؟ قالت أنه يرسل اليها كل ما تحتاجه .. ونحيط علم سيادتكم أننا سنجعل بالنا منه وان رأيناه او سمعنا خبراعنه سوف نوافيكم به دون ابطاء ..

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

— ٤ —

بـــلاغ

حضرة المحترم السيد المبجل الاستاذ الفاضل وكيل نيابة كفر الشيخ ..

لكم التحية والاحترام .

أعرف سيادتكم ياسعادة البيه أن حضرة العمدة هو الذى دبر للامر كله من طقطق لسلامو عليكم وهناك ناس كثيرون يقولون أن حقيبة الحاج سليم الضبع التى تركها عنده أمـانة كانت مملوءة بالحشيش والاميون وحضرة العمدة قام بتهريبها فى عز الليل مع رجاله أعضاء المنسر ولما عرف أن جمعه المؤذن رآه من فوق المئذنة فى الليل اكترى من قتله فى الصــباح . فالعمدة ولامؤاخذة ياسعادة البيك شيخ منسر كبير يفعلهـا كل عام ويدعى أن الانفار هى التى فعلتها والصحيح أنــه متعاون مع حضرة الباشكاتب ـ أقصد مع زوجته التى تجيد التدبير والكلام والايقاع بالناس فى شر اعمالهم ــ أى أن العمدة يابيك يعطى للباشكاتب حقه فى مقابل أن يقوم الباشكاتب بتسليم عدد من الانفار ينتقيهم ويأخذ بصماتهم على أوراق ويملؤها بأقوال من عنده ويزعم أنها اقوالهم .. أنفار كما تعرف ياسعادة البيك ولا سعر لهم الواحد منهم يبصم على أى شيء

حتى ولو كانت ورقة بموته خصوصا اذا كانت هذا الورقة ستجعله يفلت من الحكومة وتتركه يرجع لعياله .. وما يكاد الواحد منهم يخرج من أيدى الحكومة ويتسلم خطه فى العمل حتى يفاجأ بالعسكر يقبضون عليه ويفاجأ بأنه معترف بالسرقة وأنه مجرم محترف وسوابق وأنه وأنه ..وحينئذ لايجديه بكاء ولا صياح فلن يسمع له أحد ، وهو يعرف هذا جيدا .. بعضهم يقع من طوله ميتا ، ومن تستمر فيه الروح تراه يمشى أمام العسكر فى ذلة مثل كلب مريض بالسل ،الامر الذى، يجعل العسكرى يخالف ، لاول مرة فى حياته أمر الحكومة ، فيتمنع عن ربط المقبوض عليهم بالحبل المتين أو الجنزير ، بل انه من شدة سخريته بهذا الامر وبعدم جدواه يترك المقبوض عليهم يمرحون فى الطريق . ويرسلهم يشحذون له خيارة أو رغيفا أو قلة ماء ..

ونعرف سيادتكم ياسعادة البيك أن العمدة يشارك الحاج سليم فى تجارة الحشيش والافيون منذ زمن بعيد ، والحق ان العمدة كان دائم الشكوى من الحاج بسبب مماطلته فى دفع الحقوق ، وكنا نعرف أن الحاج مدين للعمدة بدين ما ، لكن لانعرف ماهو بالضبط ، وحين كنا نسأل العمدة كان يقول أنها أموال اقترضها منه الحاج ، وفى مرة أخرى يزعم أن هذه الاموال هى اثمان حبوب باعها له العمدة كيما يرسلها

الحاج الى زوجاته فى النواحى القريبة . والمؤكد أن الحاج سليم ليس هو بالذى يقترض وحتى اذا حط به الحال فهو لايقترض من رجل كالعمدة وهو أيضا ليس بالذى يشترى حبوبا بالدين ، لانه يملك محاصيل القرى وهى سنابل فوق الاعواد ، ثم ان له مخازن أين منها مخازن التفتيش أو أفندينا نفسه . أما العمدة فانه يأخذ منك الدين قبل أن يدينك به .

ان العمدة والحاج سليم يابيك من قماشة واحدة . وتأكد يابيك ان حقيبة الحاج تذوب الآن فى أفواه مدمنى الافيون وتحترق على مئات الجوز هنا وهناك انا نفسى قابلت بالامس أحد أبناء الحظ وكان لتوه قادما من عند البائع بالتعميره .

احببت رؤية التطعة رغم انني لست كيفا . ماكدت افك عنها ورقة السلوفان حتى تأكدت أنها من نفس البضاعة التيكانت في حقيبة الحاج سليم ، ثم ان الرجل نفسه أكد لى ذلك حينما قال أن التعميرة من ماركة الثلاث سنابل ، والبائع ان كـان هذا يهمكم هو « محمد محمود الجرن » الكائن بعزبة صباح تبع الناحية ، وهو من أخلص خلصاء الحاج والعمدة معا ٠وعند ذهابى اليه للتأكد فوجئت أن البضاعة التى عنده ليست من نظام الاكياس بل من نظام الخوابير ـ وهو صنف طيبللغاية لايرد الا من بيروت وبمعرفة الحاج سليم وحده ٠٠

كما أعرف سيادتكم ياسعادة البيك أن الاسطى فانوسهذا رجل ليس له في التور ولا فى الطحين ٠ انني لا أصاحبـه ولا أحبه ولكنى أقول كلمة الحق ٠ لقد ظلم كثيرا فى مسألة السرقات هذه ؛ ولو رأيتموه الآن لادركتم براءته ، فهو يقضى الليل فى الجامع والنهار في البيت لايغادره ٠ وهو حزين أشد الحزن بسبب ماجرته عليه طيبته وماجلبه عليه تواضعه حين يجلس مع مثل هؤلاء الناس . هذا مالزم عرفناكم وتفضـلوا بقبول فائق الاحترام ٠ مقدمه « فاعل خير » ٠

— ٥ —

ـ عليك السلام ورحمة الله وبركاته ٠٠

وامتد الظل الكثيف وحجب ضوء الشعلة العليـل عـن الصفحات ، ومنذ برهة كان الفتيل يهتز ، وفوق الصـفحات تتراقص ظلال باهته ٠ رفع « طلعت » وجهه رأى رجلا طويل القامة متهدل الشارب يلبس طاقية الخفراء النظاميين نحاستها مخلوعة وقد اجريت وكلحت ، ويتذكر « طلعت » أنه كثـيرا ماسمع الانفار يسخرون منها ، وهذا الرجل يرد عليهم بأنهـم « بجم » لايفهمون شيئا ، وأنه لاينوى خلع هذه الطاقيةالا حين يتأكد انه خلاص لم يعد خفيرا نظاميا يتبع عمودية الناحية ٠٠ وهو بعد لم يتأكد ٠

اعتدل « دياب » فى جلسته اما الاعرج فلم يعتدل ، انما قال :

ـ تفضل ياشيخ الغفر •

نظر شيخ الغفر حواليه ، شرع يجلس ، فأوسع له الاعرج مكانا بجانبه لكنه اصطدم بجسر من الاجساد المتمددة • بكوعه زغد الجسد المجاور له . انشرخ الهواء وامتلأ الاسطبل فجأة بالصراخ، صراخ غرباوى واضح وملتاع، حتى خيل لطلعت انه ان لم يصرخ هو الآخر فى الحال يكون قد تخلى عن واجب مهول، لكن الصرخة كفت مرة واحدة ، وحولها سقف الاسطبل الى انغام رمادية داكنة راحت تنسحب من خلال الفتحات ، فكأنها ازاحت من الفتحات كتلا هوائية متجمدة فهب صقيع غريب مفاجىء • كان الاسطبل بطوله وعرضه قد صار ـ فى ظل نوره المخنوق ـ أرضا سوداء محروثة مليئة بجسور من السبخ فى غبشة الفجر الرمادية : عشرات الرؤوس مرتفعة متشابهة . استطال أكثر من رأس واعتدل أكثر من جسد فزلزلت الارض زلزالها واهتز كل شىء فى الاسطبل لحظتها •

ـ من الذى صرخ •• هه •• من الذى صرخ ؟
هكذا صاح من يسمونه بالباشخولى عبد السلام •
ـ واحد من أولاد الزوانى •

هكذا قال الرجل الذى يلبس طاقية الخفراء والذى كان السبب فيما حدث •
ـ لا •• انه ليس واحدا •• لقد صرخ الاسطبل كله •
بهذا رد الباشخولى •

ـ نعم هناك أصوات كثيرة صرخت ••
ـ كانت الصرخة بجانبى •
ـ كانت فى أذنى •
ـ كانت فوق صدرى •
ـ لا أدرى ان كنت سمعت الصرخة أو صرختها أنا •
واختلطت الاصوات • بدا الاسطبل كأنه مخزن لكل

الضفادع التي في برك الدنيا كلها . صرخ الباشخولي وهو ينهض واقفا :

— بس .. الكل يسكت .

خفت نقيق الضفادع بعض الشيء ، لكنه سرعان ما ارتفع مرة واحدة كأنما لايعجبه الكلام . وصرخ شيخ الغفر :

— يبدو أنني سأقتل كلبا هذه الليلة .

صار الباشخولي يضرب فيمن حواليه بالرجل والبونيه . هكذا فعل شيخ الغفر هو الآخر . انتفضت الاجساد كلها واقفة تدوس في شرها أجساد اطفال وعجائز وكهول . صارت الضربات تنهال بوحشية في كل اتجاه فوق كل جسد ليس تحت الاقدام . كما صار الاسطبل مثل حريق دب في عشرة بلدان مرة واحدة .

زلزلت الجدران . راح باب الاسطبل يهتز ويهتز تكاد تفصصه الطرقات من الخارج — كان « طلعت » قد طوى أوراقه بسرعة ولفها في المنديل المحلاوي ثم خبأها في جوال الزوادة ، ثم انحاز الى مجموعة من النساء والصبيان والعجائز كانت تنحاز بدورها الى باب الاسطبل تريد أن تحتمي به من الدمار سمعوا صوتا يصيح خلف باب الاسطبل من الخارج قائلا :

— اسكتوا ياغجر .. دعوا ليلتكم تفوت على خير .. سوف تندمون .. الهانم زوجة الناظر موجودة بالعزبة الليلة ولاتزال صاحية .. ويلكم يا أولاد الزنا ، يامقلقي الراحة يامثيري الشغب .

لكن صوته لم يتجاوز هذه المجموعة الصغيرة ، فاختفى مرة واحدة . وتهامس العجائز المنزوون بأن شيخ غفر التفتيش ذهب ليستنجد بالباشكاتب وسوف تكون الليلة سوداء : نعم فهي لابد وأن تختتم ، وتختتم هكذا . على ان المطر سرعان ماراح ينهمر بغزارة ، كأن السماء تميل على جانبي السقف الجملون وتحكم وضع خيوطها على فتحاته .

تصادمت الاجساد ، صارت جسورا تدفع بعضها هنا وهناك تلهث تبحث عن ركن تحتمي فيه من هطول المطر ، فكلمتا

انحازت الى ركن دهمها الصقيع واغرقتها المياه واعمتها السيول المتدفقة من فتحات السقف • الاسطبل يرعد يزأر دون كلام مفهوم • وكانت العيون التى نجت من رشاش المياه قد لمحت رؤوسا تطل من فتحات السقف وايد تمسك بالخراطيم ، التى قللت مياهها شيئا فشيئا وصارت خيوطا غليظة مرتخية تشر فوق الحيطان • لم تعد الاجساد قادرة على الالتصاق ببعضها أكثر من هذا • الناس تتباعد عن الحوائط والاركان • الضغط يزهق الارواح ، كل الصدور بين حجرى رحى • صوت خرير المياه كالكرابيج فوق الاجساد •

فجأة التوت الاعناق كلها واستدارت تنظـــر فى حائط العرض القريب من سراية التفتيش ، حيث لمع ضوء « باهر » فى أعلى الجدار ثم استقر على حافته .. كان ثمة فانوســـا زجاجيـا كبيرا قد وضـــع على حافـــة الجـــدار فى الفراغ الذى بينه وبين ســـقف الجمـــلون ظهـــرت بجوار الفانوس راس مطر بشه ، ثم ظهر بجوارهـــا فانوس آخر ، ثم تضاعف الضوء وجعل الصدور التى كانت قد تاهت منها أرواحها تتسع فجأة لقليل من الابتهاج بمرأى الضوء • كان قد ثبت ان الوجه الذى بين الطربوش وحافـــة الجدار هو وجه الباشكاتب « عشم أفندى » شخصيا • يبدو انه ذكرهم بالقراقوز فعرفوا فى حالة فرحة وانتظار . لكن «عشم أفندى » كان قد أصر على أن يفلق جحر الجدار بذقنه المدببة لايعرف أحد منهم ان كان هذا الصوت المشروخ هو صوته أم صوت الجدار يئن ، أم صوت خرير المياه لايزال يجلد القلوب أم صوت السقف الجملون يكسر الصوت ليثنيه ويدحرجه الى الاذان • كان الشارب التركى بجناحيه المتصلبين يهتز ويترنح:

ــ التفتيش يعرف كيف يخمد صـــوت الكلاب حين تزعج النيام بلا سبب •

ألا تعرفون أن عواء الكلب معناه انه شاهد وجه عزرائيل يدخل المكان ؟ .

من يريد أن ينبىء بقدوم عزرائيل سـ ـنكافئه بضرب الرصاص ، لكننا نحب أن نبرد أجسادكم فى الاول .. لعلكم تهدءون قليلا .

ثم انزاح وجهه عن حافة الجدار ، وسقط ، تماما كما تسقط رأس القراقوز خلف الستار . وانسحب الضوء فدخلت السماء السوداء فيما بين الجدار والجملون . قالب من اللحم البشرى طوله عشرة أفدنة وعرضه ثلاثة ، يعجن نفسه بنفسه فى نفسه ، يزأر باكيا نائحا ، اقدامه تخوض فى الميـاه التى لاتزال تتساقط من الاجساد . لم يعد هناك غرباوى وابن بلد .

وصار الليل يتكوم ، وتتكوم الاجساد فوق بعضها .. وكم من صدور نعبت من رؤوس مرتمية فوقها . لكنها لم ترفسها، خوفا من أن تكون أخا أو أبا او صديقا او عمة او زوجة خال .



النجم الذى هـــوى

« دخل الحكيم وبص له بالعين »
« وقال له : يا زينة الامرا اجيب دواك منين »
« ياحكيم العيان طبب وخد ميه »
« طلع الحكيم ورأسه مطاطيه »
« يا طبيب العيان طبب وخد متين »
« طلع الحكيم يخبط على الكفين »

(بكائيـــــــه)

— أ —

وأخيرا قال الاعرج :

ـ فى ذاك الفجر ، فجر وصول الانفار ، ضحك « جمعه » المؤذن من كلامه ، مع كل فان الصلاة خير من النوم . وكان « جمعة » يصعد الى المئذنة فجرا وصبحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء . كنا نقول له : « يا أخى دوشتنا وها أنت تراانا قد اتينا لنصلى » . فكان يضحك ويقول : « انكم تمشون فوق الارض فحسب ولم تتيقظوا بعد » . ثم يندمج: يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا ، واسمح لنا بالرضى ياواسع الكرم .. يارب جاءتنا سراية وانزرعت على شط مصرفنا ، مارد كبير يزحف ويسحب وراءه شكائر طين ، لاظلمة الليل تخفيه ولاشمس الضحا تكشفه .. يامارد ياكاتم نفس العباد ، تظن نفسك فى العز تهنا الى آخر الدهر فيارب يارب يارب . كان ساعتها متأكدا ان احدا فى البلدة لم ينم ، حتى الخفراء النظاميين ،

أشهر النوام فى بلدتنا ، كانوا يروحون ويجيئون ويملئون الليل كحة وصياحا وشخطا فى الهواء بلا داع ، هى ليلة واحدة يسهرونها فى كل موسم : ليلة وصول الانفار الى التفتيش ، وسهرهم لايمنع حدوث السرقات أبدا .. والغريب ياذياب أن البلد لاتسرق الا فى الليلة التى يسهرون فيها لحراستها .

ياذياب يا أخى . كتب على بلدتنا ان تكون تابعة للتفتيش وللسراية مع انها ليست ملكا لاصحاب السراية . أهل البلد صاروا خدما للسراية وهى تتحكم فى أرزاقهم . كلما اشتدت حاجة الواحد منا الى المال يلعن السراية ، وكلما نزل بأحد منا مكروه لعن السراية ، أما حين يكون الواحد منهم فى عز ونغنغة فإنه ـ أيضا ـ يلعن السراية . كان المرحوم يقول : « والله لو

نطقت هذه المئـــذنة لقالت مافى الخمر » • نعم فهى المئـــذنة الوحيدة فى البلد وقد شاهدت أشياء يشيب لها الطفل • فى الصبح رأى المرحوم أتومبيلات وكارتات تـــدلق امام السراية رجالا مقمطين • عند أذان العصر رأى خـــدم التفتيش قـــد انتشروا فى البلد فجمعوا بيضـــها وجبنها وســـمنها ولبنها ودجاجها وحمامها وخرافها • الحوارى امتلأت بنسوة يحملن أشياء يتوجهن بها نحو السراية • السكة امتـــلأت بالصــبايا يحملن البلاليص فى اتجاه الترعة ويغيرن طريقهن المعتاد ليمررن فى عودتهن بالسراية كل واحدة منهن دعكت وجهها بـــورقة حمراء وكعبها بقطعة من الطوب • رجال البلد لايســـتغربون فالفتيات طائشات ، انما كانوا يســـتغربون لمنظر النســـوة المتزوجات يحلو لهن التلكؤ على « الموردة » يتحككن يغتســلن لايتحرجن من تعرية سيقانهن • عند أذان المغرب شاهد المرحوم خفراء السراية يلتحمون بالخفراء النظاميين ويتهامسون فى ود لم يعرفوه من قبل • قال المرحوم عند أذان العشاء امتـــلأت السكك بناس تروح وتجىء • قال المرحوم فى عز الليل همدت الحوارى والطرقات ، لم يكن هناك أثر للانفار فى البلد أو على الطرقات لان الوسية أعطت الاسطبل للانفار • من ســـاعة ماعلمنا بالخبر رحنا نسأل : ماذا سيقول الخفراء فى الصباح عندما تظهر السرقات بينما الانفار محبوســـون فى الاسطبل ؟ ولكن المرحوم ظل فوق المئذنة حتى طلع الصـــباح وارتفع الصوات فى البلد ـ نفس الصوات الذى ان سمعناه عرفنا فى الحال أن الناس قد سرقت •

— ٢ —

كانت الصفحة تظل معلقة بين يدى « طلعت » لبرهة طويلة يستمع فيها الى كلام الاعرج • وصاح فجأة :

ـ ان كلامك ياخال أعرج هو الخالق الناطق الكلام الذى هنـــا •

ـ هنا أين ؟

ـ هنا فى هذا الدفتر العجيب •

شوح الاعرج :

ـ يخلق من الشبه اربعين .

ثم اخذ يلف سيجارة من كيس صغير مملوء بأعقاب مفروطة يجمعها له ولد من ولدان الشراية . وراح « طلعت » يشارك في الاستماع الى الاعرج .

ـ ٣ ـ

ـ كانت الناس ياولداه تلف جول أطراف البلد ، تدخل الحوارى وتخرج منها ولا تدرى انها دخلت وخرجت ، وايضا لاتدرى ان كانت تدخل أو تخرج . الكلام ايضا كان يدور ، لا أحد يعرف من أى حنك يخرج الكلام : جاموسة محمد خطاب سرقت .. جوالات قمح ضاعت من مخزن الحــــاج داود .. دكان بكرى البقال اتقش ولم تبق فيه قشة واحدة .. هدوم العروسة .. عشاء العيال .. فراخ أم محمد .. ياللمصيبة ـ يومها وقف المرحوم يضحك . ولما يقف المرحوم ليضحك فمن المهم أن تتفرج . قال المرحوم : اين الخفراء ؟ قال واحد من الواقفين : ذهبوا يسلمون السلاح ككل صباح .

قال المرحوم : ليتهم يدعونه في السلاحليك .. انهم لايهددون به سوى الناس الطيبين الذين هم في حالهم .. أين كنت .. وكيف ترد على .. ويوم ابيك أسود .. واقدامى على الدوار .. أنا رايح أصلى الفجر .. فجر يا ابن الكافر ؟ .. رايـــح أدور الســــاقية .. ســــاقية برضــــه يا ابن الـــكلب .. سأشترى دخان .. دخان في عينك .. هــذا والله ما نأخذه من البنادق المعلقة على الاكتاف .

ثم انه مشى . ومشينا وراءه . فتنا على شارع الجـــرانه وشارع العقالوه وبيت أحمد أفندى الشوربجى . وقف المرحوم فوق جذع نخلة ونظر في حارة العبايده . الناس يتلقفون كل من يخرج من الحارة ويسألونه : ماذا حدث ؟ .. دار الشـــيخ عبد الباقي سرقوا منها الناف والمحراث وبردعة الحمار وعنزه. قال المرحوم ضاحكا : ترى أين كان الحمار اذن ساعة سرقت.

برذعته ؟ . البنت التى كانت واقفه تقول الخبـــر اتكسرت.
عيناها ودارت ابتســـامتها بطرف شالها ومرقت فى الزحام .
قال طفل من أهل الحارة : « الحمار كان يعشر حمارة الجيران »
ضحكنا جميعا ، واندفع صوت من داخل الحارة يقول أن حمار
الشيخ عبد الباقى قليل الصبر حين يهيج ، يقطع أى قيد وينط
أعلى جدار . قال « بدوى عسر » بخبثه المعروف : « يا أخى قل
ان حمار الشيخ عبد الباقى يعشق حمارة الجيران وبينهما غرام
وهذا كل مافى الامر . رد فـــرحات المناذى أعمى العـــين :
« يقولون أنها ترسل له الهدايا والمراسيل » . فانفجر «بدوى»
ضاحكا وشوح بدراعه وقال : « انها تجيء بنفسها وتسحبه »
قال الطفل المسحوب من لستانه : « ما هذا .. ان الجيران ليس
عندهم حمير » . رد عليه طفل آخر : « لا ياعبيط .. ان امرأة
الجيران هى التى تعشق الحمار و ...» ارتفع أكثر من صوت
ينهره : « امشى جاك عمى فى عينك قليـــل الادب » ، وقال
آخرون : « خدوا فالكم من عيالكم » . مرة واحدة انتبهنا لزئيط
مرتفع . كان « محمود » بن الشيخ عبد الباقى يسحب الحمار
خارجا به من بيت الجيران . تصدى له بعض أبناء عمه وطلبوا
منه أن يترك الحمار فى مكانه الى أن يجيء العمدة . رجـــال
آخرون صاحوا بأن هذا عيب ، وأن الله أمر بالستر ، وعـــلى
العبايدة أن يأخذوا حمارهم ويقولوا فى محضر التحقيـــق أن
الحمار كان فى الحقل مثلا . قال أبناء العم ان التحقيق لـــن
يصدق أن اللص يسرق برذعة الحمار ويترك الحمار نفسه .
فجأة ظهر الشيخ عبد الباقى وأمر ابنه ان يسحب الحمار ويعود
به الى البيت ثم سار خلف ابنه وحماره فى صمت ، لكنه وقف
مرة واحدة والتفت الى الناس قائلا : « خلاص يا أسيادنا ..
حينما يسألنا التحقيق أين كان الحمار ساعتها سنقول أنه كان
فى مهمة رسمية عند الجيران » . ومضى مثل نخلة قصـــيرة
يطوحها ريح عاصف ولم تكن الريح سوى الضحكات . المرحوم
هو الآخر أخذ يتطوح مثله ولكن على طريقة المنشدين فى الذكر
واضعا كفيه على صدغيه ، وارتفعت الدندنة الحلوة : « يقولون
ليلى بالعراق مريضه .. فقلت ياليتنى كنت الحمار المداويا ».

ثم رمى بنفسه على الارض وسار ووراءه ناس ان رششت الملح فوقها لاينزل الى الارض ٠

عند جنينة « العبد شتا » وقف المرحوم فوق تل مرتفع بين المقابر ٠ راح الناس يتسلقون المقابر ٠ سقطت عيونهم فى قلب الجنينة فظهرت عليهم الدهشة وصاحوا : « العبد شتا عار كما ولدته أمه ، يتقرفص يدفن رأسه بين ركبتيه ، ومحمد أفندى الشربينى يقف وراءه يجلده بالكرباج ٠ محمد أفندى هذا يستأجر أشجار الجنينة منذ أعوام ، مقابل عدد من كيلات القمح وأردب من الذرة يدفعها للعبد كل عام ، والعبد يحرس الجنينة مقابل حق الدخان ٠ كان صوت الكرباج يشرخ الهواء والعبد لايئن ، ابتسم المرحوم وقال : « محمد أفندى كما تعرفون من حملة الكرابيج فى البلد ٠٠ بسم الله ماشاء الله صرف عليه أبوه حتى رباه وصيره من حملة الكرابيج » ٠ قال رجل عجوز لعله موجود بيننا الآن : « ولسان الكرابيج فصيح » ٠ رد المرحوم بابتسامة : « خاصة مع المواشى أمثالنا » ٠

الطريق المنحدر من المقابر الى قلب الجنينة صار مثل عش النحل خطين كبيرين ، واحد يهبط الى الجنينة والثانى يصعد منها . صعدت الاخبار من الجنينة تقول : « العبد شتا هو الذى فعل بنفسه هذا ، اقعد نفسه هذه القعدة وسلم الكرباج لمحمد أفندى وطلب منه أن يظل يضربه حتى يبك الدم من جسده .. لماذا ؟ ٠٠ أصل الحكاية أن العبد شتا كان يجلس فى خص الحراسة فى عز الليل ،فدخلت عليه امرأة مهدودة الحيل راحت تسقيه أنفاس الحشيش وتذيب له سنة الافيون فى كوب الشاى . فلما اشتد عصبه وقام وجدها رجلا ... فتح فمه ليصرخ . لكن ضربة سريعة سقطت على نافوخه فسقط ميتا ، ولم يفق من الموت الا فى الصباح ليجد نفسه عاريا ، ولم يجد قفصا واحداً من اقفاص الفاكهة التى كانت مجهزة للسفر .

وراء المرحوم مشينا ٠ دخلنا شارع السوق ٠ تركنا ماكينة الطحين ثم تركنا البلد كلها ٠ ليس فى الخلاء بيوت سوى بيت « محمد أفندى الشربينى » الواقف وحده بين الحقول ٠ عند هذا

البيت وقف المرحوم فاصفرت وجوهنا . جرى المرحوم فطلع شجرة التوت القريبة ونظر فى قلب شونة الغلال ذات النوافذ العريضة . زعق كأنه مذبوح « سبحانك يارب .. تكشف المستور بارادتك » . سألناه . اشار الى الشونه : « تفرجوا .. بالله تفرجوا. » . كأن الريح هبت علينا فبعثرتنا هنا وهناك.. طلعنا فوق أكتاف بعضنا ورحنا ننظر والمرحوم يقول : « اترون .. الأقفاص التى سرقت بالامس من جنينة العبد شتا » . من هيافتنا سألناه : « كيف يسرق الرجل نفسه ؟ » وقال عريف الكتاب بهلفطة مقرفة : «يخربون بيوتهم بأيديهم» . حتى الطفل المسحوب من لسانه قال : « لقد سرق الاقفاص ليضرب العبد شتا » . ونظر المرحوم الينا وفي عينيه نار ، وقال : « هكذا الامر فى البلد .. السارق يحاكم المسروق ويجلده » . قلنا جميعا : لااله الا الله . صاح المرحوم بغيظ : « لسوف يدفع العبد شتا ثمنا كبيرا يارجال .. سيظل يعمل أجيرا طرف محمد أفندى بلا مقابل طول حياته .. وربما يموت قبل أن يفى بالدين » أكمل العجوز : « وقليل ان مانزعت ملكية الجنينة » طرقع المرحوم بأصبعيه مؤكدا : « العبد شتا يجلد نفسه لانه كان يعرف اللص ويتربص به ولكن اللص دخل من الخلف ونكح رجولته .. فماذا غير الكرباج يشفى غلة الندم » . ثم دارومشى عائدا للبلد والجميع خلفه كصبيان أشقياء يتامى ..

كان حضرة العمدة جالسا فى الفراندة يلعب الدومينو مع شيخ البلد والاسطى فانوس صاحب عزبة الكخيا المجاورة للتفتيش ـــ وكنا نسير وراءه وحولنا غبار كثير ثقيل . وقف الاسطى فانوس وصاح : « الحق ياعمدة » وقف العمدة لاهثا : « ماذا » . قال الاسطى فانوس : لابد أن حريقا شب فى البلد وصاح العمدة : « اللهم احرقهم جميعا .. لايدعوننا ننعم بدقيقة راحة . أما شيخ البلد فلم يقف ، وأما العمدة فلم يجلس ، بل صاح فينا.: « خير يا أولاد الزانية بلا أجر .. لابد تعاركتم كالعادة » توقفنا حين توقف المرحوم ، وصرخ العمدة : «انطق ياثور انت وهو » ثم تلفت وراءه : « ايتونى بالخفراء » .. ثم دخل وغاب عن عيوننا ..

قال « طلعت » لجده مهيوب :
ــ والله والله ان خالى الأعرج هذا قد لخبطنى ٠
ضحك مهيوب فى اعجاب :
ــ قل انك لست على بعضك ٠٠ لاتتهم الناس ٠
ــ انه هو وهذا الدفتر يقولان كلاما واحدا ٠٠
مسح على كتفه بحنان :
ــ الدور والباقى على رأسك انت ٠٠ نريده أن يقول كلاما ثانيــــا ٠

اقشعرت رأس « طلعت » :
ــ أتعرف ياجدى ٠٠ أراهن أنهم جميعا قد ذاكروا فى هذا الدفتر ٠
ضحك « مهيوب » وزر على عينيه ، وصارت ذقنه البيضـــاء الطويلة تتطوح كقحف الجريد :

ــ أنهم لايذاكرون فى القرآن ٠٠ ولا فى شىء ٠٠
قال « طلعت » فى تصميم :
ــ أقطع ذراعى ان ماكان هناك من جلس وكتب كلامهم
ــ سلامة ذراعك يا ابن القاضى ٠٠ يافهيم ٠
تضايق « طلعت » من ذكر القاضى :
ــ كنت مرة تقول لى أن كل واحد منا يجلس على كتفيه ملكان ٠٠ ملك الحسنات وملك السيئات ٠٠
رفع الجد أصبعه الطويلة أمام عينيه :
ــ ولكننا لانراهما ٠٠ وهذه حكمة الله ٠٠ انهما فى شغلهما ليس لهما دعوة بنا ٠٠ يكتبون كل ما يفعله أو يقوله الواحـــد منا بلا زيادة أو نقص ٠٠
تحسس « طلعت » الاوراق :
ــ اهذا الدفتر ٠٠
ولكنه لم يجد كلاما يقوله ٠ وصارت ذقن الجد تكنس الهواء من الضحك :

ـ اذن فلماذا لاتسمعني ماتقرأ ٠٠ خذني معك واسمعني ٠
وأخذ « طلعت » يتمتم في صوت خفيض بأشياء غير مفهومه ٠

ـ ٥ ـ

ـ ماكان الواحد منا يتصور أن العمدة يبكي مثل الطفل ٠ كان يشق الهدوم ويقول : « دبرني ياشيخ البلد أنا في عرضك » ٠ ويرد عليه شيخ البلد وهو يدارى كسوفه : « أنت الآخر مسروق ياعمدة ٠٠ لكن ٠٠ ياعمدة كنت تقول بأنك بعت المحصول » ٠
ورأيت شيخ البلد ينظر الى فانوس وعلى وجهه خيال كلام ، والاسطى فانوس لايريد النظر اليه ، المهم اننا جرينا ٠ كنا نغوص في أرض مرحله ٠

طار صواب « الاشموني » وصار يزعق : « ابتعدوا عن الارض ياكفرة ٠٠ سنشتلها بعد ايام ٠٠ الكاشف سوف يجيء ليأخذ حق أفندينا من محصول الارز ٠٠ الكاشف لايقبل عذرا ٠٠ أربع سنوات لم أدفع والعمدة قال ان أدفع هذا العام » ٠

ياهول المنظر ٠ تطوح الاشموني وارتطم دماغه بجذع الشجرة وتفجر الدم ، وساعتها لم نعرف أن الاشموني مات ٠ كنا نجري خلف المرحوم لانعرف أين يريد أن يذهب بنا ٠ ولما وقف على شاطيء الترعة وقفنا نحن أيضا ٠ رأينا بغالا وحميرا وجمالا تخرج من البلد ، ورأينا المرحوم يصرخ مرة واحدة وقد وضع يده على صدره ٠ ورأيناه يقع ٠ كانت رصاصة واحدة ، لانعرف من أين انطلقت ، لكنها قصفت عمر الجدع ٠



الفصل الســابع

ألسنة الاواق لاتعرف أصحابها

« وقلت لها ياعين مافيكيش منافع للناس »
« واحطك ياعين فى قمقم من نحاس »
« واسبك عليك ياعين القمقم والرصاص »
« وارميك ياعين فى بحر الغطاس »
« قالت والنبى والله خدى على عهد الله »
« لا أخون بنت فى قمرتها »
« ولا عروس فى جلوتها »
« ولا جاموسة فى ضرتها »

(رقيــه)

— ١ —

جفت مداود الاسطبل بعد أن كانت تحولت الى برك صغيرة والذين كانوا ينامون فوقها صارت خرقهم وهلاهيلهم كــومة من الطين لاتبغي الجفاف • والآن لا احد يرغب فى اعتـــلاء المدود فقد اتضح أنه مهما علا ليس معصوما من الخطر •

وهز « عمرو » رأسه مؤكدا ووافقه « طلعت » على هذا الكلام وقال أن الانفار ذابوا فى بعضهم منذ تلك الليلة ، فأى واحـد ينام الآن فى أى مكان ، ثم قال بعد برهة :

ـ وقلت الخناقات ••

فقال « عمرو » :

ـ والله ياطلعت يا أخى •• ماذا أقول ؟ •• اننا •• كلنا •• كل الذين فى الاسطبل نريد ان نتخانق مع أحد ••

ـ من ياترى ؟

ـ انت أيضا معنا •• كلكم •• كلنا ••

الشعر فى رأس « طلعت » يقف :

ـ لابد أنك تقصد الخولى ؟

ـ جايز •• انما لا •• الخولى أيضا مثلنـــا •• يريد أن يتخانق مع أحد •

ـ يعنى لابد وأن يتخانق الواحد والسلام ••

وأخذ يفر الصفحات ويدعك عينيه ، وراح « عمرو » يحدث نفسه بصوت عال :

ـ المندوب يزعق للمفتش ••والمفتش يشخط فى الناظر•• والناظر يشتم الباشخولى ويلعن أباه •• والباشخولى يضرب الخولى ••

والخولى يمزق أجسادنا بالخيرزانه ••

وأخذت ثمة أصوات تنعق هنا وهناك ..

ـ لاأحد منكم يفتح فمـــتـــه يا أولاد الكلب .. أريد أن أنام ..

ـ نم يا أخى .. مامنعك أحد ..

ـ من الذى يتكلم ؟ .. أرنى نفسك لو كنت رجلا ..

اعتدل « طلعت » ونظر « عمرو » مبتسما :

ـ أننا حنسدنا الاسطبل ياعمرو ..

ولم يرد « عمرو » انما ظل ينظر نحو الضجيج مبتسما ..

ـ وحد الله ياعبد السلام .. وحد الله ..

ـ عبد السلام لايلعب معك يا ابن الزانيه ..

ـ يه .. يه .. ولماذا الغلط ؟

ـ قلت لكم مائة مرة اسمى الباشخولى .. باشـــخولى السرايه ..

ـ لكنك الآن .. نفر ..

ـ ان ذبل الورد تبقى رائحته فيه ..

ـ انما .. بس ...

ـ خلاص يا أسيادنا .. خلاص .. نم ياباشخولى ولايهمك .. حقك علينا .

رفع « مهيوب » رأسه وراح ينظر فى أنحاء الاسطبل ،وتأكد أن الولد « طلعت » لازال جالسا يعبث بالاوراق التى أعطاها له « دياب » . ومال واحد من الغرابوه » على زميله وهمس :

ـ الباشخولى ركبته العفاريت ..

ـ أظن أنه الباشخولى الذى أدخلنا الاسطبل أول عام ..

ـ هو بعينه .. سبحان مغير الاحوال .. يومها كانت الأرض تخاف من مشط رجله .

ـ يقولون أنه طيب وابن حلال .

ـ وهل كان معنا فى الاسطبل لتعرف أنه ابن حـــلال أو حرام ؟

وزغد كل منهما زميله لينزاح قليلا . وكانت أعقاب السجائر قد نفدت من الأعرج فنام كمدا كما قال من ساعتها . أما «طلعت» فعاد يغرس عينيه فى الاوراق التى بات يرى فيها العجب ..

— ٢ —

اشــاره

من بندر طنطا الى نيابة كفر الشيخ

نفيد سيادتكم أن المدعو « سليم الضبع » كان منذ ليلتين في المدينة وباث لدى زوجته بالناحية ثم غادرها في الصباح متوجها الى كفر الشيخ .. هكذا قالت لنا زوجته « انجا هانم » التى لاهى « أنجا » ولا « هانم » لأنها أسمت نفسها هكذا لتثبت أنها من عائلة ، تقول أن زوجها راح يتفاهم مع التفتيش فى شئون الانفار ، لأنه ، كما تقول أيضا ، من كثرة خوفه على صـــحة الأنفار وسلامتهم سيطلب من التفتيش أن يعطيهم مكانا يبيتون فيه . ولقد أكدت تحرياتنا أن الخبر صحيح اذ اننا علمنـــا أن التفتيش أهدى للانفار سرايه كبيرة ينامون فيها بعد طول النوم فى العراء ولابد أن هذه جهود الحاج سليم . وبســؤالنا عن الميعاد المقرر لعودة الحاج سليم أفادت زوجته المذكورة بأن ذلك يخضع للظروف ..

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

— ٣ —

بلاغ ثان

حضرة جناب الحكومة الكائنة بنيابة كفر الشيخ ..

أشكركم وأقدم التحية لكم ولعظمتكم افندم .. وبعد فأنـــا « عمرو » الذى وقف أمامكم أيام السرقات بسبب مقتل « جمعه الحصاوى » ـــ أحيط علم سيادتكم أننى بينما كنت أسير خلف حمار الكاتب قابلنى حمار آخر يحمل خرجا على ظهره ويسير وحيدا . وقال الكاتب : هو حمار ضل الطريق وفر من صاحبه فلا شأن لك به . أما أنا فقلت لنفسى يظهر أن صاحب الحمار يفعل مثلما تفعل الناس بين أعواد التيل . لكن الطريق ظال والحمار بلا صاحب .. فجعلت بالى منه ، وأخذت أسوقه أمامى من غير أن يشعر الكاتب . كان الخرج منتفخا وساهيت الكاتب وتسلقت ظهر الحمار ونظرت بداخل الخرج ويالهول مارأيت

الخرج ملان بأكياس صغيرة مثل كف اليد ، كل كيس من قماش العبك مبطط ككف الحلاوة العلف ومرسوم عليه ثلاث سنابل ، وأكياس أخرى مبرومة كقمع السكر . وأخذت افك عنها ورق السلفان فاذا هى عجينة تشبه لون الطمى الغامق وذات رائحة غريبة . ومددت يدى لآخذ قضمة أذوقها ، فانشرخت اذنى وطار الشرر من عينى ولم أدر الا والكرباج السودانى يلفع رقبتى . صرخت ووقعت على الارض ، اذ أن الكرباج السودانى لايمسكه الا الناظر بذات نفسه – لم أجد الكاتب ولا حماره فعرفت أنه حود مع الجزورين الى حوض البقمه ، وعرفت أن هذا الحمار مشى بى فى طريق آخر من غير ان آخذ بالى ، وكان أمامى رجل متقمط ببذلة مثل بذلة الناظر ، وكالخواجه يلبس البرنيطـــه وكنت أبكى والارض تزيحنى عن نفسها ، وكنت أشعر أننى رايت هذا الرجل من قبل . وكنت أريد أن أصدق انه المندوب ، الذى اذا فاجأ التفتيش بزيارة اهتزت حيطان القصر ونبحت الحمير فوق السكك وهى تجرى بسرعة هنا وهناك لكى يصدق المندوب أن الكاتب والباشكاتب والناظر والباشخولى يباشرون العمل باخلاص ..

كان جسمى ينتظر الكرباج ويغلى كبراض الشاى – لكـن الأفندى مد يده .. وعدلنى وشخط فى : اسمك ايه ؟ . قلت له اسمى ولكنه لم يراع خاطر الكاتب فصفعنى على وجهى . وحين فتحت عينى تأكدت أننى والله العظيم ياسعادة البيه أرى وجه الحاج سليم الضبع مقاول الانفار .. أى نعم هو .. أنا لسـت تائها عن وجهه . أعرفه حتى ولو لبس فوق وجهه وجها آخر وتعجبت .. هل الحاج سليم رقى الى مندوب ؟ . المهم أننى تأكدت من أننى أرى الحاج سليم بعينه والدليل على ذلك أننى فى الحال لم أعد خائفا .. فمادام الرجل الذى أقف أمامه ليس من رجال التفتيش ، فلا داعى للخوف منه حتى لو كان الشيطان . وأخذت عينى تتجرأ عليه حتى وجدته فى غضب ، ثم أنه تهجم على يريد أن يضربنى بالبونية فى وجهى ، ثم أنه فعل حركة لايمكن أن يفعلها المندوب أو أى أفندى محترم من اهل التفتيش ، حيث أنه اخرج لسانه وطواه تحت اسنانه وضغط عليه ، هذه حركة

لم أر في حياتي احدا يفعلها غير الحاج سليم حينما كان يهـــدد السواقين بالضرب . ومثلما رايته يفعل مع السواقين زغدني في صدري بغيظ وقال لي : « مالك وحمير الناس .. امشي في حالك واياك أن تفعل هذه الفعلة مرة أخرى » . ثم اشار بيـــده في الهواء وجعر ، فانشقت الارض عن رجل غريب ، من الاغراب الذين يجيئون البلد كثيرا ، غجر وعربان وتمليه وراكبي حمير فوقها أخراج ، قال له : « خذ حمارك وامشي » . فقال الرجل : « حاضر يابيه » ، وما أن استدار ليمشي حتى رأيته يطـــير في الهواء كقحف الجريد ثم ينكفيء على بوزه فعرفت أن الشلوت قد وصله في الموعد المناسب ورأيته يسير وراء الحمار ببطء من غير أن يمتطيه .

استدار الافندى ببذلته الوجيهة ومشى وراء الرجل الغريب في اتجاه السكة الزراعية . أما انا فرحت أجرى بعيدا وقـــد نسيت السكك ، ولما تعبت من الجرى رأيت فجأة أشـــياء تحدث : نفس ما يدور عند زيارة المندوب أو المفتش .. السكة صارت تشغى بالخولة والباشخولة ، وجاءني هاتف يقول لي أنهم جميعا يفعلون هكذا لكي يخدعونني ويصورون لي ظلما وعدوانا أن هذا الافندى هو المندوب بنفسه . على أنني لم اصدق مايحدث . وطلع في دماغي كلام : هل يكون هذا الرجل يمثل على الباشكاتب أيضا ؟ . لكن زوجة الباشكاتب ظهرت في دماغي ، فتذكرت أن أى زائر للتفتيش لا يمكن أن يدخله من غير أن يسلم عليها أولا ويستمع منها الى كثير من الودودة ، التي يحبونها جميعا . وقلت لنفسي : اذا كان هذا هو المندوب أو المفتش فأين الكارتة التي يجيء بهـــا تجرها الخيـــول ذات الاجراس ؟ ..

صرت أجرى نحو السراية لعلني أجد الكارتة موجـــودة هناك . لكنني وجدت بدلا منها « عبد السلام » باشـــخولي السراية يقف بين مجموعة من الخولة الخصوصيين يحدثهم عن الزيارة المفاجئة التي قام بها المندوب اليوم ، حيث جـاء بلا كارتة وبلا حراس وبلا كافة شيء حتى يخفي نفسه ويفاجيء الانفار في العمل . انسحبت من لساني وقلت : « يا جماعة ان

هذا المندوب هو الحاج سليم بعينه ولا أحد غيره » . فانهال « عبد السلام » على نافوخي بالضرب ، وظل الباقون يضحكون ويسخرون ، وأنا من شدة غيظى أحلف لهم أنهم جميعا غافلون، وأن عليهم أن يدققوا النظر فى وجهه حتى يعرفوا من هو بالضبط لكن « عبد السلام » اعتقلنى وظل يضربنى بقحف الجريد حتى مزق جسدى كله ٠٠ وفى النهاية أطلق سراحى ٠٠

فى صباح اليوم التالى جررت ساقى وذهبت الى العمل فوجدتهم يطردوننى من السراية ويقولون اننى مجنون ٠ بزمتك يابك هل أنا مجنون ؟٠ أنا اليوم أتعرض للجوع بينما أعول أسرة كبيرة ٠ اننى أرجو من الحكومة أن تأخذ لى حقى من التفتيش لاننا جميعا عاجزون عن الكسب ، وحتى القرش الذى دفعناه للعرضحالجى مقابل كتابة هذه العريضةاستبدلناه بثلاث بيضات من بيض دجاجتنا الوحيدة ٠

(٠٠ هذا الولد كذاب يابيك فوالله مادفع لى سوى بيضة واحدة فقط رغم أننى أنا الذى نبهته الى كتابة هذه العريضة ونقشتها له لكى تنصفه الحكومة ولم يكن هو يعرف شيئا من هذا) ٠ ويابيك ربنا يخليك اعمل معروف ردلى الحمار من جديد حتى أستطيع الانفاق على أبى وأمى وأنا مستعد للانكار بأننى شاهدت الحاج سليم فى ثياب المندوب ، ولو أرادوا فاننى أكتب لهم ورقة وأختم عليها وأحلف على المصحف والبخارى أن من رأيته كان المندوب نفسه ٠٠ أدامكم الله ذخرا للغلابة ، ونصرا للمظلومين .. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ٠٠

— ٤ —

بلاغ ثالث

السيد الفاضل وكيل النيابة . اقدم لكم اسمى آيات التحية وأعظم أشواق التقدير والاجلال ٠ أما بعد أعرف سيادتكم أن الذى سرق حقيبة الحاج سليم هو شيخ البلد وقد فعل فعلته نكاية فى العمدة والاسطى فانوس لان التنافس

بينهما شديد ياحضرة الوكيل وكل منهم يريد أن يكون أكثر ثراء من الآخر . لكن الواقع أن العمدة ليس غنيا ولايحزنون، انما هكذا يتصورونه والصيت ولا الغنى . وبصفتي واحدمن أهل البلد فانني أفهم العمدة جيدا وأعرف انه لايملك شروى نقير وأنه والحق يقال رجل فى منتهى الامانة والشرف . أما شيخ البلد فانني أستعين عليه بالله ، انه يسرق الكحل من العين وقد شاهدته بنفسى فى تلك الليلة المشئومة ينبه على شيخ الغفر بأن يترك الغفر يستريحون فى بيوتهم حيث أن الانفار محبوسون فى الاسطبل فلما سمعت منه هذه المقولة ياسيادة الوكيل أحسست انه ينوى شرا ، خصوصا وانه من أسرة كبيرة فى الشر . وفى عز الليل رأيت بعينى هذه التى سيأكلها الدود مجموعة من الرجال تتسلل خارجة من بيت العمدة ومعها الحقيبة ، فظللت أتابعهم حتى رأيتهم يدخلون بيت شيخ البلد . ورغم ذلك كذبت نفسى ولكننى بعد ذلك بأيام رأيت فى حديقة بيته قطعا متناثرة من الحقيبة . وعلمت من شخص يختلط بشيخ البلد فى بيته انه قد دفن البضاعة فى بئر موجود فى حديقته وأنه يبيعها بالقطاعى لناس غرباء يحضرون الى بيته ويخرجون فى عز الليل ، والعمدة برىء كل البراءة ياسيادة الوكيل من دم هذه الحقيبة السوداء . فأرجو منكم أن تقبضوا على شيخ البلد وتشدوا عليه الخناق حتى يعترف وانني واثق انه سيعترف وحينئذ تظهر الحقيقة لكم واضحة جلية .. هذا مالزم عرفناكم وتفضلوا فائق التحية .

مقدمه .. فاعل خير .

— ٥ —

ضحك «عمرو» لايدرى «طلعت» لماذا ، وتقرفص فوق المذود الطويل وانحنى فوق ركية نار وراح ينفخ فيها ليسوى عليها سمكات اصطادها من المصرف خلسة . ثم اعتدل ومسح دموعه وأنفه ..

— تقول أن الاوراق التى معك فيها اسمى ؟

قال «طلعت» بحده .

— نعم اننى وجدتك فى هذه الاوراق .

قال « عمرو » وهو ينظر اليه بحب ..

اذا رأيت امرأة تشبه خالتك ‥ تقول هذه خالتي ؟
قال «طلعت» ‥
ـ اذا رأيت امرأة تتكلم مثل خالتي وتشبهها في كل شيء حتى في اسمها وشغلتها فسأقول عليها خالتي ٠
ـ وماذا تقول على خالتك الاصلية أيضا ؟
ـ خالتي ‥ ويكون قد أصبح لي خالتان ‥
ضحك «عمرو» وقلب سمكة على وجهها الآخر ، وفتح خياشيمه فابتسمت هي الاخرى ‥
ـ لكن ‥ الرجل الذي في هذه الاوراق اسمه «عمرو» ؟
ـ انه أنت قلت لك ٠
ـ لابد انه سيدنا ‥ سيدنا ‥ سيدنا ‥
ـ سيدنا من ؟ ! ‥
ـ ذلك الذي يذكرونه في الكتب ، ويتحدث عنه فقيه الجامع ‥ ألا تعرفه ؟! ‥ كيف تروح المدرسة ولا تعرفه ؟ ‥ انه ذلك الذي كان من أعز أصحاب النبي ٠
هتف «طلعت» ‥
ـ تقصد « عمرو بن العاص » ؟ ‥ لقد أخذناه في المدرسة ٠
ـ نعم هو ‥ لابد انه هو ‥
سرح «طلعت» برهة ثم هز رأسه وتأتأ مؤكدا ‥
ـ لا ياعمرو ‥ ان الاوراق التي معي ليست من نوع خطبة الجمعة ‥ وعمرو الذي فيها حمار في التفتيش ، وأرسل بلاغا كالذي تريد ان تكتبه ‥ وطرده التفتيش وضربه عبدالسلام ‥ ان الدنيا كلها من طقطق لسلامو عليكم موجودة في هذه الاوراق ٠

طقطقت أوراق الحطب وانتفضت السمكة فوق النار ، وتراقصت ظلال النار على وجه « عمرو » وزاغ بصره في الهواء ومصمص بشفتيه ، وأخيرا هز يده وقال في حيرة ‥ « عجايب » ٠ ثم اعتدل مطوحا كفه في وجه «طلعت» ، ومثل رجل في الستين قال ‥
ـ ياطلعت ياأخي ‥ ماذا نحن حتى تكتب أسماؤنا في

الاوراق ؟٠٠ ان الاسماء فى هذه الدنيا كثيرة
لمع فى عينى «طلعت» بريق حلو ثم هتف ٠٠
ـ طيب .. مالهذه الاوراق والقضية التى أخذتكم الحكومة بجرائرها وأتت بكم جميعا الى هذا الاسطبل لتصبحوا أنفارا مثلنا وتصبحوا أيضا «غرابوه» ٠٠
قاطعه « عمرو » ٠٠
ـ أنفار نعم ٠٠ «غرابوه» لأ ٠٠
ثم اغتصب ضحكة ، وربت على كتف «طلعت» ليسترضيه ٠
ـ انك طبعا لست من الغـــرابوه ٠٠ انك صاحبى وأنا ابن البلد ٠
فلم يهتم « طلعت » بل شوح فى فروغ بال ثم صاح :
ـ ملعون أب الغرابوه « كى تنبسـط ٠٠ لـكننا الآن فى القضية ٠

ـ قضية ماذا ؟٠٠
ـ التى حكمت عليكم جميعا أن تصبحوا أنفارا وتنامون فى الاسطبل معنا ٠
ـ اننا أنفار قبل القضية ٠٠ ولكننا لم نكن « غـرابوه » فى يوم ٠
ـ انك تقول هذا ٠٠ لكن جدى «مهيوب» وغيره ممن هاهنا يقولون أن النفر نفر ٠٠ والنفر يعنى «غرباوى» ٠
ـ تريد أن تزعلنى منك «ياطلعت» ؟ ٠٠ اننا أصحاب فلماذا الغلط ؟٠٠ أم لأنك تروح المدرسة وأنا لاأروح ؟٠٠
اقترب منه «طلعت» واستعار لهجة جده (مهيوب) وهدوء حركاته واتفاق الحـركة مع الصوت مع شدة الود والاخوة ، قال ٠٠
ـ لماذا تجئ بسيرة المدرسة فى الموضوع ؟ ٠٠ اننى لا سمح الله لا أتباهى عليك بالمدرسة .. فماذا أخذته منها .. ان جدى يقول فى أمثاله ٠٠ «أصلك وقتـك» ٠ ٠ وأنا الآن نفر ٠ ٠ وغرباوى ٠٠ ولا أزعل من هذه الكلمة ٠
قال « عمرو » وقد شعر أنه يحـدث رجلا كبيرا ، وشـعر أيضا انه لولا المدرسة ولولا فك الخط ماتكلم «طلعت» هكذا

وهو أصغر منه ..
ــ ياطلعت .. أنك تقول أن النفر يعني غرباوي ..
ــ ماذا نقول للتفتيش ان جاء وقال لك .. الشغل غدا في البلد الفلانيـــة ؟.. هز «عمرو» رأســه في شيء كالاسـف ، وقال ..
ــ معك حق ياطلعت .. انني لن أقول للتفتيش شيئا .. فالتفتيش لن يسألني .. وكانت رائحة الشياط قد تصاعدت من السمك ، فسحبها « عمرو » من ذيلها ورماها بسرعة وراح يضرب أصابعه في بعضها لينسى وجع اللسع . وجاء صوت خشن من نهاية الاسطبل زاعقا ..
ــ يامن تدعى «عمرو» .. ألا تريد ان تنام ؟
قال «عمرو» ..
ــ ومالك أنت ؟

قال الصوت الخشن ..
ــ اسكت يا أخي وجعت رؤوسنا أنت والولد التلميذ ..
ثم راح يبرطم ..
ــ والله عال .. نقلبها كتاب .. طـول النهار تشبقي وفي الليل تقرأ سورة عبس .. نم ياأخي .. ياأخي نم ..
قال « عمرو » متضايقا ..
ــ اللهم اخزك ياشيطان ...
اقشعر بدن «طلعت» وقال مثل الكبار ..
ــ وحدوا الله ياجماعة .. دعوا الليلة تفوت على خير ..

برز رأس شـيخ الغفر من وسـط الاسطبل وصاح نحو المذود ..
ــ تكلم ياجدع على كيفك .. وهات معك من يتكلم ..
قال ذو الصوت الخشن :
ــ كيف ؟ .. الاتريد أنت الاخر أن تنام ؟
ــ والله ياجدع لقد ضاع النوم من عيني .
ــ وماذنبنا نحن ؟
هكذا قال ذو الصوت الخشن ، فقال « شيخ الغفر » وهو ينهض جالسا :

ـ أصلك لاتعرف لماذا يهرب النوم من عينى ؟ ••
ـ لا والله لا أعرف •
ـ تبقى اذن حيوانا •
ـ الله يسامحك ياعم •• نحن تعودنا على قلة الادب •
ـ افهم ياحمار •
ودلق فى صوته كثيرا من الود :
ـ ليس من صــوت بجانبى •• لهذا لا أنام •• لاصــوت يؤنسنى •
ضحك « عمرو » وهو ينزع الجلد المحروق عن السمكة :
ـ هل أنت خائف ياشيخ الغفر ؟
ـ أى والله يا « عمرو » ياولدى •• كل هؤلاء الناس ينامون لصقى •• وأخاف ••• تتراءى لى أحلام مثل الزفت المغلى كلما أغمضت عينى •• مصيبة •• أحس اننى بلا رفيق فى هــذه الدنيا •
مصمص « طلعت » بشفتيه متعجبا :
ـ كل هؤلاء الناس بجانبه ويحس أنه بلا رفيق فى هــذه الدنيــا •
وصفق ذو الصوت الخشن بيديه :
ـ هذا والله شىء لم نسمع به من قبــل •• الناس تطلب الهدوء لتنام وشيخ الغفر يطلب دوشة الرأس •
ثم نهض جالسا هو الآخر يدعك ساقيه وركبتيه فى ألــم ويتأوه . وقال شيخ الغفر :
ـ ووالله لو أنك مرتاح البال لنمت •• لكنك انت أيضــا بلا رفيق فى هذه الدنيا •• انما انت أصلك غرباوى وسخ •
تغاضى ذو الصوت الخشن عن « غرباوى وسخ » وابتسم لان شيخ الغفر فهمه واعتبره مثله يمكن أن يكون له رفيق فى هذه الدنيا ، هو الذى ولدته أمه فى الترحيلة وتركته يتربى وحده فى الترحيلة . وبدأ كان كل هذه الرؤوس كانت تنتظــر من يدعوها للكلام ، فارتفعت ، وارتفعت معها أصوات كثيرة تقرض العيش المقدد ، وتتكلم ، فلا تعرف ان كانت تتعارك أم تتبادل الــود •

الارتحال وراء القـــاضى

« ما سفر الا سفر الحمـــيرى »
« ياسفر الجندى بلا خبــــيرى »
« غربتنـــــا يازمن غــــرارى »
« وسقيتنا بعد الحــلاً مرارى »
« يا مين يبشرنى عـــلى وليفى »
« طلع الجبل ولاسكن فى الريف »

— ١ —

صاح شيخ الغفر بعد أن لم يجد نوما كالعاده :
ـ اسمع ياشاطر ٠٠ انت يا ٠٠ أخ يا تلميذ ٠
ـ قل له يا ابن القاضى وهو يرد ٠
فانتبه « طلعت » ورفع وجهه عن الصفحات ونظر فى عمق الاسطبل ٠٠ كتل من الظلام تتماوج خلال ضوء مختنق ٠ رد أخيرا :
ـ ماذا ؟٠٠ من ينادينى ؟
شوح « شيخ الغفر » نحوه صائحا :
ـ ما هذا الذى تمقق فيه عينيك ؟ قصة عنتره أم الهلاليه ؟
فرد الباشخولى « عبد السلام » :
ـ سمعت التلميذ يقول لعمرو أن هذه القصة فيها لا أدرى ماذا ؟٠
فقال « عمرو » :
ـ فيها عمرو بن العاص ٠٠ وكلام كالذى نقوله هنا ٠
نهض « شيخ الغفر » واخترق الاجساد حتى وصل الى المذود فاقتعده بجوار « عمرو » و « طلعت » وقال :
ـ اقرأ لنا ياعم ٠٠ اسمعنا ٠٠
وبدا لطلعت كأن أرض الاسطبل ترتفع وتصير فى محازاة المدود المرتفع ، ورأى رؤوسا لا حصر لها تستعد للانصات . فارتعش قليلا وبلع ريقه ثم اندفع يقرأ ٠

فقرة لعلها مهمة

اقتطعنا هذه الفقرة من كتاب دليل العمد والمشايخ وللعاملين

فى الامن العام والضبطيه تأليف الاميرالاى على حلمى مــدير جرجا . ونهدف من ورائها الى أننا قد نستفيد مما ورد بها من تعريفات .

صفات العمدة وشيخ البلد : أهم هذه الصــفات التى يجب أن يمتاز بها هى :

أولا : أن يلم بواجباته العديدة المفروضة عليه .

ثانيا : أن يكون مطيعا لرؤسائه مخلصا فى عمله .

ثالثــا : أن يكون حافظا لكرامته وسمعته .

رابعا : أن يكون نزيها .

خامسا : أن يكون عادلا .

سادسا : أن يكون صادقا وأمينا .

سابعا : أن يتمسك بأهداف الفضيلة ومكارم الاخلاق .

ــ شىء يلخبط .
ــ فعلا ياشيخ الغفر .
ــ ياجدع قم لننم .. بلا وجع رأس .. وراثنا شغل من صبيحة ربنا .

ونهض شيخ الغفر وابتعد الى حيث يفترش جواله بجانب المذود فى الركن البعيد ، ولم ينسى أن يدوس ــ عامدا ــ على قدم ، وربما رقبة من انتهز فرصة غيابه عن مطرحه وتمدد على راحته . وهنا ارتفعت الصرخات بدأت صرخة واهية ، فكأنها موجة سريعة تدافعت داخل الاسطبل ومست فى طريقها كل وجه ثم خمدت فى الحال ، وانتفضت الاجساد جالسة تدعك فى عيونها وتتوجس . وكان « دياب » أول من صاح :

ــ اخز الشيطان يا طلعت ونم .
وتململ « الاعرج » وهمس فى أذن دياب :
ــ ماذا يفعل الولد الذى من بلدكم ؟
همس « دياب » :

ـ لا شيء ٠٠ لكنه سيثير لنا وجع الدماغ ٠
رفع « مهيوب » رأسه وصاح :
ـ ثم يا طلعت ٠
ـ طيب ياجدى ٠
وقلب أوراقه على وجهها وسكت ناظرا فى الفراغ ، ونظر الباشخولى عبد السلام الى عمرو وابتسم ٠
ـ الى أين رحت ياعمرو ؟٠
رد بصوت مبحوح :
ـ حاجة تمخول يا خال عبد السلام ٠٠ طلعت يقول لى : فى هذه الاوراق كلاما كالذى نقوله ٠٠ أقصد مثل موضوعنا ٠٠ قضيتنا ٠
شرد « عبد السلام » لبرهة ثم شوح بيده فى فروغ بال :
ـ كل قضايا الدنيا تشبه بعضها ٠٠ ومن يدقق يتعب ٠
حدثت قلقله ٠ واقترب شبح الاعرج فنظروا اليه ٠ وما أن اقترب حتى انقضت يده على الاوراق ورفعت منها حزمة ٠٠ ثم استدار عائدا ٠ ومرت برهة حتى أفاق « طلعت » من ذهوله وصاح : « ايه ٠٠ الورق ٠هات الورق يا خال أعرج ٠٠ أعمل معروف هاته » ، ونظر الى « عبد السلام » و « عمرو » يستنجد بهما ٠ لكنهما لم يفعلا شيئا ، واكتفى « عبد السلام » بان صاح فى تريقه : « ماذا فعل الورق بك يا أعرج ؟ » ٠ فضحك الاعرج من بعيد وصاح : « سأقبض الخواجه » ، فاذا بضحكة عريضة تنفجر بين الاجساد المتمددة ، اذ أن قبض الخواجة عندهم معناه قضاء الحاجة ، ذلك أن الخواجة ظل يقبض منهم طوال السنين حتى لم يعد لديهم شيء يقبضونه له سوى خرائهم انقبض صدر « طلعت » حيث عرف فيم سيستخدم هذه الاوراق قال الباشخولى وهو يضرب ركبتيه بكفه :
يلزمك أوراق مادمت ستقبض الخواجة ٠٠ والله فكره ٠٠ أنا الآخر أريد ان اقبض الخواجة ٠٠ ولكن أين اقبضه : ٠٠ ليس فى الاسطبل مكان ٠٠ على كل حال ٠٠ ليس هذا بجديد علينا ٠٠ كانت الخيول والبهائم تقضى حاجتها والقفة فى نفس هذا المكان ٠٠ ونحن أيضا نفعل مثلها ٠٠ والله عجبتنى يا أعرج فى فكرة الورق هذه » ٠ وانقض على الاوراق فسحب هو الآخر

حزمة .. فلم يستطع « طلعت » حبس دموعه .. فجمع ماتبقى من الاوراق ويرمها على شكل عامود ثم دفنها فى عبه وتمدد فى مكانه .. وفجأة امتلأ الاسطبل بصوت ضراط ورائحة فساء لاتطاق ، وكان ثمة من يقولون فى شىء كالتشفى :

ـ اقبض ياخواجة .. اقبض حتى تشبع .

ـ ٢ ـ

ربت « شيخ الغفر » على ظهر « طلعت » وسأله بلا مناسبة :

ـ هل صحيح أن اباك قاض ؟

تفصد العرق على جبين « طلعت » وارتعشت على شفتيه ابتسامة واهنه ولم يعرف بماذا يجيب ، فهو ليس متأكدا من شىء . على أن الجد « مهيوب » رفع رأسه من قرب باب الاسطبل واعتدل جالسا وصاح فى الحال :

ـ نعم يا شيخ الغفر .. أبوه قاضى .. قاضى بحق وحقيق .

ونظر « شيخ الغفر » الى «طلعت » متفحصا ومصمص بشفتيه فى تحسر :

ـ وما الذى رماك على هذا المر ؟

فتصاعدت عشرات الاصوات كالكورس :

ـ الذى هو أمر .

بكرة الاصوات راحت تكر :

ـ لاحول الله .

ـ من رأى بلوى غيره هانت عليه بلواه .

ـ الدنيا مليئه .

ـ اللهم لك ألف حمد وألف شكر .

ـ كده رضا .. ان زادت عن كده تفسد .

وكان « طلعت » قد راح يكره جده كره العمى ، وهم بأن يصرخ أن يضرب أحدا فى وجهه ، أن يهيل على الاسطبل كل طوب الارض . لكن الباشخولى عبد السلام نهض هو الآخر واخترق الاجساد وجلس بجواره :

ـ تروح المدرسة يا ولدى ؟
جاء صوت الجد مهيوب فى تفاخر :
ـ قلنا وسيأخذ الابتداوية بعد عام .. قلنا مائة مرة .
فزام صوت جهورى كأنه الكون كله . وساد الإسطبل صمت وقور ، مقصود لذاته ، كالصمت الذي يخيم على سرادق الجناز فجاة حينما يظهر صاحب الجناز قادما .. برهة طويلة مضت ثم بدأت مصمصة الشفاه تتنقل فى جنبات الاسطبل .
فجأة اضطجعت العجوز التى أسلمت شيخ الغفر ذات يوم ، ثم عادت فاعتدلت جالسة ورفعت كفيها فى الهواء متمتمة بشىء لم يتبينه أحد ، فلما فرغت قالت :
ـ فكرتنى ياولدى .. الله يمسيه بالخير .

اعتدل « مهيوب » وكان أول من هب جالســا ملقيا بصره تجاهها فى انتباه شديد فى حين رفع « طلعت » رأسه مسلما سمعه لفم العجوز ، التى قالت دون أن تشعر بهذا أو بذاك :
ـ أخاف ان يكون هو .
ثم شهقت .
ـ هو من ؟.
صوته فتح بها ترددت له اصداء فى اتجاه الاسطبل .
ـ أأنت ابن القاضى ؟ .. اذن قالت اينه .. يا حــــرام .. شفت الزمن .
ـ انت من أى بلد ياوليه ؟.
هكذا شب « مهيوب » سائلا فى ود .
ـ من صفط الملوك .
رفع ذراعه صائحا كأنه يبرىء نفسه فى ساحة محكمة :
ـ رحتها .. أقسم بالله العظيم رحتها .
رمقته العجوز فى تهكم حلو ، صانعة من كفها مظلة عـــلى عينيهــا :
ـ اذن فأنت ذهبت الى صفط الملوك .
ـ نعم والله يا خاله .
ـ معذورة أن تظل عامرة حتى الآن .
رعد الاسطبل بضحكات غير متحفظة . انتهت بشخر وغنج

شارك فيه حتى الجد مهيوب نفسه ، وقال بلهجة حكيمة :
ـ صدقيت والله ياخاله ٠٠ وهل أنت تقولين فيها ؟ ٠٠ ان الخراب يحل بأقدامنا ٠٠ ومتى ذهبنا الى مكان وحـل بـه رزق ؟٠٠ لقد عاشرتك سـنوات التزحيلـة يا أم عبده ٠٠ واجتمعنا سويا فى محطات الغربة الطويلة ٠٠ فما رأيت وجهك الصبوح فى يوم فى محطة غربة واصابنا رزق ٠
فضحك عجائز الاسطبل ضحكة غير صاخبة ، وشـوحت العجوز قائلة :
ـ ياه ٠٠ صرت الآن أبوكاتو ٠٠ ولو كنت فالحا ما ضاع منك القاضى ٠
قال الجد مهيوب مبتسما :
ـ لو كنت فالحا مازوجتها منه أصلا ٠٠ لكنه النصيب ٠
وكان « طلعت » قد اعتدل ثم تقرفص مطرطقا أذنيه ٠
ـ لكنك لم تكملى يا خاله ٠
هكذا صاح ثم ارتبك وهبط ثانية فغاص بين كتفيه ٠قالت العجوز :
ـ كل واحد فى بلدنا يعرف القاضى ٠٠ فهـو ابن ناس طيبين ٠٠ صرف عليه أبوه حتى علمه وعلا مراتبه ٠
هز الجد رأسه فى تأييد بات :
ـ نعم هذا صحيح ٠٠ قالوا لى هذا وأكدوه ٠٠ ثم ماذا ؟٠
ـ كانوا دائما يقولون : الوفد الوفد الوفد ٠
ـ من هم ؟
ـ أهله وهو ٠٠ يمشون فى البلد يزعقون : الوفد الوفد ٠
زام « مهيوب » ٠ صاح شيخ الغفر :
ـ تقصد الولية أن القاضى كان وفديا ٠٠ فى حزب الوفـد يعنى ٠
أضاف الباشخولى عبد السلام :
ـ أبا عن جد ٠
ردت العجوز :
ـ ما أعرف ٠٠ لكنه كان دائما يخطب مثل فقيه الجامع ٠٠ ويلتف الناس حوله على الجسور وعند المنواصى ٠٠ وفى منادر

الذين يدعونه لذلك ·· ولما صار قاضيا تزوج ابنة الباشا ·

ضرب « مهيوب » رأسه بكفه صائحا فى الم مشروخ :
ـ قالوا لى هذا ·· صحيح ·· انه من الكبار فى البلد ماقلت فى هذا شيئا والا مازوجته حبة عينى ·
ـ فلما تزوج ابنة الباشا ·· صار باشا ·
ـ باشا ·· صار باشا ؟·
هكذا جعر « مهيوب » وانتفض « طلعت » من اعماقه وراحت أنفاسه تتسلق الوجوه والصدور والاكتاف حواليه ·
ـ سعادة الباشا راح سعادة الباشا جاء ·· من يومها وقف عن الكلام ·· لاخطب ولا جسور ولا نواصى ولا : الوفد الوفد الوفد ·· وقبلها كانوا يقولون فى البلد : حضرة القاضى سيجئ بماسورة للمصرف ، سيجعل الحكومة تبنى جمعية فى البلد لتشد حيل الفلاح ، سيوظف الولد فلان والولد علان ·· والحق لله مارأيت مواسير ولاجمعيات ولا استوظف من أهل البلدة أحدا ·

ضحك الاسطبل ضحكة خافتة قالوا بها الكثير · وتمخطت العجوز فى طرف جلبابها وظلت ساكتة ، فقال شيخ الغفر بعصبية :
ـ انطقى ياوليه ·· قولى ·· أنت مسليه ·

ـ كانت نسوان عائلته يقلن بينما يتعوجن ويتقصعن :حضرة القاضى لم يعد يتكلم فى البلد ·· نعم ·· ليس خوفا من أحد ·· أنه بدلا من أن يتكلم فى هذه البلد الكحيانه راح يتكلم هناك ·· فى وجه بلكونة مولانا الملك ·· اشفت كهن النسوان·
قال « دياب » فجأة بعد نوم طال أمده :
ـ أصلها بلد العميان بلدتكم هذه يا خاله ·
ـ أصلها بلد الملوك ياروح أمك ·
هكذا صفعته العجوز فى الحال · وراح صوت دياب يتسلق صخب الضحك :
ـ صفط الملوك ·· ها ·· بلدة تتمسح فى الملوك واهلها جميعا تمليه سل مل ·

ـ افهم ياعبيط •• بلد التملية هذه أمك ماطالتها •• ماكان لمثل أمك أن تطولها •• ولذا فهى قد انجبتك على أكوام السباخ فى عشش الصفيح التى أنت منها •

ـ ناسها لايتخيرون عنك والله ياخاله •

ـ مع كل فبلدتنا هذه •• اسمع ما أقوله لك •• بلد الملوك •• أن تعيش فيها لابد لك من ملك ترتديه فوق ثيابك أو تحت ثيابك وقت اللزوم •• كل واحد بفلوسه وعزوته يشترى ملكا على قده ليتحزم عليه ويطلق منه النار على من لايعجبه •

ـ ومن لايستطيع شراء ملك ؟

ـ يجيء هنا ويؤانسنا فى الاسطبل •

ـ ألا يستطيع الواحد أن يربى له ملكا وليدا •• يشترى له البرسيم أو يدرج به على القنيان ؟ وفى النهاية يذبحه ؟ .

كان ذلك هو « عبد السلام » وارتفع الضجيج ، وصاح شيخ الغفر فيمن حوله وقد بدا على وجهه انه يفتعل المرح :

ـ لى مزاج ان تكمل الولية ماتقول •• دمها خفيف على قلبى هذه الولية •

ـ أى والله ياشيخ الغفر •• دمها خفيف على قلبى ايضا ولكن آه لو تسكتوا •

هكذا قال « طلعت » بصوت عال •

ـ أكملى ياولية •• هيه •• ثم ماذا ؟•• أقصد •• كلمينا عن القاضى •

ـ يهمك القاضى ياشيخ الغفر ؟

ـ يهمنا كلنا والله يا خاله •

ـ والله يا أخى انتم مايهمكم شيء فى الدنيا •

ـ لماذا يا خاله ؟ •• نحن ناس •

ـ تقول الجد ؟ •• أنتم ناس ؟ •• لم أكن أعرف •

ـ نحن ناس مثلك بالضبط والله •

ـ الله يسخطك •• عصا من اذن تلك التى شرخت ظهورنا؟ •• عصاتك ياشيخ الغفر أم عصا الشيطان ؟•

ـ عصا الشيطان والله يا خاله •• الله يجازيه •

كان هذا الاخير هو عبد السلام •

ــ وانت ايضا تتكلم ؟ أين كرباجك ؟ .. نسيته ؟ .. اننا لم ننسه بعد .. أم أنكم نسيتموه يا أولاد ؟

غمغمة وزئيط مضغوم .

ــ عبيد كلكم . لكن لاياباشخولى ، هذه الضهور كلها ، أنا معك أنها أغلظ من جلد الجاموس . فمن طول ما انهال عليها من عصى وكرابيج وشلاليت وقحوف نخيل أصبحت لاتفرق بين لسع العصا ولسع اللهب المحرق ... انما لا .. تعال اكشف أمامى ظهر أحدنا .. سترى حبالا غليظة من الدم الازرق النيله ، تلتف حول ظهورنا مبرومة ومجدولة .. أستطيع أن أفكهـا حبلا حبلا .. وحينئذ تراها فتلا رفيعه .. أقول لك أن هذه الفتلة هى طرف كرباجك يوم دخولنا الاسطبل ، وهذه الفتلة هى بوصة شيخ الغفر يوم كان اللحوص يتهموننا بالسرقة .. وهذه الفتلة هى خيزرانة الكاتب يوم لم تضحك له البنت الملايه ، وهذه وهذه .. فكيف تكون مثلنا ياشيخ الغفر ؟ ..

ــ مثلكم والله يا خاله واقل منكم .. ها أنا وحضرة الباشخولى معكم فى الاسطبل لا أحد أحسن من أحد .

ــ كيف ياولد .. كيف تكون مثلنا وظهرك ليست كظهورنا أبدا .. أنت وأمثالك حديثو عهد بانحناء الظهور .. رقابكم فقط هى التى تعودت على الانحناء أمام أسيادكم حتى انكسرت ..

ــ هذه الولية زودتها .

ــ دعها ياعبد السلام .. والله لقد انكسرت نفوسنا وصرنا مضحكه ..

انها تتكلم الحق فدعها تضربنا بالبلغه ..

ــ لسانها يطول علينا ياشيخ الغفر .. لايصح هذا .. امرأة « غرباوية » كهذه لايصح أن تهزىء الواحد منا .. نحن أولاد بلد ولنا مراكزنا ..

انفجرت العجوز ضاحكة ، وكانت جميع العيون المحيطة بها تنظر فى فمها الخرب فلا تعرف أن كان هذا الصوت الجهورى يخرج منه أم من فوهة بركان ..

ــ لا اجد في هذه البلدة له مركز .. أفهم هذا .. حتى اولئك « الهجاريس » الذين كانوا يعطونكم المركزهم انفسهم لامركزلهم .. افهم ياقلب أمك :

اعتدل الباشخولي جالسا في تحفز .. لكن تجفزه سرعان ماباخ وسلبت حرارته بفعل الضحكات التى شارك فيها حتى شيخ الغفر زميله في المحنة . اثنان لم يشاركا في الضحك : « طلعت » و « عمرو » اذ راح كل منهما ينظر في الاخر كأن بينهما كلام غامض وشيء مجهول يثير لديهما قلقا مشتركا ..

ــ هذه المرأة لن « تجيبها البر » .. لقد بدأ لسانها يطول على التفتيش أيضا ..

وأشار الباشخولي بأصبعه نحوها كأنه يرشد البوليس عنها ..

التفتيش سيدك انت ياروح أمك .. أما أنا فليس له عندي احم ولا دستور .. عمري الآن تسعون عاما بالتمام .. أضعت قواي كلهـا في أرض الوسية .. وأعطيت أولادي كلهم ــ وكلهم رجال ــ للسلطة .. السلطة أخذت من كل امرأة ولدا وأخذت مني قبيله .. حفروا المصارف وشقوا الترع وبنوا الكباري .. وفي الآخر شربت أرض السويس دماءهم فصارت قناة تمر المراكب فيها .. كلهم ماتوا في السخرة .. فماذا أخذت السلطة من أبيك ؟ .. انها أعطتك .. أعطتك عصا وامرتك أن تضرب من ليس في يدهم عصي .. سلمناكم ظهورنا لكيلا تضربوننا على بطوننا .. أنتم أيضا كنتم تعطون ظهوركم لاهل الوسيه .. انما نحن ، ان مالت ظهورنا فرقابنا مرفوعه ، لأنها مامالت الا للبذر والسقيا .. أما أنتم فأعطيتم الظهور بينما الرقاب منكسه .. ويعلم الله ماذا يفعل الواقفون خلف ذوي الرقاب المنكسه ..

انتفض الباشخولي عبد السلام معتزما الذهاب اليهـا لتأديبها .. لكن شيخ الغفر تشبث بذيل ثوبه مذكرا اياه بفضيحة سابقة .. فتقرفص عبد السلام وهو يتلمظ وينفخ ابتسمت العجوز ..

ـ تفترى علينا حتى وأنت هنا ٠٠ ماذا تنتظر أن يفعل الله بك أكثر من هذا ؟ ٠٠
صفق كفا على كف فى حيره :
ـ والله ما أعرف كيف أتصرف مع هذه الحرباء التى لاتستحى
ـ الحرباء لا تستحى من كلب مثلك يهز ذيله كثيرا
فانتفض قائما وداس غير عابىء بتحذير شيخ الغفر ، وما يدرى الاوديات يقبض على ذراعه ،ويدفعه دفعة صغيرة بعيده الى مكانه فى لمح البصر ، فنظر اليه الباشخولى فى غيظ وتهديد، فرفع « دياب » قبضته فى الهواء وهزها بعدوانية شديدة .. فنكس الباشخولى رأسه فى الارض وسكت ٠٠ فرجع « دياب» الى مكانه يبرطم بألفاظ غامضة أنهاها صائحا :
ـ تكلمى ياولية على كيفك .. لايهمك من أحد .. انك فى عمر جدتنا ٠٠ ولك الحق فى ان تقولى ماتشائين ٠٠ نعم ٠٠ فى الاسطبل تفعل ما تشاء ولا نخاف من أحد .. طول النهار نشوف الذل من الخوله والباشخوله والكاتب ومن الشمس أيضا ..
خيم على الاسطبل صمت قصير لكنه عميق ٠٠ صاح « طلعت » :
ـ والنبى ياخاله ٠٠ لم تقولى لى : ما اسم هذا القاضى ؟
فصاح « مهيوب » :
ـ صحيح ٠٠ لم تقولى ما اسمه ؟
ـ اللهم صلى وسلم عليك يانبى ٠٠ اسمه : خالد الشبباسى.
ثم تثاءبت ..
ـ خالد الشبباسى ؟ ٠٠
ـ خالد الشبباسى ؟ ٠٠
ـ خالد الشبباسى ؟
وهكذا انتقل الاسم بين ثلاثه ، ما ان تجاوزهم رنين الاسم حتى نظروا الى بعضهم من بعيد كأنهم يتعرفون على بعضهم من جديد : الجد مهيوب وعبدالسلام وشيخ الغفر . هتف «طلعت» فى جذل :

ـ تعرفه ياعم ؟ ·· هه ·· تعرفه ؟
لكن شيخ الغفر سرح بعينيه بعيدا : هه ··
هتف الجد « مهيوب » :
ـ انك تخرفين ياوليه ·· هذا ليس اسمه ·
انت أدرى
ـ قلت لك ليس اسمه ·
ـ انت حـــر
ثم شوحت العجوز ··
ـ يجوز أنه قاض آخر
قال مهيوب ، لكنه أدار أصابع يمناه حول أذنه علامـــة الالتباس ، ثم صاح فجأه :
ـ طب شكله ايه ؟
رمقته العجوز على بعد :
ـ ليس طويلا ولا قصيرا ··
ـ تلتين ·· مضبوط ·
ـ وجهه قمحى اللون ·· لكنه يحمر حين يغضب وحين ··
ـ يضحك ·· مضبوط ·
ـ فى لسانه لدغه ·· و ···
ـ بس ··
ثم وقف رافعا يديه :
ـ هو ·· عرفته من لسانه ··
وتنهد خافضا صوته فى ألم :
ـ فهل يعقل أن يكون له اسمين ؟
ـ يجوز ··
ـ لا ·
ـ لعله نصاب ··
ـ لا ·
ـ هناك من يحمل اسمين ··
ـ لأ ·
ـ فلان الفلانى وشهرته ··
ـ لأ ·

ـ اذن فانت نسيت اسمه
ـ كيف ؟ ٠٠ صغيرأنا ؟ ٠٠ يتساقط لعابى على صدرى ؟
دب يده فى صدره ، وجعل يرفع خرقة وراء خرقة ، حتى تسللت كفه الى الداخل وراحت تبحث وتبحث وعضلاتوجهه تتقلص وتتقلص وتنعقد وتزحف التجاعيد من صدغيهوجبهته فتخفى عينيه ، ثم خرجت الكف ممسكة بحافظة من الجلدبدت على البعد ثمينة رغم قدمها الشديد ٠ فتحها وأخرج ورقـــة مطوية ففتحها ثم فك منها ورقة أخرى راح يفردها :
ـــ هذه قسيمة الزواج ٠

٠٠ وقربها من عينيه :
ـ لم أذهب الى مدرسة أو كتاب ٠٠ ولكن هذه القسيمة علمتنى فك الخط ٠٠ أليسوا يقولون : كثرة الحـــــزن تعلم البكاء ؟ .. نعم .. أنا كنت أجرى وراء لقمة العيش ٠٠ وصرت أجرى وراء الاثنين فى مشوار واحد ٠٠ وكانوا جميعا حين أفرغ من سؤالهم يقولون ٠ من ؟ .. فكان على أن أفتح القسيمة مرات ومرات لأقرا لهم الاسم والعنوان ٠٠ وكان لابد أن أكون عارفا ومتأكدا أننى أنطق الحرف الصحيح ٠٠ غير هذا كان لابد أن أعرف وأتأكد بنفسى ما الذى احتفظت بـــه القسيمة لابنتى من حقوق رقبتها ٠٠
ثم انتبه ، فسكت ، وراح يدقق النظر فى القسيمة وصاح واضعا أصبعه على الاسم :

ـ هذا هو « فريد أبو الشوارب » ٠٠ اســـــمه هكذا ٠٠ « فريد أبو الشوارب » ٠٠
كأن ثعبانا متسللا قرص الباشخولى « عبد السلام » فصاح أى ٠٠ آه ٠٠ ثم شرد برهة ، وردد :
ـ هذا الاسم ليس غريبا على ٠٠لكن٠٠أمعقولأنيكونهو ؟
انتبه اليه أكثر من وجه ، خاصة وجه « شيخ الغفر » ووجه « عمرو » الذى راح ينقل البصر فيمـــــا بين شيخ الغفر والباشخولى ، فى حين كان « طلعت » ينتفض بشده ، وكـان « دياب » هو الآخر قد ظهر عليه الانتباه وراح يتـــابع ، ثم ان رؤوسا كثيرة تقاربت من بعضها ، منحية بعض الاجســـاد

جانبا .. فبدت كالأطراف المعنية . فجأة قال شيخ الغفر :
ـ هذه الولية شحططت رأسي ووراءها .. منك لله ياشيخه .

ونطق « عمرو » بلهجة ذات معنى :
ـ الكلام يجر بعضه ..
وهتف الجد مهيوب :

ـ اسمعي ياخاله .. منذ متى لم ترين القاضي ؟
ـ من عمر هذا الولد ..

وأشارت نحو « طلعت » . فانبرى « عبد السلام » بسرعة :
ـ ماسمعت عنه شيئا تحكينه لنا ؟

ـ أختي « حمده » تشتغل فيدارهم .. وقبل هذه الترحيلة كنت في البلد ، وجاءت سيرته ، فقالت أختي « حمـــده » :

الطلبه قتلوه ..

أولاد المدارس يعني .. وأبوه قال : ابني طلق العاهرةابنة الباشا .. يقول أصلها كانت عشيقة الملك .. ويقول أبـوه ابني خائف من الملك والملك خائف منه .. واختي « حمده » قالت في أذني : القاضي دخل السجن لأنه كان فيما يقولون يهدد الملك بالقتل .

فشمل الاسطبل سكون عميق ، ثم تثاءب عبد السلاموعوى مثل الكلب حين يقال انه شاهد عزرائيل .

ـ ٣ ـ

.. تقاربت الرؤوس . انتصبت الآذان . لكن الباشخولي « عبد السلام » ظل ساكنا لبرهة ران خـــلالها صمت متحفز مشحون . وكان شيخ الغفر يبـــدو مســـتعدا لفتح دماغ من يشوش عليهم هذه اللحظة ، عاقدا حاجبيه مركزا البصر في فم الباشخولي كأنه يسمعبعينيه لا بأذنيه . وتمتمالباشخولي:
ـ من أول مابدأنا نحكي عنه كأن لساني يتحرك لأقول :

هو الذى أعرفه · لكن لما رأيتـه ، فى المرة الثانيـة ، قلت : ياعبد السلام هـذا هو القاضى الذى كنت رأيته فى المحكمـة وأنت واقف فى القفص · فى الحق لم أتأكد · أصله كان يجلس ووجهه للناس وأرى وجهه من الجنب فقط لأننى كنت فى القفص وكان الابوكاتو ـ الله يلعنه ويلعن أبوه ـ يدوش الدماغ ، يخبط على الترابيزه وعلى كفه ويصرخ ، ولم أفهم من كلامه شيئا ، لكنه كان يشير بأصبعه نحوى أنا وشيخ الغفر وعمرو وأهل ابلد الابرياء وكل الذين يقفون معى فىالقفص ، انما كنت متأكدا انه يقول علينا أننا لصوص وأننا نمص الدم من العروق وأننا سرقنا عرق الانفار فى الليل من وراءالعمدة، وكان القاضى ينشال وينحط ويغتاظوينقر علىالخشبة ويقول له : «ياأستاذ ان العمدة والاعيان كانوا يحتفـلون بمقـاول الانفار والسهرة شغاله ودخان احشيـش يعبـق البلد ولابد أنهم كانوا سعداء بشىء دخل جيوبهم » · فكنت أفرح بالقاضى لما يقـول هذا الـكلام ، فأنظر اليه فلاأرى الا أذنه وصدغه والشعر الابيض وسلك النظارة يغوص بينـه ، وفجأة يرفع الابوكاتو صوته ويشير نحونا ويقول ان الله أمر بشنقنا · · شغلنى ابن الكلب عن رؤية وجه القاضى يومها · ولما خرجنا من المحكمة بضمان العمدة والعمدة بضمان التفتيش أحببت القاضى وجعلت أتذكر شكله فلم أستطع ··

ووالله ماأعرف الآن ان كان هو قاضى المحكمة أو غيره ·· لكن العمدة بعث يطلبنى فى الليل · ولولا أن اثنين من الغفر جاء يطلباننى لما ذهبت ولا اعتبرت هذا العمدة الملعون ·ليس من عادة العمدة أن يقول لأحد : أقعد ـ بل الويل لمن لايقف عند مروره أو لاينزل عن حماره ان كان أحدهما مقبـلا نحـو الآخر · انما هو فى تلك الليلة قال لى : أقعد ياعبد السلام ·· أقول لكم الحق جلست · جاء خادمه ـ وهو غفـير لايعرف الدرك ولا حمل البنادق ـ ووضعالشاى أمامى ،نفس الصينية بأكوابها التى لاتخرج الا للاكابر · وبنفسه راح يصـب لى الشاى فى الكوب وبزبوز البراض يصب فى دماغى أفـكارا

غامقة مثل صبغة اليود فقلت لنفسى اللهم اجعله خيرا . كنت أعرف من الاول أننى ـ كما قال لى الابوكاتو والقاضى ـ شاهد اثبات . ولما سألت : يعنى ماذا شاهد اثبات ؟ . قالوا لى .. «يعنى أنت الذى رأيت الانفار وهى تسرق . مع اننى لم أقل هذا ، ولم أر الانفار يسرقون أكثر من خيارة أو حزمة فجل . ولما صرحت بهذا زغدنى الباشكاتب فى جنبى يومها وقال : ياضلالى .. كل سنة نجىء بك لتبصم على هذا .. أنت باشخولى السراى وكنت تبصم على أقوالك كلما حدثت السرقات ، وتشهد على أن الانفار لصوص أولاد كلب سل مل هذه هى مهنة باشخولى السراى على الدوام .. فهل ترجع فى أقوالك ! لو امرأة ما رجعت فى كلامها . . لولا أنه جلبابى الوحيد لكنت شققته حتى الذيل ، انما اكتفيت بقولى : «ياحضرة الباشكاتب انك كنت تنادينى من أى مكان لكى أبصم .. وتقول لى أبصم فكل المشتغلين فى السراى لابد أن يبصموا على المحضر .. وكنت تقول لى بينما هم يصبغون أصبعى بالقلم الكوبيا : «ألست مسروقا أيضا ! انك من التفتيش ، وسرقة التفتيش يعنى سرقتك » . فما كان من الباشكاتب ساعتها الا أنه صار يصفعنى ويضربنى بالشلوت فى حجرة الطلمبة وحدنا ويقول لى : «الجلسة فى الغد ،وأنت طول عمرك تشهد نفس الشهادة فكن رجلا وأثبت على مبدئك والا حبستك المحكمة وقلت انك نصاب .. لابد أن تقول أن الانفار خرجوا من الاسطبل فى عز الليل وهجموا على دار العمدة وسرقوا حقيبة الحاج سليم وهربوا .. فان قال لك القاضى كيف وأنت ياباشخولى أغلقت عليهم الباب بالقفل !. تقول : لقد خرجوا من بين سقف الجملون .. فان قال لك القاضى وكيف رأيتهم وتركتهم ؟ .. تقول : لقد جروا فأطلقت النار عليهم لكنها لم تصبهم ولم أستطع اللحاق بهم » . قلت له ياحضرة الباشكاتب تريدنى أن أشهد زورا ؟ فشخر لى ، أى والله لقد شخر هذا الكحكوح فما نطقت، فشد أصبعى وصبغه بالقلم الكوبيا ثم لصقه على ورقة بيضاء وقال : « هذه الورقة البيضاء هى أقوالك .. واذا غيرت فى أقوالك أمام القاضى

تشهد عليك هذه الورقة » • فلما طوى بصمتي ووضـــعها فى جيبه ابتسم وقال : «صرت الآن رجلا بحق وللتفتيش أن يجعل باله منك ويعوضك» •وأظن أنه قال أيضا : «وحين يعلم المقاول سوف يعوضك» • وجاءت الجلسة وقلت أمام القاضى ماقاله لى حضرة الباشكاتب •• فصاح الابوكاتو : « شريكهـم •• لقد والس على الانفار ولابد انه أخذ حقه منهـم» • صرت أنظر الى حضرة الباشكاتب فلم أجده في الجلسة ،فرحت أصرخ وأقول: «مظلوم والله •• حضرة الباشكاتب هو الذى قال لى هذا» •• فصار القاضى يضحك والناس كلهم يضحكون •

لفت الايام والمحكمة لم تطلبنـــا ، لذا خفت حـين طلبنى العمدة لوحدى ، وخفت أكثر لما رحب بى ، وخفت أكتر وأكثر لما صب لى الشاى بنفسه وقال : «تفضل ياسى عبد السلام » سى عبد السلام •• ذلك احترام ليس من ورائه خير • شربت شفطة وقلت : «خير ياحضرة العمدة ؟» • فأشعل سـيجارته وأعطانى علبة دخانه كى ألف لى سيجارة • ياللمصيبة ماذا فى الامر ؟ قال : «ياعبد السلام انى أقصدك فى خدمة» • أقصدك؟ وخدمة ؟ من أكون ياحضرة العمدة حتى تقصدنى فى خدمة ؟ ابتسم وقال : «انت رجل ولا كل الرجال ياعبد الســلام لكن الظروف لاتنولك» • ربنا يخليك ياحضرة العمدة هذه شهادة لاتقدر بثمن • قال : «أصل الحكاية اننى وثقت فيك من دون الناس كلها •• حتى الغفر • وهم لايعرفون شيئا عن الموضوع الذى سأكلمك فيه الآن» • قلت فى نفسى لابد أنه ينوى شرا بحضرة الباشكاتب أو حضرة الناظر أو بواحدة من الزوجتين المعيبتين ويريد أن يسألنى عن سر من الاسرار ، ثم جعلت أفكر فى شيء يستحق أن أقوله ولا يعرفه الا واحد مثلى دهس فى قلب التفتيش ، لكنه قال : جاءنى الليلة فى السر ضيف لاأحد يعلم بمجيئه غير الغفير الذى استقبله بالركوبة عند المحطة •• أما غفيرى فهو على ضمانتى ولسانه فى محفظتى وأما أنت فثقتى فيك كبيرة» • قلت له رقبتى فداءك ياحضرة العمدة وسرك فى بئر مظلم • هز رأسه وقال : «عيب •• أتعرفنى بك ياعبـــد السلام ؟ •• لكن ماعلينا •• هذا الضيف عزيز على مثل عينى

·· وهو يريد أن يصل الى بلدة قريبة هاهنا بيننا وبينها فركة كعب .. اسمها الحصة .. وطبعا .. لايصح أن أتركه يذهب الى هذه البلدة وحده في عز الليل ·· كما أن غفيري لايصلح لتوصيله » ·

دماغي لف ياجدعان · الغفير الذى قابله لايعجز عن توصيله لكن العمدة قال : «الرجل أصله من كبار القوم ومقامه أعلى مما يتصور خيالك ولايريد ان يجلب لى وجع الدماغ فى البلد» · طيب ، أحكمت ان يسافر الليلة ؟ · قال وهو يقرب فمه من أذنى : « سعادة البيك له أقارب في هذه البلدة لم يروه من سنين طويلة ·· ولأسباب يعلمها الله يريد أن يزورهم في السر ·· يقولون أنها زوجته ·· ويقولون ـ بينى وبينك ـ انها امرأة يعشقها وتعشقه وأنها فلاحة فقيرة» · فرأيتنى أكره الرجل وقلت لنفسى والله مايستحق التوصيل مثل هذا الفلاتى ·واذا بالعمدة يمسكنى من اليد التى توجعنى · قال وهو يميل على أذنى ثانية : خل بالك .. خدمة الناس لا تضيع هدرا .. قدم السبت تجد الاحد قدامك ·· أتفهم ؟ ·· أنت فى بلوى · · قضية ومحكمة ·· هذا الرجل اذا انبسط منك سيخدمك ·· سينجيك من هذه القضية» · قلت له أيقدر حقا ياحضرة العمدة ؟ فرجع بظهره مشوحا في وجهى : «انه المحكمة نفسها· اذا قال لجدرانها قومي من مطرحك تقوم فى الحال» · فجعلت أهرش فى قفاى ولم أتكلم ·

الا والرجل يدخل علينا · طول بعرض كفرعون ، البدلة السوداء والطربوش والشعر الابيض حول أذنيه وسلك النظارة الذهب يغوص فيه ، وتلك العقدة المفرشحة التى يعقدها الافندية حول رقابهم ، والعصا الابنوس فى يده ، وفى اليد الاخرى شنطة من الجلد مثل شنطة المحضر والصراف والكاشف . قال وهو يشد سلسلة الساعة من جيب فوق سرته ثم ينظر فى الساعة الذهب » «الوقت خلاص ياعمدة سيطلع علينا الفجر فى الطريق » هب العمدة واقفا وأنا قبله · وظللت أرتعش اذ أن الرجل كان ينظر الى·

قال العمدة : « خلاص ياسعادة البيك ·· هـذا الرجل المحترم سوف يوصلك ·· انه مثل أخى وأكثر ·· فلايكن عندك أى شاغل من ناحيته » · نظر الرجل الى ثانية وابتسم وهز رأسه والعمدة يقول : «هذا هو خالد بك فريد أعز أعز أصحابى فلا تتركه الا حين يأمرك .. مفهوم ؟ . فهززت رأسي وقلت .. مفهوم · ومشى الرجل فمشينا وراءه · وحين رأيت صـدغه وسلك النظارة الذهبى والشعر الابيض حلفت بالطـلاق أنى رأيته من قبل ، ولم يطلع من بالى ، وصرت أتذكر وأتذكر ··

ظلت الركوبة تمشى طويلا داخل جنينة العمـــدة وأنا أترنح خلفها ويغرزنى الظلام فى طين الارض المروية حتى طلعنا على الطريق الزراعى بين أشجار الجزورين فخلصت قدمى من الطين وفتحت صدرى للهواء فتبختر الرهوان · من حسن حظى طلع القمر ، فصرت أجرى وأجرى أريد ــ بس ــ ان أنظر فى وجـه الرجل لأتأكد من شكله ، لكن الرهـوان يسبقنى فلاأرى الا صدغيه من هنا مرة ومن هنا أخرى · قال فجأة : «اقترب الفجر ياعبد السلام» · شهقت ، وحلفت بالطلاق مرة ثانية أن الذى يقول ياعبد السلام هكذاهو الرجل القاضى فى المحكمه ،وصوته لبس غريبا على · قلت : «الفجر بعيد ياسعادة البيك »·قال · « أنت وفدى أم دستورى أم سعدى ؟» · ففرحت لانه كلمنى هكذا ، ثم اننى ضـــحكت ، فعاد يقول ·· «اوعى ماتكـونش وفدى» ثم ابتسم · فجريت بجانبه ثم كشفت ذراعى وقلت : «أنا هذا ياسعادة البيك »،وجعلت أرفع سمانة ذراعى نحو عينيه ليرى · فاذا به يوقف الركوبه ويدقق النظر فى سمانة ذراعى ثم ينظر فى وجهى نظرة لم ينظرها أحد فى وجهى سوى حضرة القاضى فى المحكمة أول مرة وقفت فيها أمامه ·· أشعل عـود كبريت وامسك بسمانة ذراعى وصار ينظر فيها ووجهه يضىء بالفرح ثم أطفأ العود وقال لى وهويبتسم : «تعرف هذا الرجل الذى ترسمه على ذراعك ياعبد الســـلام ؟» · قلت : «وطبعا ياسعادة البيك ·· انه سعد ·· سعد زغلول» · فصار الرجل يربت على كتفى مثل أبى ، ثم أخرج محفظته وأعطانى جنيهـا بحاله حتى صرت أرقص من الفرح ·

ولقيتني آسأله : «عدم المؤاخذة ياسعادة البيك ٠٠حضرتك من نواحينا ؟ . غدم المؤاخذة فأنا أريد أن أتشرف » . هز رأسه وقال : نعم ياعبد السلامأنامن هذه المديرية وبلدتى فيالاصل هذه التى تختبىء فى سعف النخيل ولا يبين منها سوى طرف المئذنة ٠٠ أرض العائلة زحفت عليها أرض الوسية وابتلعتها ٠٠ وطبعا ياعبد السلام أنت تعرف أن الملكة نازلى لما تزوجت الملك فؤاد أبوها صبح عليها بهذه المديرية كلها ٠٠ نعم ٠٠ فى صباحية فرحها كانت المقتلة دائرة فى بلدتنا ٠٠ أبى واخوتى وأعمامى ، بالفئوس والكريكات والشوم والبلط والسكاكين ٠٠ وغفر التفتيش والهجانة والعساكر السوارى بالبنادق والكرابيج والعصى ٠٠ مات من اخوتى من مات وجرح من أعمامى منجرح فلم نحزن انما أكلتنا الحسرة علىعمى الذى دخلوا عليه الدار وطعنوه بالخنجر وهو يصلى فمات راكعا فحلفنا جميعا الا نركع لغير الله .. وقاتلنا حتى جاءت الدنيا كلها لتحكم ، وجاء المفتش ودفع الدية ودفع ما قال انه ثمن الارض ولكننا لم نسكت ٠٠ فأعطونا بدلا منها أرضا فىمديرية أخرى من أراضى طرح البحر كلفتنا الجلد والسقط » ٠٠

ذاك ما قاله الرجل والله يا اخوان ٠ قلت فى نفسى والله مايكون هذا الرجل فلاتيا أبدا ٠ وقلت له : « ياسعادة البيك العمدة يقول أنك عدم المؤاخذه ٠٠ لك هنا ناس ٠٠ أظنها امرأة أو ٠٠ » ٠ فلم يتركنى أكمل ، وقال : انكان على الزوجة فأنا لى زوجة هنا فى بلدة صغيرة فى نفس المديرية سوف أذهب اليها بعد أن أنتهى من هذا المشوار » ٠ والرجل حكى أشياء كثيرة لست أذكرها كلها ٠ أظنه قال : اسمع يا عبد السلام .. ألم تعرفوا بعد من الذى سرق عرق الانفار ؟. لا أعرف من أين جاءتنى هذه الشجاعة ، قلتفىالحال: « مقاول الانفار ياسعادة البيك » ٠ ابتسم الرجل ، لا أظنه ضحك بصوت عال ، وقال : « كيف حكمت بهذا ياعبد السلام ؟ » ٠ فقلت : « والله يا سعادة البيك ما يستطيع أن يفعلها غيره ، وعلى فكره يا سعادة البيك ، هذا المقاول وضع عند العمدة حقيبة فارغة ، وكان يعرف انها

ستسرق ، فلما سرقت زعم ان بهاعرق الأنفار » . فاذا بالرجل يحتضن الحقيبة التى معه بخوف ، واذا به يضحك ، ويقول : « اقتربت من الحقيقة ولكن ربما يكون ناظر الوسية هـــو الذى سرق » . وقف شعرى والله ياالخوان ، ناظر الوسية ؟ انه صحيح يوالس مع المقاول ، يأخذ نصف المقاولة ويقبل من المقاول أنفارا لاتنفع ولا تشفع ، لكن كيف يسرق حقيبة كهذه؟ .. قال الرجل وهو يشير الى حقيبته : « سوف يتضح كـل شيء عما قريب » . صرت أنا أنظر الى الحقيبة التى معـــه وأتعجب لماذا أشار اليها ؟ وكنت أريد أن اسأله وتحرك لسانى بالفعل ، ولكن ...

ومصمص « عبد السلام » بشفته وسكت ..

ـ لكن ماذا ؟ ..

هكذا ارتفع الصياح من حوله ، حتى أنه انزعج ، وصـــار يتلفت حواليه فى خوف ..

ـ لكن ماذا .. أكمل ..

اعتدل « عبد السلام » وشرد بصره وزاغ :

ـ فجأة وجدناهم يقبلون نحونا من بعيد . كانوا ثلاثـــة . وكانوا يركبون الخيل .

قلت فى نفسى : لابد أنها دورية الليل . وقلت هذاللرجل . فلم يبد عليه الخوف مثلى ، بل انه ضحك ضحكة قصيرةوقال: « دع كل واحد وشأنه » . فما كان منى الا أننى التصقـــت بالحمار لاحتمى به . ثم اتضح أنها تشبه دورية الليل ولكن

يعلم الله انكانت هىحقا أم هى دورية أخرى ، الا أنهم صاحوا قائلين : «قف مكانك » . فلم نقف . فصاحوا ثانية : «قلنا قف مكانك » . فلم نسمع كلامهم ، والحمار الملعون صاريبرطع

من الخوف ، وما آدرى الاوالرصاص ينطلق مارا من فوقرأسى بالضبط ، فقلت جاءك الموت ياتارك الصلاة واخذت أهر . وكان الرجل يصيح بى : «أوقف هذا الحمار » ، وكان يرفع يده الى

أعلى ، والحمار الملعون لايريد التوقف . هب .. خطوةوالثانيه صار الخيل فوق رؤوسنا . رأيت وجوههم . كانت وجوهــا مجرمه . فوقعت من طولى وادعيت الموت . أما هم فأمسكوا بالحمار ، وصاح كبيرهم :« أتعبتنا يارجل .. نحن نبحــث عنك من مدة طويلة وأنت هارب من العداله .. الحمد لله آنك وقعت فى أيدينا » . وضحك الرجل بصوت عال حتى كاديقع من فوق الحمار وقال : « أنا ؟ .. أنا يا أخ أنت وهو لست هاربا من العداله .. أنا هاربمن أجل العدالة وأنتم الصادقون» . فقال كبيرهم بتهكم : « ومن أنت ان شاء الله ؟ » . فقلت فى نفسى : والله ماهذه ألفاظ الدورية أبدا ، انها ألفاظ مــن بلدتنا وأصواتها أيضــــــا أكاد اعرفها وان كانت متنكرة فى زى أفندية . وقال الرجل : « أنا العدالة ، نفسها ياأخ انت وهو .. وسفرى الليلة من أجل العدالة.. معى قضية سوف أقرأها فى بلدتى على مهل وأكتب الحكم فيها على رواقه » . صرخ كبيرهم كأنه ناظر الوسية بالضبط : « لانأكل من هذا الكلام .. قل لنا من أنت أحسن لك » أخرج الرجل من جيبــه اوراقا مدها نحوهم ـــ رايتهم ـــ وأنا ممدد على الارض ابربش بعنيى ـــ يتلهفون على جذب المحفظة التى يخرج منها الاوراق . فلما ـــ رأيتهم منشغلين صرت أزحف حتى انقلبت فىالمصرف الجاف واختفيت بين اعــــواد البوص ، وسمعتهم يتصايحون بكلام لم أفهمه وصار صياحهم يبتعد عن أذنى شيئا فشــــيئا ولكننى لم آخرج من البوص الاحين خرج الصبح من بوابـــة الفجر . ومن يومها لم أعرف ماذا حدث ، وحتى العمدة لم يسألنى عن شىء بعد ذلك ، بل انه عاد من جديد لا يعرفنى ولا يحترمنى ..

شوح بذراعه فى الهواء علامة على انه لم بعد عنده كلام . ولكن الصمت ظل مطبقا لبرهة بدت طويلة ..

وزام « شيخ الغفر » زومة طويلة عميقة ، ثم مال على«طلعت» وقال كأنما ليحاول نسيان الامربرمته :

ـ لقد نسيناك ياولدى ·· أرنا الآن ماذا تقرأ ·· وكيف تقرأ ··

فبدأ كأن الاسطبل ترتفع أرضه ، لتصير فى محاذاة المدود المرتفع · وكانت رؤوس كثيرة مستعدة للانصات بشغف · وراح ·· « طلعت » يقرأ فى طلاقة لم يكن عرفها من قبل أبدا خاصة فى حصص المطالعة ··



الفصل التاسع

جنون التفاصيل

«أقسمت عليك أيها السم السموم»
«ان كنت فى الدم تخرج الى اللحم»
« وان كنت فى اللحم تخرج الى العضم »
« وان كنت فى العضم تخرج الى الجلد »
«وان كنت فى الجلد تخرج الى الشعر»
«وان كنت في الشعر تخرج الى الهوا»
«بحق من هو عل العرش استوى»

(تعزيمة تلقى على الملدوغ)

أظن انه قد آن الاوان لان أنفجر ، ولكن على طريقتى الخاصة أو بمعنى أصح بقياس مهنتى : أكتب تقريرى ٠أنا وكيل النائب العام الذى رزىء بمهمة التحقيق فى هذه القضية الخرافية الواقعية المجنونة العاقلة ٠

فى الواقع اننى لم أعد أعرف بالضبط أن كان ماحدث قد حدث بالفعل أم انه مجرد كابوس ثقيل الوطأة ٠ ومصدر الدهشة ليس فى أن ماحدث قد حدث فى قرية من قرى مصر ، فهو بالنسبة الى ماحدث من قبل وما قد يحدث من بعد شىء عادى تماما ويحدث كل يوم ، ولكن مصدر الدهشة حقا ، وما أصاب توازنى من صدع حاد هو أن يكون هذا الذى حدث واقعا قائما فى قرية مصرية على شمال الدلتا وسط برية من براريها ، وفى سنة ١٩٥٠ على وجه التحديد ، حيث تموج البلاد بتيارات سياسية وثقافية متعددة ، وحيث قطعت البلاد شوطا هائلا فى الدنو من الحضارة الغربية المعاصرة ، حيث تتأهب البلاد لقفزة تنقض بها على قلب العدو فتتخلص منه خلاص الابد ، وحيث قد توهم مثقفو هذه البلدة أنهم يقودون شعبا واسع الوعى والنطاق.

٠٠ وحيث كنت أنا نفسى أتوهم أن أبناء بلدتى من الفلاحين والتجار والحرفيين قد صاروا على وشك الوثوب على مقود الامور فى هذه البلاد ٠٠ اذا بى فجأة أرانى أخوض فى الخرافة خوضا أكتشف قرية مصرية لم يصل الى علمها بعد أن البلد لم يعد فيها سلاطين ، وأن ملكا اسمه فؤاد قد توفاه الله وحل محله ابن له يدعى فاروق ، ولم يصل الى علمها بعد أن نظام جباة الضرائب قد انقرض ، ولم يعد هناك مايسمى «بالكاشف» الذى يحصل الاتاوة لأفندينا ٠ انهم قبيلة من البشر تجمد بها الزمن تماما ، حتى أنك وأنت تدخل بين أهلها وتتسرب الى نفوسهم يخيل اليك أنك تتخبط فى كهف طوله بلا نهاية وضيقه ضيق القبر ٠ لهم أب واحد وصحبة واحدة ، أما أبوهم المقدس فهو زعيمنا الخالد «سعد زغلول» هو ذلك الاب الذى ألقيت على عاتقه مهمة الخلاص لهم من كرباج الزمن الاعمى ٠٠ من مصاصى الدماء الغرباء وأذيالهم ومخالبهم الكامنة بين ظهرانيهم ، ومن أجدر

منه بالقيام بهذه المهمة ؟ ان ايمانهم بقدرته فائق الحد ، ايمان بعمق مأساتهم ، وتحميله شاهق الامنيات · ولهذا فما أشد مرارة المأساة فى حلوقهم · وما أبشع الشعور بالفجيعة ، لقد نالها سعد ·· «لافائدة» ، ولم يكتف بقولها · بل قالها ومات· فانهارت بذلك كل آمالهم ، وتهاوى كل نجم مضيء فى الافق ، وصرت تراهم بلا مزاج وبلا رغبة فى المعرفة وحتى بلا رغبة فى اقامة الجسور بينهم وبين كافة الافندية ، فكل الافنديه فى نظرهم أبناء المدينة الكافرة ، وكلهم ينتمون الى الحكومة وكل ماينتمى الى الحكومة من قريب أو بعيد ليس أهلا للثقة بأى مقياس انه عدو لدود غير انه مفروض على الواحد منهم أن يعتبره صديقا ماذا والا ، وما الداعى لدوشة الدماغ ؟ ليكن صديقا ، وقد قالوا للكنيسة اسلمى فقالت أسلم ولكن مافى القلب فى القلب ، ويا أيها الافندى المبجل اذا ما استقبلك أهل هذه البلدة استقبالا حافلا مهيبا ، واذا ماصفقوا لك تصفيقا مدويا وهتفت حناجرهم فى الثناء بذكرك فلا تظنن انك قد صرت فى القلب منهم وامتلكت النواصى ·· ، لا ·· رويدك وخفف من غلوائك فلعلك لم تخط من نفوسهم خطوة واحدة ، بل اننى أقول لك : كلما بولغ فى تبجيلك عليك بالتوقف فورا لمراجعة نفسك لان هذا معناه شيء من اثنين لاثالث لهما ··

اما اتقاء الشرك واما اعتلاء لظهرك بكل سلاسة المكر الاصيل·

وأما الصحبة التى كانت تجمع هذه القرية او هذه القبيلة فكانت تسمى «الوفد» أؤكد لك أنك اذا حاولت معرفة أبعاد الوفد كحزب سياسى فى نظرهم فلن تصل الى شيء ذى بال ، ولكنك ستجد انهم اختاروا هذا الاسم رمزا لتجمعهم على مؤازرة الاب والانضواء تحت لوائه ·

أعرف أنه ليس من حقى ان أكتب هذا الكلام هنا ، فليس هذا مجاله · والمطلوب منى أن أكتب تقريرا أو مذكرة قانونية بما انتهت اليه هذه القضية الشديدة التعقيد لشدة بساطتها . ولكن من لى بعقل قوى يستطيع استيعاب هذا الواقع ويظل فوقه · ان الانسان حين يصطدم بواقع كهذا لابد ان يتساءل :

كيف ظل هذا الواقع قائمـا حتى الآن ؟٠٠ ومن المسئول عن ذلك ؟ • لاشك أن هناك من يستفيد من بقاء هذا الواقع على ماهو عليه ، فهو لايمكن ان يكون نبتا شيطانيا ، كرقعة عريضة من الحلفاء فى وسط صحراء قاحله ، بل ان الشيطانى حقا هو تلك القوة العاتية التى ظلت مسيطرة على هذا الواقع كل هذا الدهر فحولته الى دهاء ، وأقامت حوله سورا كالذى يقام حول حديقه الحيوانات غير أنها هنا حيوانات منتجة •

ليعتبر المشرع هذا الكلام لغوا ، ليشطبه ان أراد ،ليشطبنى أنا نفسى من سجلات الميرى ، ولكننى لابد أن أسجل هنا أننى فشلت فى أن أكون قانونيا فى نظرتى وسلوكى ، ذلك اننى فشلت فى فهم أبعاد هذه القوى الشيطانية العاتيـة التى تكمن خلف هذا الواقع والتى كدت أمسكها بيدى مسكا ، والتى كنت أحس بما يقرب من اليقين أننى ريشة فى يدها ، واننى سخرت أيضا لخدمة أغراضها ، وأن دائرة التحقيق كلما توسعت امتد ضوؤها الى أماد شاهقة ويجد الجد حتى يصير هزلا ، ويتصاعد الهزل حتى يعانق الجد ؛ وفى اللحظة التى يناوشك فيها اليقين بأن الامر يجرى بصورة عفوية تماما ، يداهمك اليقين فجأة بأن الامر محكم غاية الاحكام ، وأن هذه العفوية نفسها مجرد قشرة لكنها سميكة كقشرة الارض تحتاج الى حفار آلى قوى اذا أردت الوصول الى نبع المياه فى جوفها •

تقـرير :

انتقلنا فى مساء اليوم التالى لوصول هذه العريضة السالفة الذكر ، ومعنا تصريح من النائب العام بتفتيش بيت شيخ البلد وحديقته • أخضعنا البيت كله لتفتيش دقيق ، وبدون شوشرة فى الاول ، كانت الرغبة فى معرفة التفاصيل قد وصلت بى الى حد الجنون ، حتى خُيل الى أن كل شيء تقع عليه عينى أوتسمعه أذنى لابد يحتوى على تفاصيل غامضة لو كشفت عنها لاتضحت حقائق غير التى نعـرفها عنها • وأحس اننى تحولت الى أعين لا حصر لها ترقب وتراقب ولا تمل ولا تكل وليس ببعيـد أن

يصيبني جنون حقيقي ان لم يكن قد أصابني بالفعل .
أدهشنا أن وجدنا البئر المشار اليه فى العريضة المثبتة موجودا بالفعل غير أنه كان خاليا من كل شيء سوى الفراغ . كان مغطى بصخرة عريضة مربعة لكنها متليسة بطبقة من الطين مغروس فيها بعض الحشائش المصفره ، الا أن الصخرة حينما تغطى البئر تلتصق بقشرة الارض التصاقا تاما حتى يصبح من الصعوبة اكتشاف علائم تدل على أن هنا فتحة بئر . ولو ترك الامر لخبرتنا التفتيشية لعجزت كل العجز عن اكتشاف موضع البئر . ومما أثار دهشتنا حقا ان شيخ البلد وهو يسير خلفنا حاملا المصباح بنفسه قال :
ــ لعلكم تبحثون عن البئر ؟ .
فأحسست بمحاولاتى تبوخ . قلت له :
ــ طبعا نبحث عن البئر .. فأين هو ؟

تقدم بضع خطوات ، صاح آمرا أحد الاولاد بأن يرفع الصخرة . ففعل . هبطنا جميعا الى الارض بواسطة سلم مبنى نميل برءوسنا داخل البئر وشيخ البلد يغوص بالمصباح فى جوفه ليرينا عمق مافيه من فراغ . خليط من الروائح النفاذة يتصاعد من البئر تشى بأن البئر يستخدم فى تخزين أشياء كثيرة ومتنوعة . رحت اتلفت حوالى مداريا سخريتى من نتيجة التحقيق. ابتسم شيخ البلد وقال أن هذا البئر يجر عليه كثيرا من المتاعب ولهذا فهو ليس عبيطا حتى يخزن فيه شيئا هاما ، فضلا عن أن يضع فيه شيئا كالذى « فى رءوسنا » . ولم نكن قد أشرنا له بعد عما فى رءوسنا . فصحت فيه :
ــ ماذا تعنى بما فى رءوسنا ؟ ..

ابتسم كثعلب عجوز مراوغ .. قال مشوحا بذراعه فى الهواء :
ــ أى شيء يابيك ..
صرخت فيه امرا اياه أن يكف عن المراوغة ويجيء صريحا معتدلا . رسم على وجهه سذاجة بريئة ، قال فى مسكنه :
ــ يابيك انكم لم تجيئوا هنا من الباب للطاق ، ولم تحضروا

أيضا للفسحة او للتفرج على بئر أثرى كهذا ٠٠ فلا بد أن البئر ليس هدفكم وحده ٠٠ شيء معين فى جوف البئرقيل لحضرتكم انه موجود ، فجئتم تبحثون عنه .. اليس كذلك بالذمةيابيك؟
٠٠ هه هه ٠٠ شرفتم والله يابيك ٠٠ عودوا كى تأخذواالشاى قبل أن يبرد ٠

نظرت اليه فى غضب وحقد ٠ أضاف :

ـ أما هذا الشيء الذى تبحثون عنه فلا أعرفه أبدا ٠٠ وسبق ان قلت هذا من قبل .. ثق فى شخصى يابيك فأنا لست صغيرا ثم اننى لست من الرعاع ٠

وكان لابد أن أسأله عن قصة هذا البئر والحكمة من انشائه. فى اللحظة التى أوشكت فيها على النطق بالسؤال اقترب شيخ البلد منى وقال بلهجة الهمس رغم علو صوته أن هذا البئر من الموروثات الهامة بالنسبة للعائلة ، مثل البيت والاطيان والحديقة بل ولقب العائلة نفسها ٠٠ فهو يدل ـ فيما يزعم ـ على عراقة ما ، وعلى أن العائلة كانت تتميز بامكانيات خاصة ٠ وأضاف بينما يتمخط ويمسح فمه وذقنه بطرف كمه الواسع ، أن ردم هذا البئر جريمة كبرى فى حق العائلة وهو ليس بمجنون حتى يفكر فيها لانه اذا ردمه فمعنى ذلك انه ـ ببساطة ـ يردم اسم العائلة ٠

●●●

دخلنا المندرة ، دار حول نفسه فى فراغها وصفق كفا على كف ، قال وقد أحسست أن صوته أفلت منه :

ـ منه لله العمدة ٠٠ شكوته للذى لايغفل ولا ينام ٠ ٠ لكن باذن الله ربنا سينتقم منه ٠

واستدار الينا ثانية وبدا أنه تذكر وجودنا ٠٠ أشار الى الكنب قائلا ..

ـ تفضلوا يابيك لتستريحوا ٠٠

كنا بالحق متعبين ٠ جلسنا٠ جاءنى احساس بأن سبه للعمدة على هذا النحو أمر يجب أن يبحث جيدا ٠ انتهزت فرصة شروده فربت على كتفه وقلت ٠٠

ـ هون عليك ·· ربنا كبير ··
قال بلهجة جهيره :
ـ معلو ·· و ·· و ·· م
ثم تناول صينية الشاى وقدمها لى · أخذت كوبا وأومأت لمن معى آلا يمانعوا فى شرب الشـــاى . قلت بلهجة وديـــة خالصه :
ـ ماله العمدة ·· عامل فيك ايه ؟
انطلق يسب العمدة سبا صريحا غليظا ومغيظا الامر الذى جعلنى أتراجع يظهرى لأستريح قليلا :
ـ لابد أن فى الامر شيئا يغضبك على هذا النحو
صمت قليلا ·· اندفع فجأة وبلا تمهيد :

ـ تصور يابيك ·· هذا الرجل ·· يـ ·· يتهمنى بسرقة الحقيبة ؟
ـ كيف ياشيخ البلد ؟
ـ هذا ماحدث
ـ هل لديه دليل على مايقول ؟
ـ أتحداه ··
ـ فكيف اذن يتهمك ؟

ـ رجل لايستحى ·· نعم ·· هو رجل لايستحى وكفى
ـ لكن لابد أن هناك سببا دفعه لهذا الاتهام ·
ـ مجنون يابيك ·· هذا كل مافى الامر ·
ـ وكيف بلغك أنه يتهمك ؟
ـ فى الاول سمعت الخبر من بعض الناس ·· كذبته ·· أبقيت على الود والزمالة فى الحكومة ·· وفى ليله ·· فوجئت به يصارحنى ·· يسألنى ان كنت بالفعل قد تصرفـــت فى الحقيبة من خلف ظهره ··
ـ هل كانت الحقيبة فى بيتك أم فى بيته ؟
ـ كانت فى بيته هو ·· فى حجرة الكرار ·
ـ فكيف اذن يتسنى لك حرية التصرف فيها ؟
ـ أنك يابيك لاتدرى ·· عدم المؤاخذه ·· كم هو خبيث ولئيم ·· لقد ظن أننى ·· على حسب قوله ·· أردت حمايـة

الحقيبة فأرسلت فى السر من يقوم بنقلها من بيته الى بيتى ··
ـ ولماذا فى السر ؟
ـ حتى لايعارضنى ··
ـ هل كانت مسألة اخفائها أو حمايتها أمرا مطروحـــا بينكما ؟
ارتبك قليلا · اصفر لونه · بلع ريقه · تلعثم :
ـ اهه ·· ا ·· آه ·· انه يفترض هذا ·· أو ·· لاأدرى ··
ـ وما الحكمة فى أن تهتم بها لدرجة أن تفكر فى نقلها الى بيتك ؟
ـ لم أنقلها والله يابيك ·
ـ أقصد حسبما يقول العمده
ـ انه يقول الكثير ·· يخرف كما يشاء ··
ـ لكن لابد أنك كنت مهتما بأمرها ··
ارتبك ثانية · شفط من الشاى رشفة قال بعدها :
ـ أرجو أن يعجبك الشاى ··
ـ ممتع ياشيخ البلد
ـ بالهناء والشفاء ·· أخشى أن يصد نفسكم عن العشاء
ـ عشاء ماذا ؟
ـ عما قليل ينتهى الاولاد من تجهيزه ·· أسرعوا يا أولاد
فكرت فى الاعتراض ، لكننى أحجمت · فأنا فى الواقع لم أعد وكيلا للنائب العام ، على الاقل فى هذه اللحظة ، أنا رجل جن بالبحث عن التفاصيل بأى ثمن ، لقد شاءت ظروف العمل أن تضع رأسى برأسها فتوصلنى ـ وانا لم اتجاوز ابجـــدية العمل ـ فى قضية كهذه ليست فحسب معقـــدة بل هى فى نظرى تصلح للفرجة أكثر مما تدعو للتحقيق · قد يكون قولى هذا دليلا على عجزى من الناحية العملية ، أو دليلا على سذاجتى كشاب لم تضعه الحياة فى تجربة خشنة من قبل ، ولكن المهم أننى صادق مع نفسى ولا يعنينى ان كان تقريرى هذا فى صيغة قانونية أم همجية ، انما الذى يعنينى بحق هو أننى أجـــرب محاولة الوصول الى الحقيقة بأسلوبى الخاص ، غير مرتدثوب النيابة وان كنت أحتمى بدرعها ·

خلعت حذائى وتربعت فوق الكنبة فانبسط شيخ البلد غاية الانبساط بدأت أتحدث فى كثير من الأشياء التافهة ، عن صعوبة الحيـــــاة ، عن الاحزاب، عن التفتيش ، الملك أفندينا ، الضرائب الباهظة . بل وأطريت ذوق شيخ البلدفى اختيار جلبابه وامتدحت صوفته الانجليزى . وحدثنى هو عن حضرة المأمور وما تفعله بهم زياراته الليلية المتكررة والمفاجئه. وكان المأمور قد ميل على الكنبة المجاورة وارتفع شخيره فجأة مثل تلاطم السحب فى يوم شتوى عاصف . ونظر اليه شيخ البلد وابتسم ومال على كأنه يحتضننى بشرف عظيم ، قال :

ـ يدوخنا والله ياسعادة البيك .. يحضر فى الفارغــة والملانه .. وأحيانا بلا سبب واضح .. الا أننا نكشف فى آخر الزيارة أن الكسكسى قد وحشه خصوصا مع البط المحمر فى السمن .. ثم راح يحدثنى عن زوجة الناظر التى تحكم التفتيش وزوجة الباشكاتب التى تحكم البلد . وقال أن هاتين السيدتين هما كل شيء فى هذه الناحية كلها ولا سلطة تقف أمامهما فى المديرية ..

السبع ورقات المنجيات

الورقة الاولى :

جاءت الطبلية العريضةوتقرفصت أمامنا ، ثم تبعتها صينية نحاسية . أعرض منها . توالى دخول وخروج رهط من الرجال كل يعمل شيئا . كان ثمة « ريس »لهؤلاء جميعاً ، أخـــــذ يلقى الاوامر لهذا وذاك ، ويختصر طريق القادمين بالاطباق فيأخذها عنهم ويضعها بعناية . كانت طقوس الوليمة جديرة بأن تحظى بانتباهي ، لولا أن هذا الـ « ريس » شغلنى بكثرة النظرات الموجهة الى ، فلقد أحسست أنه يتصيد عينى ليركز البصر فيها بشكل بالغ الاصرار والالحاح ، وكلما وجه ملاحظة الى حامل طبق أعقبها بنظره الى كأنه يرينى مدى اهتمامه بى وبشهيتى .

رأيت أن أبدا معه حوارا ما • طلبت منه ان يدعو رجالنا للمجيء من خارج الحجرة والجلوس معنا فنحن جميعا واحد • ورجالنا الذين قصدتهم ليسوا سوى شرطيين ومخبر سرى ، وكانوا قد تخلفوا عند دخولنا المندرة تحرجا من الجلوس فى حضرة وكيل النيابة والمأمور وضابط المباحث فى غرفة واحدة . الا أن الرجل نظر الى نظرة أولاد ليل فاجرة ، ثم صاح قائلا مع هزة من يده :

ـ لاتحمل هم الرجال يابيك • فلهم طعامهم •• ثم انك صدقت فى أننا جميعا واحد •• تعجبنى والله ياسعادة البيك•

لم أسترح لمنظره أو لهجته • قدرت أنه يستهدفنى لسبب ما • ولربما أراد أن يبلغنى شيئا ولذا فهو يقوم بتوسيع الطريق الى • قررت بينى وبين نفسى أن أعطيه الفرصة ولكن دون أن أكون البادىء بها جهرا • قال شيخ البلد :

ـ تفضلوا يا أسيادى

ثم نظر الى المأمور • ونظر الى برجاء أن أتولى ايقاظه ،ففعلت، ورغم أنه كان جسدا ميتا لاحراك فيه يتصاعد منه فحيح أجوف مصحوب بقلاقل رعديه الا أننى ماكدت أشرع فى ايقاظه حتى رأيته ـ ولا أدرى كيف ـ قد تربع أمام الصينية قبـــــل ان أتأهب أنا للسير نحوها • حينئذ رمقنى شيخ البلد بنظرة ساخرة أرغمتنى على الضحك بصوت عال ••

تحلقنـــــا الصينية . شمر شيخ البلد ذراعه وضرب يده عدة ضربات هنا وهناك أفسد بها الاشياء فى الاطباق ـ اشارة للكرم ـ ثم حركها تجاهنا ، ثم قال بلهجة بدت لحظتها كايقاع موسيقى ثابت فيما بينهما على الدوام :

ـ بايدك ياحضرة المأمور

شمر المأمور ذراعيه ، دب يديه فى الأوزة الكبيرة المحمرة ونزل فيها تفسيخا وتفصيصا حتى خلص لحمها من العظـــام بدربة فائقة ، ثم هز يديه بحركة من ينفضها من المســـئولية ويعلن أن كل واحد مسئول عن الكمية التى يحتاجها •• ثم نشطت الملاعق كسيوف تنطلق من قلعة حصينه •

فى الحق كان من الطريف أن أستمتع بمشاهدة هــــذه

العملية التى يقودها المأمور فى استبسال كبير • لكن الرجل الذى يحوم حولى ويحاول أن يحكم السيطرة على انتباهى ارغمنى على مد جسر جوى بالغ السرية فيما بيننا • وكنت جائعـــا ، الا أن منظر المأمور وهو يبدو كمن ينتقم من عـــدو مجهول ، ومتابعة شيخ البلد له فى انتباه جعلنى أحس فجأة بفقدان الشهية •

نهضت واقفا . فى لمح البصر فقفز الرجل أمامى فى فـــرح صبيانى ووضع الفوطة على كتفى وتقدمنى قائلا :

ــ تفضل يابيك •

مضيت خلفه حتى نهاية المندره • وصلنــــا الى ركن قصى مجاور للباب حيث يوضع الطست والابريق • انحنى الرجــل متناولا الابريق . وانحنيت فتناولت الصابونة . راح يصـــب الماء على يدى فى احتراس شديد • أخذت أتلكأ حتى أعطيـــه فرصة لمحادثتى • فوجئت بأنفاسه تقترب مـــن رقبتى ، ثم بصوته يسرح داخل أذنى :

ــ انك طيب يابيك وابن حلال كما يبدو عليك ••

قلت :

ــ كتر خيرك ياعم •• انت الأحسن •

تلفت حواليه فى تلصص • مال على أذنى هامسا بصوت مرتعش ذى رهبة كادت تربكنى :

ــ أنا مختاح لك ياسعادة البيك •• محتاج لك •• أريدك أن تأخذ لى حقى من هؤلاء الكفرة .. ربنا بعتك لى ..ربنا فوق وأنت تحت •• أنا وقعت من السماء وأنت تلقفتنى •

اقشعرت رقبتى • ارتعشت قليلا :

ــ ما الحكاية بالضبط ؟

ــ لابد أن أجلس مع جنابك بعض الوقت •• لكى أحكى لك الحدوته •• اعمل معروف يابيك •• اقبل أن تجلس معى ولو برهة على انفراد •• ولا تجعل شيخ البلد يعرف شيئا ••

تشبثت بمظهر عدم الاهتمام • قلت :

ــ دبر لى لقاء بمعرفتك

همس فى أذنى :

ـ تعرف من الذى قتل « جمعة المؤذن » ؟
التصقت قدمى بالارض • ترنحت الافكار فى رأسى • خرج السؤال من صدرى كالفحيح :
ـ من ؟ ••
ـ انا ••
ـ أنت ؟ •• تقول أنت ؟ ••
ـ نعم أنا ••
هكذا ببساطة ؟ ..
خيل الى أن كل الدماء التى فى عروقى تصعد الى اذنى •• هل كان من الاوفق أن أصدر حكما بالقبض عليه فى الحال•• لقد خشيت أن يجىء ذلك على حساب كثير من المعلومات التى يمكن أن أستفيد بها • ان القضية الآن لم تعد مجرد قتل المؤذن « جمعة الحصاوى » ، انما هى قضية بلدة بكاملها تعرضت للسرقة دفعة واحدة فى بضع ساعات ، حتى حكامها تعرضوا للسرقة أيضا ، أو بهكذا زعموا ، والحق أننى لم أعد قادرا على تنظيم التحقيق ، على رسم هيكل شكلى له على الاقل فى رأسى ، فهل أحقق فى مقتل « جمعة المؤذن » ؟ أم فى السرقة التى تعرض لها الأهالى ؟ أم فى سرقة الحكومة نفسها؟ أم فى ضياع عرق الأنفار ؟ • المؤكد أن كل هذه الاشياء

متشابكة ، وأىطريق الى احدهايؤدى بالضرورة الى لب القضية برمتها ؟ . ولكن هل ترانى أترك هذا وذاك وأحقق فيما هو أدهى من ذلك •• وهو أن حكومة البلد نفسها متهمة بالسرقة أيضا ؟ ، وذلك من واقع الاوراق التى يضمها هذا الملف العجيب ؟ ••
مهما يكن من أمر فان هذا الذى أدلى بهذا الاعتراف الآن بهذه البساطة موجود تحت يدنا ويمكن التحفظ عليه ••

أعدت مسح يدى بالفوطة للمرة العشرين ربما • وسألته بسرعة وبصوت خافت :
ـ وقتلته ليه ؟ ••
ذاب جسده الفاره فى صوت باك حزين :
ـ منهم لله يابيك •• أوقعونى فى المصيبة من غير ثمن ••

ـ من هم ؟
ـ الاسطى فانوس ..
ـــ من ؟ ..
ـ الاسطى زفت .. بلامؤاخذه ..
ـــ الاسطى فانوس هو الذى جعلك تقتل جمعة المؤذن ؟
ـ هو ياسعادة البيك ..
ـ ما السبب ؟
ـ لا أعرف .. ولكنى قتلت
ـ ولماذا رضيت بقتله ؟
ـ الغلب ياسعادة البيك .. الدنيا الوسخه
أقبل المأمور كالعربة الكارو يزيق بحذائه الميرى ويزدرد بقايا الطعام في فمه . تذكرت أننى لم أعرف اسم هذا الرجل. قلت له قبل أن يبتعد خلف المأمور :
ـــ متشكر يا ..
ـ خدامك ابراهيم .. ابراهيم السيد عبده
ـ عاشت الأسامى ..
وعدت الى جلستى فوق الكنبة أحاول تجميع رأسى التى بعثرت .

الورقة الثانية :

انتصف الليل تقريبا ، بدأ شيخ البلد يفقد الامـــل فى انصرافنا ، وبدأت الحظ توتره الخفى ، وأدرك كم هو رجـل حصيف محنك ليس من السهل أن يهزم وليس من اليسير أن ينفعل . اعترت المأمور لحظة نشاط مفاجئة . راح يكثر من الوقوف والذهاب الى دورة المياه . أخيرا تربع بجوارى . همس فى أذنى قائلا :
ـ أظن القعدة وافقت هواك ..
لم أرد ، ربما لخوفى من التسرع فى الرد ، وأنا فى أعماقى ميال للبقاء ولا أريد اظهار السعى اليه . الا أنه عاجلنى قائلا كأننى وافقته على رأيه :
ـــ تعجبنى .. أنا أحب الشـــبان المفتحين مثلك وأحب الشغل معهم .. باخلاص ونية صافية ..
ثم صمت برهة وأضاف :

ــ ولا ٠ نظرتى ليست فى محلها ؟
أفهمته بحركة من رأسى أننى راض عن كل مايقول ويفعل، فانبسط وجهه واخضوضر شاربه فى ضوء وهج الوابور ذى الايقاع الهادىء الاليف . حيانى بهزة من رأسه كأنه يرحب بى لاول مرة فى حياته، وقال بصوت فيه غنــــة رجاليه ممجوجه :
ــيعنى ٠٠ صافى يالبن ؟ ٠٠
آثرت هز الرأس تجنبا للدخول فى كلام ٠ بحركة مسرحيــة متقنة زحف رأسه نحو شيخ البلد وضرب له حاجبه الأيمــن ضربة كدت اسمع لها صوتا ، ابتسم شيخ البلد كأنه يتنهــد بعد مجىء الفرح وانحنى فى جلسته تجاه الباب صائحا بلهجة آمرة مبتورة الايقاع :
ــ النار ياولد ٠٠

●●●

و ٠٠٠

تهت . لا أدرى كيف تربع « المنقد » والتفت حوله كتيبــه من الحجارة صفت على رقعة عريضة من الخشب ٠ كنت قــد سرحت سرحهفارغة من المحتوى٠لمأفقالا وظلعودغليظيزحف على الحائط المجاور لى . كانت بوصة الجوزة تلمس شفتى . أعتذرت ٠ فلما انزعج المأمور من اعتذارى أبديت عدم اعتراضى على مايفعلون ، وسحب « ابراهيم » الجوزة من شفتى المأمور وغمز له قائلا بلهجة ذات معنى :
ــ ايه رأيك فى التعميرة دى ياحضرة المأمور ؟
كتم المأمور نفس الدخان فى منخاريه وسربه على مهل ،وقال كأنه على علم سابق بها :
ــ جميلة فعلا ٠٠ بس ياخسارة ٠
ونظر لى ابراهيم وغمز بعينه .ويبدو أن المأمور لحظه،فمال نحوى قائلا :
ــ تعرف تعميرة من هذه ؟
ــ لا والله لم يحصل لى الشرف ..
ــ هذه هى تعميرة الحاج سليم .. التى كانت فى حقيبته.

ـ الحقيبة المسروقة ؟
ـ اسم الله عليك ••
ـــ !! •• !!! •• !!! ••
ثم انفجرت ضاحكا • لكنني لم أستطع منع نفسي مـــن السؤال :
ـ وكيف وصلت اليك ياحضرة المأمور ؟
فأشار بيده وهو يقتطع التعميرة بمزاج ويضعها فـــوق الحجر :
ـ البركة فى شيخ البلد ••
ـ شيخ البلد ؟
ارتبك شيخ البلد ، تململ ، قال فى هدوء منقطـــع النظير •
ـ أنت الآن ياحضرة المأمور ستجعل سعادة البيك يشـــك فينا بحق وحقيق •
قلت بلهجة حاولت ألا تكون جادة :
ـ أنا أحب أن أعرف كيف حصلت على هذه التعميرة ؟ ••

الجيدة ••
أشار بدوره الى ابراهيم ، قال :
ـ هذا الولد الملعون •• أصله كان حاضرا ساعتها ••الحاج سليم أعطاه تموينه ••
ـ أنت اذن تعرف الحاج سليم جيدا يا ابراهيم ؟
نهض ابراهيم ، راح يسيخ الجوزة ويدلق ماءها الاصـــفر على الارض :
ـ لا وأنت الصادق ياشيخ البلد •• الذى أعطانى التموين هو الاسطى فانوس ••
ـ أعطاها لك من جيبه ؟
هكذا قلت بسرعة • فرد ابراهيم :
ـ ليس فى جيبه شىء طبعا •• لقد فتح الحقيبة وأخرج منها كيسا •• أعطانى منه قطعة وشال الباقى تحت فخذه ••
ـ معنى ذلك أن الحقيبة كانت ملانه بالحشيش والأفيون ؟
ـ لم أر •••

ـ تقول أنه فتح الحقيبة أمامك ..
ـ لم يفتحها .. قل أنه رفع الغطاء وسرب يده الى داخلها ثم أخرجها بالكيس .. فلم أر مابداخلها .. الحق لله ..
ـ وأين وضع الحقيبة ؟
ـ مكانها فى الحجرة .. فى دار العمدة ..
ـ وأين كان العمدة ساعتها ؟
ـ كان حاضرا أيضا ..
ـ والحاج سليم ؟
ـ كان موجودا هو الآخر ..
ـ وكان يوافق على مايحدث ؟
ـ وماله هو ؟ .. يوافق أولا يوافق ؟ ..
ـ ان الحقيبة حقيبته ..
ـ لم تكن حقيبته .. الاسطى فانوس أخرج الكيس من حقيبته هو ..
ـ الاسطى فانوس هو الآخر له حقيبه ؟
ـ طبعا .
ـ سرقت هى الأخرى ياترى ؟
ـ الله أعلم .. السرقة هذه .. الله أعلم بها ..
ـ لكن لماذا يعطيك الاسطى فانوس هذا الكيس ؟
ـ كل واحد يشتغل فى المشروع يأخذ حقه ..
ـ أى مشروع ؟
ـ مشروع النقل ..

ثم ضحك عاليا وبطريقة ضايقتنى . تمنيت لحظتها أن يكون هذا الحوار فى حالة رسمية ، اذن لأمرت بضرب ابراهيم حتى يبين له أصحاب . الا أننى حاولت كتمان ضيقى ، وقلت مجاهدا ألا أكون خشنا أورسميا :

ـ مشروع ماذا ؟

شوح شيخ البلد . وقال :

ـ هذا الولد الملعون كان قد وقع فى فخ العمدة والاسطى فانوس ..
ـ بمعنى ؟

ـ قل يارب ••
فقلت : يارب • وأحسست أنني سأفقد عقلي حتما ان استمر الوضع هكذا ، بل وندمت لأني تنازلت عن هيأتي الرسمية ، لكنني مالبثت أن صبرت نفسي قائلا لها ربما كان هذا طريقا الى المعرفة فلنستمر الى النهاية • ثم سيطرت على فكـــــرة الانفراد بابراهيم ••
واذا بالمأمور يقول فى تشف :
ـ قل له يا أبا خليل على الحقيقة ولا تخش شيئا •• قل لسعادة البيك حتى يعرف أننا غلابه ونشتغل لحســـــاب الآخرين •
وضغط على « الآخرين » • فقال ابراهيم :
ـ ان الحكاية معروفه من طقطق لسلامو عليكم •• ولابد أن سعادة البيك يعرفها هو الآخر •
هززت رأسي بالنفى • ابتسم المأمور فى خبث :
ـ ان سعادة البيك حديث التخرج ولايعرف هذه الحكاية •
قال ابراهيم :
ـ كل الدنيا تعرف •• حتى الاطفال •
صرخت :
ـ تعرف ماذا •• تكلم •
ـ ياسعادة البيك •• الحشيش الذى يضبطه رجال الحدود بالاطنان « اين يذهب » ؟
قلت منفعلا :
ـ تحرقه الحكومة طبعا •
فنظر شيخ البلد الى المأمور وهو يشد الانفاس بعمق • وقال ابراهيم :
ـ لا •• انها لاتحرق الاشيئا ضئيلا •
ـ والباقى ؟ •
ـ رزق الهبل على المجانين ••
وضحك ضحكة مكتومة •• وأكمل المأمور :
ـ رتب كبيره ياسعادة البيك •• كل واحد يأخذ حقه •
ـ ماذا ؟ •• ماذا ؟

ـ انك مازلت شابا شريفا وفقيرا .. ربنا يكرمك .
ـ وهل يشربونه كلهم ؟
قال ابراهيم :
ـ يوزعونه يا سعادة البيك على من يبيعه لحسابهم ..و..
يوفرون له الحماية والأمن .. وآهى ماشية يا سعادة البيك .

لمعت فى عينى المأمور جمرات متوهجة بالخبث والتشفى .
ثم قبل يده وجها وظهرا وقال :
ـ ربنا يغنيها بالحلال .

●●●

فكرت فى الذهاب الى دورة المياه بهـــــدف أن يصطحبنى ابراهيم اليها فأتكلم معه قليلا . غير اننى ماكدت أبدى الرغبة حتى وقف شيخ البلد بنفسه وقال :
ـ تفضل سعادتك .
ومضى أمامى .
صحت احتج على تعبه وأطلب الاكتفاء بابراهيم . فلم يوافق فأقسمت ان يعفى نفسه ، واقسم ان يصطحبنى ، واقتــــرح المأمور أن تجىء دورة المياه الينا . أخيرا لم استطع التراجع .
جنون التفاصيل يربكنى ويوقعنى فى كثير من الحمق بلاشك .
أحس أنه يجعلنى مسخا مجنونا مثيرا للضحك .

مضى شيخ البلد أمامى ولحقت به . توقفت على عتبة المندرة حتى ظهر ابراهيم فى الدهليز من كوعة جانبيه حاملا مصباحا أشار به الى فذهبت اليه . فاذا بهذه الكوعة تعريشة ضـــيقة مسقوفة بالبوص ، تتصاعد منها رائحة نتنه . قال ابراهيم :
ـ خل بالك يابيك .. فتحــة الكبنيه عـــلى اليمين وانت داخل .
رغم أنه علق المصباح على الحائط وخرج ساحبا البــــاب الصفيح خلفه الا أننى لم اتمكن من حفظ توازنى فى جلستى المتقرفصة ، وحين تبين لى اننى اعانى من عدم التوازن أدركت مدى سخف المحاولة لاننى اساسا لم تكـــن بى حاجة الى دورة الميـــاه .
طرقات على الباب الصفيح أفزعتنى . ثم وورب البــــاب ،

وامتدت ذراع وضعت أمامى ابريق الماء . صعدت نظراتى من الابريق الى الذراع الى الفراغ الموارب فوجدت وجها خيل الى أنه معلق فى الظلام تلمع فيه عينان لوزيتان حادتان انتفض جسدى وسقط من مؤخرتى صوت قبيح طويل النفس . حينئذ ارتج الباب ثم ارتجت التعريشة كلها بصوت ضاحك ، وصار الوجه المعلق فى الهواء يرعد بضحكة متواصلة ويرتج مثل كرة من المطاط . اختل مابقى من توازنى وأحسست اننى مهـان . لكننى افتعلت ابتسامة ، على أن صوت شيخ البلد خـرج من الوجه المعلق فى الهواء قائلا وهو يحاول التقاط الانفاس من فرط اللهاث :

ـ يا سعادة البيك .. أنت من غير مؤاخذه لم .. لم تخلع البنطلون .

انتفضت واقفا . تحسست أفخادى بحـركة لا ارادية فى فزع لا ارادى أيضا نعم ، لم أكن قد اسقطت البنطلون .. قال شيخ البلد :

ـ ماذا اذن لو كنت شربت ؟.

رحت أفكر فى اعتذار يمكن الاستماع اليه . لكن شـيخ البلد فتح الباب عن آخره ، فخيل الى أنه قد هتك كل أسرارى. رفع المصباح وتقدمنى قائلا فى خبث شديد :

ـ تفضل تفضل .

فخرجت صاغرا .

●●●

دخل بى حجرة صغيرة ، بها سرير ذو عمدان صفراء . بجواره كنبة عريضة ينام فوقها صبى صغير . جلست حيث أشار لى . قال وهو يتهزز أمامى مثل ذئب لئيم اننى يجب أن أعتبر البيت بيتى وأتصرف كما يحلو لى . فقلت : طبعا طبعا . نظر فى عينى متراجعا بذقنه الى مستوى صدره مما أنبت له ذقنا ثانية وثالثة وعديدا من ذقون صغيرة آخذة فى التضاؤل . قال كما يخاطب المتهمين :

يابيك أنت ممتنع عن الصراحة .. لماذا ؟ .. من ناحيتنـا فقد فتحنا لك قلبنا .. ألا تفتح قلبك أنت أيضا وتجعـل المسألة أخوية ؟

وجدتنى أؤكد أننى بالفعـــل قــد رفعت الكلفـة بينى « وبينهم » وسألته ببراءه : « ولا أيه » ٠ فهز رأسه موافقــا ولكن فى خبث عميق : « طبعا » ثم أضاف باسما :

ــ الصوت الذى سمعناه منذ قليل تستطيع أن تعيده عـلى راحتك ٠

فتساقط العرق فوق جبيني والتهب رأسى ٠

ــ تستطيع اذن أن تشرب هذه السيجارة الحلوه ؟

لم تكن سيجاره ، انما كانت خابورا فى حجم الاصبع الكبير قلت له أنني حقيقة لا أشرب هذا الشيء ولا أنوى أن اجـــربه لاعتبارات صحية ليس اكثر ٠ وقلت له ايضا اننى اشكره على كرمه ، فأخرج من جيبه علبة من الصفيح نزع منها مســمارا مبططا غمسه فى جوفها فعلقت بهقطعة من عجينة بنية اللون أغلب الظن أنها أفيون ، قدمها لى قائلا فى رجاء :

ــ اذن فهذه اللحسة على لسانك ٠

تراجعت بفمى جزعا مشمانطا ، فزحفت يده باصرار :

ــ ستفرفشك وتنعشك ٠٠ وتجعلك آخر « فللى » ٠٠ وتظل مفنجل العين حتي صباح بعد غد ٠

وقربها من شفتى :

ــ لاتخف ٠ انها أفيون خام ٠٠ من نوع فاخر ٠

فتحت فمى لاتكلم ، فاذا بالقطعة فوق لسانى : ومن يدرى ربما كنت فى أعماقى أريد تجريب هذا النــوع من المكيفات ٠ قبل أن تنفحر الدماء من وجهى أسرع بالقلة صائحا منذرا :

ــ لو بصقتها يجيئك مغص مؤلم ٠٠ ابلعها وأمرك لله ٠

وكنت بالفعل قد بلعتها دون أن أدرى ، وأحسست أن مياه البحر كلها لن تغسل عن حلقى الشعور بالغثيان ٠

الورقة الثالثة :

من لى بالفاظ تصور حقيقة الحال التى وصلت اليها بعــد كوب الشاى الرابعة ؟ والتي فتحت شهيتى للسجائر والحديث فجأة انتبهت فاذا أنا فى حالة من الصفاء لم أشعر لها بنظير فى

حياتي . كل شيء في نظري وعقلي ووجداني وحولي متوافق متوائم لا غبار عليه .. أي هدوء ذلك الذي حل بأعصابي ونفث في عروقي دما ساخنا يتصاعد ليدفق في رأسي ، لكن شيئا من دفق الافكار اللامعة والخواطر الثمينة لايستقر في رأسي الا ريثما تتدافع موجاته لتسقط في آبار مجهولة من راسي . لكنني مع ذلك مستريح البال كأنني قد خرجت من الدنيا ظافرا مؤديا جميع الحسنات والفروض والواجبات على أكمل وجه .. طرائح السجائر تتكوم أمامي وتنفذ ثم تتكوم من جديد وأرى أن أي شيء ماعدا الاستمرار في الشرب سخف لاموجب له ..

فجأة دخل المخبر السري في صحبة « ابراهيم » . دهشت فلعلني قد نسيت الهيئة المصاحبة لي . تقدم المخبر السري مني ثم همس في أذني :

— اثنان يقفان خارج الدار يتسنطان .. جناب المأمور يقول لحضرتك هل نقبض عليهما ؟

لا أدري لماذا نظرت الى شيخ البلد . هل تراني كنت استنجد به واستغيثه فيما يجب علينا أن نفعله ؟ . معنى ذلك أن شخصيتنا قد بهتت ولم يعد لها لزوم ، لكنني لم استسلم لهذا الخاطر وان كنت أومن أن شخصيتنا باهته من الاساس منذ أن استعانت الرتب الكبيرة بمن يبيع لها نصيبها من الحشيش المضبوط ، ولقد أيقنت أن وجودنا الودي يمكن أن يكون بديلا لقوة السلطة فينا ، ذلك أن قوة سلطتنا — أيضا — لم تعد بذات بال منذ أن تهنا في التحقيق وتضاربتنا أمواجه الهادرة ، كما وأن أحدا من المسئولين الكبار لم يهتم بهذه القضية أدنى اهتمام ، ولولا حماسي انا الخاص لمعرفة اصولها ودراستها لكان من السهل كلفتة التحقيق وتقفيل موضوعاته بأي شكل ويادار مادخلك شر . ثم ، لعلنا بوجودنا البسيط يمكن أن نحقق مالم نحققه بوجودنا المركب .

تلقف شيخ البلد نظرتي واستفهم مني عما اسر به المخبر السري ، فأخبرته بالخبر . فهز رأسه بحركة العارف بالامور

لكن صفحة وجهه انقلبت فى الحال ، ثم هز رأسه مرة أخـرى هزة حاسمة وقال :
ــ اقبض عليهم ٠
ثم اقترب مني وهمس بحروف متآكلة :
ــ العمدة مازال موقنا أننى تصرفت فى الحقيبة ٠٠ وأننى الان .. عدم المؤاخذة .. احاول أن أشترى سكوتكم ٠

قلت له اننى اريد أن اتفاهم معه فى هذه النقطة بالذات ٠ فقـال :
ــ وماله يا سعادة البيك ؟
واشعل لى سيجارة ٠ نفثت الدخان وقلت له :
ــ الآن وقد صرنا اصدقاء أريدك أن تكون صريحا معى كل الصراحة ٠
اقترب مني ٠ أومات للمخبـــر السرى بأن يقبض عـــلى الشخصين ٠ قال شيخ البلد :
ــ لا أكذب عليك ٠٠ العمدة والاسطى فانوس اتفقا معا على أن يسرقا الحقيبة ويهرباها ٠
ــ كيف عرفت ؟
ــ كل شيء كان امامى ٠
ــ وأنت ٠٠ كنت توافق ؟
ــ أنا كنت أقعد معهم فقط ٠٠ انما ورأس أبى ما وافقت ٠
ــ وقلت لهم انك غير موافق ؟

ــ لم أقل ٠٠ لكن لم أقل أيضا أننى موافـــق ٠٠ اى والله ما قلت ٠
تذكرت ما قاله شيخ الخفراء فى التحقيق من أن شيخ البلد أمره بتسريح الخفراء فى تلك الليلة ٠ ولكنى جاهدت الا يبدو على وجهى شيء من ذلك ٠ جاملت شيخ البلد بأن قلت :
ــ العمدة رجل وسخ ٠

فتهللت أسارير شيخ البلد وتقافز الفرح على وجهه واندمج فى ضحكة جبورة بدا خلالها كطفل عجوز ٠ وأشار بيده فى الهواء كأنه يقول : أعد ٠ الا أنه قال وهو يكح بشده :

ـ أى والله صدقت ٠

ـ ولماذا فكر فى سرقة الحقيبة ؟

ـ يقول لك : الحاج سليم هذا رجل مفترى .. عمره ما أعطى للانفار حقهم ٠

ـ والعمدة ·· يريد الانتقام للانفار بسرقة الحقيبة ؟

ـ يقول : اننا نخدمه كثيرا وهو يغلق مخه ·· لايبز بشىء ·· يضحك علينا بالتعميرة ·· كل واحد كيس حشيش وانتهينا .

ـ هل الحاج سليم تاجر مخدرات كبير ؟ ·· مهرب مثلا ؟·

ـ لا ·· كما قال الولد ابراهيم ·· انه يوزع فقط لحساب بعضهم ٠

ـ وما نوع الخدمة التى يؤديها العمدة ؟

ـ أول هام .. يخيف الانفار من شكوى الحاج سليم .. فالخفراء أفهموا الانفار أن الحاج سليم حماية ، وجبار ، ومن يشتكيه يروح فى داهيه ٠

ـ يعنى بيعملوا ارهاب للانفار ٠

ـ العمدة هو الذى يعمل ·· الخفراء أنفسهم يصدقون ·· مثل الانفار ٠

ـ والانفار يصدقون ؟

ـ يصدقون وفى نفس الوقت لايصدقون ·· والمهم أنهم لايشتكون ٠

ـ شىء غريب ٠

ـ ثانى هام ·· العمدة كما سبق أن قلت لحضرتكم يخدم الحاج سليم فى حكاية التوصيل ، التى تتكرر كل مرة ٠

ـ انك لم تقل لى شيئا كهذا ٠

ـ لابد أنى نسيت ·· لكن أنا الآن أفتح لك قلبى ·· أعلم يابيك اننى أول من يتمنى ظهور هذه الحقيبة ·· اذا كنتم مشغولين بأمرها قيراطا فأنا مهتم به أربعة وعشرين ·· اننى أنا الذى سرقت ولا أحد غيرى .. حقيبة مثل هذه بها كل هذه الكمية من الذهب الاخضر تضيع من يدى هكذا عينى عينك ·· أخشى ان أموت بحسرتها ٠

ـ لكنك سبق أن قلت : المشروع ٠٠ ثم قلت الآن التوصيل ٠٠ أرجو التوضيح ٠٠

ـ المشروع هو مشروع النقل كما قلت لحضرتكم ٠٠ يعني التوصيل كما قلت الآن ٠٠ أى ان الحاج كان يجعل من بيت العمدة مركزا ٠٠ والواقع انه من شدة خبثه ولؤمه ٠٠ العمدة يعني ٠٠ كان يستغفلني ويجعل من بئري هذا مخزنا ٠٠ كان يدبر الخطة من وراء ظهري هو والاسطى فانوس ٠٠ ويقول لي: هناك امانة نريد حفظها عندك في البئر عدة أيام .. من عبطي أوافق ٠٠ ويضعون الامانة في العادة تكون جوالا أو جوالين أو صرة مثل صرة الهدوم .. لم أكن في العادة أعرف ما فيها يعلم الله، ولكن ٠٠ هذه الحقيبة علمتني أن في الامر مكسب كبير ٠ ٠ المهم أن العمدة كان يرسل كل حين من يفتح البئر وينزل بداخله ويغلق على نفسه ثم يخرج حاملا شيئا ما ٠٠

ـ نرجع للاتفاق الذى تم بشأن سرقة الحقيبة ؟٠٠

ـ نعم ٠٠ ظن الوغد أنني معهما في العملية ٠٠ نقبهما جاء على شونة ٠٠

ـ هل العمدة وحده هو الذى يتهمك بالخيانة ؟

ـ سترغمني يابيك على الاعتراف ثانية ؟ ٠٠ ولكن لايضر ٠٠ انني صاغ سليم ٠٠ أصل الحكاية ان العمدة بعد أن تم الاتفاق على أن نقوم نحن الثلاثة بتهريب الحقيبة ٠٠ عاد في المساء وانفرد بي في ركن بعيد ٠٠ وعرض على أن نقوم أنا وهو فقط بتهريب الحقيبة من وراء ظهر الاسطى فانوس ونفوز بها وحدنا .

ـ ألم تفكروا في عاقبة الامر ؟

ـ اننا ٠٠ أقصد العمدة والاسطى فانوس ٠٠ كنا نعتقد أن البلدة في الصباح ستتعرض للسرقات ٠٠ بسبب وجود الانفار ٠٠

ـ هل الانفار يسرقون بالفعل ؟

ـ المعروف انهم يسرقون ٠٠ وكل مرة يتم القبض على مجموعة منهم ٠

ـ المهم ·· اتفق العمدة معك على ··
ـ لكننى لم أوافق طبعا ·
ـ هل قلت له ذلك ؟··
ـ فى الواقع هززت رأسى فقط ·· فلعله تصور أننىأهزها موافقـا ·
ـ ولماذا لم تقل له انك لاتوافق ؟
ـ المفاجأة ألجمتني ··أوقفتلساني يابيك ·· ولهذافالعمدة يتصور اننى نفذت رغبتهوقمتبتهريب الحقيبة ثم طمعت فيها وأنكرت ··
ثم يتنهد بحركة مسرحية متقنة ، وقال :
ـ اقبض على الكلاب الذين يقفون خارج الدار ليعرفوا اننى سـليم ·

يبدو أن كثرة التفاصيل مثلها مثل قلتها تماما ·· فى الاول كانت التفاصيل كالمصابيح نضىء امامى الطريق الى الحقيقة ، ولهذا أحببت التفاصيل واستهدفتها ولـكن هأنذا اغـرق فى التفاصيل المتضاربة فلم أعد أعرف خلالها طريقا · انها تبدو لى مثل ركام من الظلام ، ربما كانت حـزمة من الاضواء الباهـرة سلطت وهجها على عيني فلم أعد قادرا على رؤية شىء ، حتى هذا الرجل الذى يجلـس أمامى ، لم أعـد قادرا على معرفة حقيقته بالضبط : هل هو عبيط ؟ أبله ؟ خبيث ؟ شرير؟ كلما عاملته على انه أبله يتضح لى فى اللحظة التالية أن الابله الحقيقى هو أنا · وكلما احتشدت له باعتبـاره خبيثـا شريرا فاجأنى بأنه عبيط ·· انه فيما يبدو خليط متنافر من الخبث والبله والمكر والشر ، مناور مداور مخادع لايستهان به ·

الورقة الرابعة :

حتى هذه اللحظة لاأستطيع أن أتصور ماحدث على حقيقته · فى الواقع لم آكن أتخيل مطلقا أن يحدث ماحدث ·· فىالبداية خيـل الى أن حالة الصفاء الشديدة التى اعترتنى قد بلغت من

العذوبة والرقة أن جعلتنى أرى فى لحظة واحـدة مالم يكن من الممكن رؤيته فى سنوات ٠

فجأة دفع المخبر السرى بأحد الشخصين فمثـل أمامى فى حـركة تمثيلية وراح يوهمنى أنه من فـرط الغلب يكاد يركع أمامى ٠ دققت فى ملامحـه برهة فارتجفت كـل عروقى ٠ ولما نكس رأسه فى الارض ليخفى ملامحه كنت قد تأكدت تماما من حقيقة شخصيته ، وسيطر على جسدى خدر لـــذيذ نظرت الى المخبر الذى كان ماثلا بالباب يستعد للانصراف وسـألته وأنا أعنى هذه لالفاظ بالتحديد :

ـ أين الحمار الثانى ؟

ابتسم المخبر السرى رغما عنه وأضاف ساخرا دون قصد :

ـ دول طلعوا تلاته يابيه ٠٠

ـ حلو ٠٠

هكذا صحت ، ثم أضفت مثل أولاد الحظ :

ـ ليلتنا أنس ان شاء الله ٠٠

وأحسست أن غلافا من الخجل البسيط يغلف وجه الرجل المقبوض عليه وبدا انه يريد أن يستدركنى بقول ما ٠ برق فى ذهنى خاطر تخيلت معه صورة الحمار الثانى الذى ان كان هو حقا اكتملت الصورة ٠٠ ناديت :

ـ أحضرهم جالا ٠٠

ضغط المخبر السرى على شفتيه السفلى كأنه يغمزنى ، وأشار الى الداخل :

ـ موجودين يابيك ٠٠ مع حضرة المأمور ٠٠

ثم اقترب منى وهمس فى أذنى :

ـ أصلنا عرفناه ٠٠ مقدرش ينكر ٠

ـ همست :

ـ من ؟

ـ حضرة العمدة ٠٠

ولم يقاوم الضحك ٠٠ أنا نفسى أفلتت منى ضحكة سوقية جدا لاتليق برجل مثلى ، لكننى ـربما لكى أمسح أثرها الانفعالى

المفاجىء ــ صرخت بأعلى صوتى، ومن أعماق الكبرياء السلطوى الأجوف :

ــ قل للمأمور يقبض عليه رسميا •

واذا بالمأمور يدخل :

ــ لا لزوم للانفعال يابيك •• أنا من نفسى عملت الواجب ••

ثم اقترب منى :

ــ لا •• اننى أعجبك •• أعمل كل حاجه نعم •• لكن ساعة الجد جد ••

ــ وأين هو ؟

ــ حبسناه ••

ــ أين ؟

ــ فى البئر •

ــ البئر ؟ !

ــ نعم يابيك •• حضرتك لاتعرفنى جيدا كما يبدو

لو قرأت هذا فى قصة لاشعلت النار فيها وقلت : اسفافه ومهما يكن من أمر فان جنون التفاصيل لم يعد جنونا بل صار واقعا • لم أعد أبحث عن التفاصيل انما صــارت هى تتــدفق عــلى ••

ــ أقعد ياحضرة المأمور ••

جلس • استدرت الى الشخص الواقف :

ــ أنت يارجل •• اخلع هذه البلاوى التى ترتديها واظهــر على حقيقتك •

بنبرة خافته كأنه يلعب بآخر نفس فى صدره قال :

ــ أبدا والله يابيك •• أنارجل عرباوى غلبان لا هناولاهناك •• الحظ الاسود هو الذى رمانى ولاأعــرف أى شىء •• انما كنت ألف حول البيت وكنت أريد أن أشرب •

أشعلت سيجارة • قلت بصوت عال انه ليس من الغريب أن ينجحوا فى حياتهم ويصيروا ذوى أملاك ومناصب طالما أن لديهم هذه القدرة على التمثيل • فلم تتحرك عضلة واحدة فى ملامح صاحبنا ، فأحسست برغبة فى تعذيبه ، صرخت فيه آمرا :

ـ أدر وجهك للحائط
استدار بالفعل ٠
ـ ارفع يديك لفوق ٠
رفعهما ٠ استدرت الى المأمور :
ـ قل لى ياحضرة المأمور ماذا حدث فى غيبتى عنك ؟
فانتفخت أوداج المأمور وأحس بفرح كبير وشرع يحكى ٠٠

●●●

قال المأمور :
ـ كانت القعدة قد احلوت واختتمت على خير، وانزوى ابراهيم مع المخبر السرى فى ركن المندرة وتبادلا الهمس والايماء ، ثم غاب المخبر برهة وعاد ليهمس فى أذنى أن هناك شيئا غير طبيعى يحدث فى الخلاء ، فما كاد السيد ضابط المباحث يسمع ذلك حتى نهض وراح يمشى على أطراف أصابعه وخرج ، ثم غاب طويلا ، وسمعت صوت خفير مفاجئ تحت الشباك البحرى مباشرة يصيح مرتعدا :
ـ من هناك ؟
ـ ماذا تفعل عندك ياخفير ؟
ـ أمسك الدرك ياسعادة البيك ٠
ـ من أدراك اننى بيك ؟
ـ مادمت عند شيخ البلد تكون ٠٠
ـ تعال هنا ٠

وسمعت خطواتهما مقبلة ٠ لكن صوت الخفير كان يطن فى أذنى بصوت أعرفه جيدا ٠ فجأة دخل السيد ضابط المباحث ومعه الخفير . حمدت الله أننا كنا قد أنهينا «المسألة» ولم يبق من أثرها سوى رائحة ماء الجوزة وقليل من سحب الدخان . قال الضابط : «قف هنا ياخفير» ، ثم جلس بجانبى وراح يخاطبه ٠
ـ من الذى أرسلك الى هنا بالضبط ٠٠ ولماذا ؟
قال الخفير بصوته الذى أعرفه جيدا :
ـ لاأحد أرسلنى والله ياسعادة البيك ٠ ٠ أنا أمسك دركى ٠

ـ ودركك تحت الشباك مباشرة ياخفير ؟
فسمعنا في الحال صوت شخير عال ،أدركت انه ليس صادرا من جثة نائمة بحق ، انه صوت يمثل الشخير . أخذت أتحدث مع السيد الضابط بأى كلام ، فكف صوت الشخير ، فكففت عن الكلام ، فارتفع الشخير ثانية . فضحكت . اذ أن الرجل من فرط احساسه بالخوف من أن نراه خيل اليه أننا بالفعل نراه ، فراح يغطى نفسه بصوت الشخير .. كلها حركات قرعاء ولا نأكل منها كما تعرف . ولذلك خرجت . رأيت جسدا عملاقا ممددا على مصطبة تحت الشباك . عفقته من رقبته . لم يفلفص . أوقفته دفعته أمامى الى الداخل . وان هى الا برهة حتى دخل المخبر السرى بشخص منهم وقال السيد الضابط اننا يجب أن نبلغك ، فقلت له لا داعى لازعاج سيادتك فأنت مشغول فى التباحث مع شيخ البلد وعلينا أن نقوم بدراسة أمرهم فان وجدنا شيئا يستحق التبليغ أبلغنا به .

الواقع أن الامر بدا طريفا . فالخفير اياه منكس الرأس يرتجف . قمت لأعطيه التحية المناسبة . رفعت كفى ، انتفض الخفير ومد ذراعيه يحمى بهما وجهه صائحا يكاد يبكى ؟
ـ حاسب ياحضرة المأمور .. سأقول لك .. سأقول لك
صرخت فيه بغيظ :
ـ انطق بسرعة .. من أنت بالضبط ؟
بذلة ومسكنة أجاب :
ـ أنا .. أنا .. أنا العمدة ..

طار صوابى ياافندم وحلفت بشرف أمى ان أظل أعامله كخفير بل أقل . سحبته من يده الى الحديقة ومعنا ضابط المباحث . نزعت عنه اللبدة والبندقية وأوقفته على يديه ورجليه وأمرته أن يعترف بكل شىء دون لف أو دوران ، لكنه ، تصور ، أخذ يبكى مثل الطفل ، وقال أنه كان ينوى أن يعرف ما الذى سنفعله بشيخ البلد حينما نعثر على الحقيبة .. وسألته :
ـ أه .. بعنى متأكد أنت أن الحقيبة عند شيخ البلد ؟

أجـاب :
ــ طبعا .. مثلما أنا متأكد انك حضرة المأمور
ــ وان طلعت كذاب ياحلو ؟
ــ اشنقونى ..
ــ ايه .. نشنقك ؟
ــ أكلم حضرتك بقدر ما أعرف ..
ــ أتعرف أين يخفيها شيخ البلد ؟
ــ فى البئر طبعا ..
ــ عجايب .. ولكننا فتشنا البئر قطعة قطعة ..
ــ لايمكن .. هذا غير ممكن ..
ــ تكذبنا يارجل ؟
ــ ألم ينر لكم باللمبة فقط ؟
ــ كيف عرفت ؟
ــ أنا شفت كل حاجة ياحضرة المأمور.
ــ اذن فأنت خفير من لحظة ماحضرنا ؟
ــ انا خفير من قبل أن تتحركوا من المركز .
ــ ألك اخباريات يا ابن الــ ....
ــ لالزوم لهذا ياحضرة المأمور
ــ اخرس باضلالى يانصاب
ــ مادمت قلت هذا .. فراسى وألف سيف ان أريكم صــــدق كلامى ..

طيب . خلبك مع الكذاب الى باب الداركما يقولون . ويقول المثل : الجمل طلع النخلة .. اذن فهذا هو الجمل وها هى ذى النخله . وعليه بعثت المخبر السرى ليراقب شيخ البلـد ويبقيه مكانه حتى لايجيء أو يعرف شيئا مما يدور .

تقدم العمدة أمامنا حتى موضع البئر فرفع غطاءه بــــدربة واضحة ثم هبط الى الداخل ، وكان واضحا أن قدميه تعرفان مواضع نتوءات بارزة تستخدم كسلم سرى للصعودوالهبوط. تسمرت فى مكانى . لقد أشعل عدة شمعات كانت متناثرة فى عدد من الطاقات فى سفح البئر . لم نكن نرى من جسده الكبير سوى رأسه فقط وهو بأعماق البئر . فتح بابا جانبيا

ثم أشعل شمعة جديدة ودخل . غاب برهة طويلة تقطعت فيها أنفاسى مع الضوء العليل المتراقص . وأخير خرج العمـدة من الفتحة الجانبية وهو يبكي مرددا فى هستيريا :

ـ معقول ؟ .. معقول ؟ .. يا ابن الأبالسه .. تعملها فى .. أنت واعر الى هذا الحـد ؟ .. كنت أستهزىء بك .. لكنني ابن كلب لم أجد من يحسن تربيتى ..

وقعت الشمعة من يده فداسها فى غيظ ، ثم راح يصعد الدرج السرى ويتعثر ويسقط فيصرخ وينفخ من ألم ومن غيظ ولا يكف رغم ذلك عن السب :

ـ أنا أستأهل .. انتىعبيط .. لا أصلح للعمودية جنب هذا الداهية ..

ثم وقف أمامي منهارا :

ـ من حقك الآن أن تفعل بى ماتشاء.

ـ اخرس ياضلالى ..

ـ ضلالى ؟ .. على الطلاق الحقيبة كانت هنا .. انما .. انما .. هو شيخ البلد والاجر على الله .. كيف أتفقت معه ؟.. كيف وضعت يدى فى يده ..

ـ لاتخرف .. ما الذى بينك وبين شيخ البلد ؟.

ـ ياحضرة المأمور .. صدقنى ..

ـ مازلت تصر على ان الحقيبة كانت هنا ؟

ـ اننى أنا الذى وضعتها بيدى ..

دارت بى الدنيا يا أفندم . ابن المفضوحه هو الذى وضع الحقيبة فى البئر . فى حجرة مثل الفسقية . يعنى معترف بالسرقة .. هو يسرق ونحن ندوخ . أضاف العمدة :

ـ ألم أقل لك أننى طيب ؟ .. مثل الدلو اندلقت بمجرد أن لمسنى شيخ البلد .. ضحك على .. قال أننا نفعـل خيرا لوقمنا بتهريب الحقيبة فى عز الليل .. ياشيخ البلد عيب عليك لايصح أن نفعل هـذا .. ياعمدة صـل على النبى فالحاج سليم لاينفع معه غير هذا .. لماذا ياشيخ البلد ؟ .. لأنه لص ، طول عمرنا نخدمه ولا يضع فى عينيه حصوة ملح

.. ومالنا نحن ياشيخ البلد ، أنصير لصوصا على آخـــر الزمن ؟ .. ياعمدة لاتكن عبيطا ، ان سرقة مثل هذا تكــون حسنة من الحسنات لأن فلوسه كلها حرام في حرام .. تصور ياحضرة المأمور كيف أدخلها الرجل في دماغي حتى وافقت .. ولا أعرف كيف تحمست ونخثت بنفسي لوضعها والاطمئنان على مكانها .. كنت أريد أن أبعد التهمة عن بيتي .. فماذا بي أضع الأمانة في فوهة قبر .. أين خبأها بحق الله ؟ .. متى سربها ؟ .. انه اذن لساحر .. ماكنت أعرف أنه شيطان الى هــذا الحد ..

لصان كبيران أنتما اذن ؟ ـ هكذا قلت في نفسي ـ والله انى لمنتقم من جلد أبناء الذين خلفوكم ، هل يضيع تعبى هذا كله أونطة ؟ .. أكلف دماغي وتنسفوه ؟ . المهم ياأفندم حكمت على العمدة أن يهبط البئر ثانية ويحبس نفسه في الحجرة التى خبا فيها الحقيبة ، وحرسنا على فوهة البئر شيخ الخفـــراء نفسه ، الذى جيء به فورا من عقر داره ـ مضيبة أمه سوداء هو الآخر . والآن ها هو اللص الثاني، لابد أن يحبس مــع زميله في نفس الحجرة حتى تجيء الحقيبة من تحت طقاطيق الارض . من دوار العمدة نفسه سأبلغ اشارة للمركزينهضنا بقوة من الهجانه . أما صاحب الشخير العملاق فقد نجح حتى الآن في ادعاء الخرس . ولكن سوف يتكلم حتى لو كان أخرسا بالفعل . دعه الآن حتى أروق له مادمنا وضعنا أيدينا عــلى الفاعل الحقيقى ..

الورقة الخامسة :

تحول شيخ البلد الى جسد يتطوح مثل عود من الجريد تجتاحه رياح الخماسين . أخذ يفعل أشياء لايمكن أننفهمها . يصرخ يبكى يزغرد يشوح بيديه يضرط بفمه يشخر بأنفه .. يريد أن يرسم الجنون طبعا . كلمات تتساقط منه منغومة على شكل عديد الثكالى :

ـ يا غراب البين شحوالك .. ايش خلانا على بالك ؟

ثم تغير نغمة العديد الى ايقاع لطم الخدود :
ــ العمدة عايز يخرب بيتى لية •• العمدة خط الشنطه وبايديه •• ومن الكلام ده رح يجيله ايه ؟ ••

المأمور حقا لا يأكل من مثل هذا الكلام • قام فلوى ذراع شيخ البلد بعنف استغربته منه هو الذى أطاح بالأوزة منذ قليل •
قال شيخ البلد لاويا عنقه محاولاً أن يواجه المأمور :

ــ أنا •• أريد أن •• أقول لك ياحضرة المأمور •• لك حق تفعل بى هذا •• لكن •• أنا لست نذلا الى هذا الحد •• أنا عندى نظر .. لو كنت اخذت الحقيبة فعلا كنت .. أقصد كنت وفرت عليك هذا كله •• كنت •• انك لاشك تفهم قصدى •• سبق أن كنت رجلا مغك ونفذت كلامى وأعطيتك حقك ••
اشتعلت النار فى المأمور . بركبته دفع شيخ البلد فى مؤخرته فقلبه على وجهه • صاح شيخ البلد وهو ينهض :
ــ اخص على التربية ••
دفعه المأمور أمامه وخرج به • وجاءنى صوته من بعيد يأمره بالنزول الى البئر •• ورحت أرتجف وأنا أتسمع أصوات صراخ مكتوم تصل من أعماق حجرات داخليه بعيدة أو من فوق السطح لا أدرى ، ووضح فى أذنى صوت نسائى يصيح مولولا :

ــ يادى المصيبه •• خطوه روخر فى البير •• اللى سرق سرق واحنا نتحط فى البير .. منه لله الحاج سليم .. قبل مايتحرك من البلد بعت رجالته سرقوا الشنطه من البير ••ليه مايقولوش الكلام ده للنيابة ..

جالت بذهنى خواطر كثيره متضاربة ومتناقضة من الصعب الامساك بها ، وأحسست بميل لتصديق هذا الصوت • لكن ثمة إحساس بالخطر انتابنى . وكان من الممكن أن انهار بعد أن ارتفع صوتنا الى هذا الحد ، وبعد أن اعتدى سيادة المأمور على كل من العمدة وشيخ البلد فى عقر دارهما ، لولا أن دخل

المخبر السرى وأبلغنى أن السيد ضابط المباحث ·· بغداذنى ـ قد اتصل بالمركز وأبلغه بكل أسف عن الظروف طالبا منه قوة من العساكر للاحتياط ··

أمرت المخبر السرى أن ينزع الملابس التنكرية عن هـــذا الرجل ـ فما أن تقدم المخبر ليفعل حتى انتفض الرجل واقفا واقترب منى قائلا فى نبرة مرتعشة :

ـ ان الله حليم ستار يا سعادة البيك ·· حضرة جنـــابك عرفتنى خلاص ··

أمرته فى صلف أن ينطق باسمه · قال مترددا :

ـ ما ·· ما ·· حضرة جنابك عرفتنى ··

ـ انطق باسمك

ـ أنا ·· أنا الاسطى فانوس ··

ـــ أهلا وسهلا .. شرفت ياسعادة الباشا .

ـــ الله يشرف مقدارك يأسعادة البيك .

ـ شف يا أسطى فانوس ·· لن ينقذك سوى شىء واحد فقط ··أن تتكلم بصراحه ·· وتعترف بكل شىء ··و·· لاحظ أن كلام العمدة ليس كل شىء .. احتمال كبير أنه يهلوس .. يخرف ··

قال بعد تردد :

ـــ فـــ .. فعلا ياسعادة البيك .. العمدة يخرف .

ـ احذر أن تختلق كلاماتنجوبه ·· ففى هذه المرة ســـوف أسويك على الجنبين ·· حتى لو كان ابنك وزيرا ··

مال برأسه موافقا ، وأضاف :

ـ العمدة يخرف تخريفا جامدا ··

ـ كيف ؟

ـ انه رجل لئيم ·· يسوق العبط على الهباله ·· يريدبكل وسيله أن تفهم الحكومة أن واحدا غيره حصل على الحقيبة ··

ـ لكنه اعترف على نفسه ·· وسواء ضاعت الحقيبة منهأم من شريكه فان هذا لن يغير من موقفه شيئا ··

ـ غدا أذكركم أن محاميه سيعتمد على نقطة ما فى هـــذا

الكلام ويدافع منها عن العمدة ..
ـ أفصح عن غرضك ..
ـ أكبر دليل على كذب العمدة هو قوله بأن الحقيبة كانت في بئر شيخ البلد ..
ـ يقول أنه اتفق مع شيخ البلد على سرقتها .. وعلى هذا تم نقلها بمعرفته سرا من بيت العمدة الى بئر شيخ البلد ..
ـ كذاب .. كذاب في أصل وشه ..
ـ لماذا ؟ ..
ـ لأن الحقيبة كانت في بيتي أنا ..
ـ نعم ؟ .. ماذا قلت ؟
ـ أقول أن الحقيبة كانت في بيتي أنا .. ألا تصدقني ؟
ـ وهل يجرؤ مثلي على عدم تصديقك ؟
ـ ورأس أبي ياسعادة البيك أني أتكلم الصدق ..

لم أعد أثق في أنني متيقظ العقل . ان طاقات جبارة ترتفع رءوسها الان في أعماقي تبعث في نشـــاطا لا أدري من أين جاء . لكن جوا من أجواء الحلم يسيطر على كل شيء ، دائما كثيرا مانرى في الحلم أنفسنا في عشرات الامـــاكن بآلاف المشاهد فيما لايزيد عن بضع دقائق . وفي الحلم لانســـأل أنفسنا كيف حدث هذا أو كيف يمكن أن يكون . وانني اذ أكتب هذا التقرير ـ غير الرسمي وغير القانوني . والـذي سأصر رغم ذلك على وضعه في ملف القضية ـ لا أحس أنني قد أفقت بعد من هذا الحلم السخيف ، ولعلني في أعمق أعماقي لا أرغب في الافاقة منه ، ولعلني أحب الآن أن أضحي بكـل الصيغ القانونية في سبيل أن أذكر كل ماحدث بأمانـــة شديده ، كما حدث وبكل حذافيره حتى لو كان ذلك على حساب سمعة النيابة والبوليس ومظهرهما ..

وبعد ، يقول هذا الرجل المدعو بالاســـطى فانوس أن الحقيبة كانت في بيته هو ، مع أن البلاغ الذى قمنا على أساسه في البداية يقول أن الحقيبة سرقت من بيت العمدة .. وبالرغم من أن العمدة بنفسه عاد وذكر أنه سرق الحقيبة بالاشتراك مع شيخ البلد ، وأرشد عن مكانها .. فكيف انتقلت الحقيبة

من بيت العمدة الى بيت الاسطى فانوس ، وكيف تسربت من بيت الاسطى فانوس الى بئر شيخ البلد ؟ ٠٠ ثم كيف تسربت بعد ذلك من بئر شيخ البلد الى مكان مجهول ؟ ٠
هذا مايحاول الأسطى فانوس أن يجيب عنه ٠
قال الاسطى فانوس ٠

●●●

ـ أصل الحكاية يابيك أنك عدم المؤاخذة غير آخذ بالك مما حدث ٠ كيف ؟ ٠٠ أنا أقول لك : ليلتها شربت حتى تسلطنت تماما وأحسست أننى لابد أن أزوغ قبل أن أصير مضحكة القعدة ٠ لكن ٠٠ هل أقوم وأترك حقى ؟ ٠٠ نعم ان لى حقا ٠٠ أمرى لله سأقول ٠٠ كان العمدة قد اقترض منى ثمن ثلاثة ارادب من القمح ووعد بتسليمى القمح فى المحصول ٠٠ ومرت محاصيل كثيرة والعمدة « يطرمخ » وأنا أستعمل الذوق ، فأنا والله طيب وألتمس العذر للناس دائما ٠٠وكنت أشفق على العمدة وأقول ياولد ربما كان معذورا فاصبر عليه ٠٠ اما فى تلك الليلة فهاهى ذى الثروة تهبط على العمدة ، اذ أنه سيقبض من الحاج سليم نصيبه جزاء مساعدته فى تهريب الحقيبة ٠٠ قلأننى استأذنتلشم الهواء علىالسطح٠٠ جلست فوق خن الارانب وذاب رأسى فى ضوء القمر الذى لا أدرى لماذا أريد وجهه فى تلك الليلة هكذا ٠٠ فكرتكثيرا فى الكلام الذى ينبغى ان أقوله للعمدة ، وفى كيفية التصرف ٠٠ ويظهر أنى غبت عن القعدة وقتا طويلا حتى أن العمدة جاء وجلس بجانبى ٠٠ قلت : فرصة ٠ ولكن خطر لى شىء : لابد أن العمدة جاء ليفاتحنى فى الامر ٠٠ الا أنه قال بعد برهة :
ـ مالك ياخواجه ٠٠ بتفكر فى ايه ؟

وبالمناسبة ٠ المقربون منى ينادوننى بلقب الخواجه ، وهو لقب ربك والحق يسعدنى . على أننى فى تلك اللحظة صحت فيه مشوحا بيدى فى الهواء :

ـ لاخواجه ولازفت ٠٠ أريد نقودا ٠
زام العمدة :
ـ تريد مطالبنى بالثلاثة أرادب ؟

ـ ان جئت للحقيقة أنا ٠٠ أفكر ان اقترض منك مبلغـــا بسيطا ٠

ـ لا ٠٠ دعك من حكاية السلف هذه ٠٠ فأنت يمكنك ان تأخذ حقك جيدا ٠

ـ أنا فى عرضك ٠

ثم مال وإهمس فى أذنى :

ـ اريد أن أعرض عليك موضوعا ٠٠ اذا وافقتنى سنأكل الشهد معا ٠

ـ أى موضوع ياترى ؟

ـ انت تعرف أن هذا الرجل ضلالى وابن كلب لايعـــرف ربنـــا ٠

ـ أى رجل ؟

ـ الحاج زفت ٠٠ طول عمرنا نخدمه بلا ثمن ٠

ـ الموضوع ٠٠ ما الموضوع ٠

ـ تعرف أن البلدة فى الصباح سيتضح انهـــا سرقت ٠٠ الانفار هنا كما تعلم ٠٠ ما المانع أن الحقيبة تسرق مع البلد ؟٠

ـ وما المطلوب منى ؟

ـ نضع الحقيبة عندك ٠٠ فى بيتك ٠٠ فأنت بعيد عـــن الشبهات ٠

ـ وبعد أن تهدأ الامور ٠٠ نتصرف ٠

لست لصا والله يا سعادة البيك ٠ لكنى وجدتها فرصـــة ٠ وقلت لنفسى : آخذ الحقيبة عندى واتصرف فيها وحـــــدى ٠ وبالفعل نقلت الحقيبة ، ولكنى فى الصباح لم أجدها مكانهـــا وعرفت أن رجال العمدة عادوا فى الفجر ونقلـــوا الحقيبة الى بيته من جديد دون علمى ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠



الفصل العاشر :

الوعد والمكتوب

« يارب صبحنا صباح الخير »
« صباح خواجه ما عليه دين »
« يارب صبرنا صبر أيوب »
« وأيوب لما صبر وفى الوعد والمكتوب »

(أغنية للساقية)

— ١ —

هتف « عبد السلام » متلهفا :

— هيه ·· وبعد ·
وكان قد وقف ثم عاد يتقرفص أمام « طلعت » :
— أكمل ·· لماذا توقفت عن القراءه ؟
وقال « شيخ الغفر » بانفعال شديد :
— كنت لبيبا على طول ·· فما الذى أربكك وأوقفك ؟
وهنا قال « دياب » فى اعجاب وزهو :
— خل بالك ياطلعت ·
واذا بالجد « مهيوب » يهب قاغدا :

— طلعت لامثيل له فى العب كله ·· ها أنتم قد سمعتموه وهو يقرأ مثل اللبلب ·· والله مارأيت أحدا فى الدنيا يقـــرأ بمثل هذه الفصاحة ·· طبعا ·· أمه لم تشأ بهدلته فى الغيطان فتركته لحفظ القرآن والعلم منذ تحرك لسانه فى حنكـــه ·· ووالله لولا انه يريد أن يشترى لنفسه بذلة الشهادة الابتدائية لما تركناه يذهب الى الترحيله ·

وكان « الاعرج » قد فتح فمه فى بلاهة واخذ ينظر هنـــا وهناك . أما « عمرو » فقد راح فى شرود . وأما الانفار فـــان معظمهم قد تيقظ ، وقليل منهم كان قد فهم مايســـمع وراح يقول كلاما على الوجيعة · والاقل نطقت وجوههم بالفجيعه · واخيرا نظر « طلعت » اليهم فى حيرة ·· فصاح « عبد السلام» فى غيظ شديد :
— ما هذا الدلع الفارغ ·· قلنا لك اقرأ ·
قال « طلعت » :

ـ أقرأ ماذا ٠٠ لم يبق هناك شيء لم اقرأه ٠
انتبه الجميع وفزعوا :
ـ نفد الكلام ؟ ٠٠ أين بقية الورق ؟
قال « طلعت » كأنه يصفعهم على وجوههم بالصرمة القديمة :
ـ لقد أخذتم الورق ومسحتم به مؤخراتكم ٠
وجموا كلهم ٠
ـ كيف ؟ ٠٠ من الذى فعل هذا ؟
ـ أنتم ٠٠ كلكم ٠٠ خال الاعرج هو الذى نبهكم فرحتم تفعلون مثله ٠
ـ ولماذا تركتنا نفعل هذا ؟
هكذا صاح « عمرو » فجاءه بصوت باكٍ ٠٠ قال « طلعت » :
ـ كنتم تشدون المظروف من تحت رأسي وتأخذون الورق ٠٠ لولا أننى كنت أخبىء الورق الذى لم أقرأه ٠٠ وحتى هذا كنتم تسحبونه من تحت ثيابى وانا نائم ٠
قال نفر من الغرابوه :
ـ ياخسارة ٠٠ كانت حدوته مسلية ٠
ضحك « دياب » ٠٠ وقال « عبد السلام » :
ـ حدوته ؟ ٠٠ يقول حدوته ٠
رد « شيخ الغفر » :
ـ والله أكبر حدوته ٠
هب « عبد السلام » واقفا :
ـ انها قضية ٠٠ قضيتنا نحن ٠٠ فكيف تسميها حدوته ؟
ـ كل هذا الذى حدث ٠٠ ولاتكون حدوته ؟
ـ لكن ٠٠ ماذا جاء بقضيتنا فى ورق كهذا ٠٠ وكيف يجىء الورق الى الاسطبل ؟
ـ الاتكون قضيتنا ؟
ـ أقطع ذراعى ان ماكانت قضيتنا ٠٠ التى فى هذا الاوراق ٠
ـ يابنى آدم ٠٠ قضيتنا فى المحكمة ٠٠ فما الذى يأتى بها الى الاسطبل ؟
ـ حتى لو لم تكن قضيتنا فهى قضيتنا ٠
ـ ان دماغى سوف ينكسر ٠

ـ نريد أن نعرف ماذا تم ؟
ـ الذى تم أننا جئنا هنا .. الى الاســـــطبل .. وصرنا غرابوه .
ـ وجاءت قضيتنا معنا .. شيء غريب والله .
ـ وحقيبة الحاج سليم .. من الذى سرقها ؟
ـ نحن . .
ـ متأكد أنت ؟.
ـ هذا ماقالته المحكمة .. ثم حكمت علينا .
ـ هل قالت المحكمة هذا أمام عينيك ؟
ـ لا أعرف .
ـ والمكتوب هنا ؟
ـ حقيبة الحاج سليم .. التى هى عرق الانفار .. سرقها الحكام الاعيان .
ـ لا .. لقد سرقها الحاج سليم بنفسه .. أنسيت ؟
ـ نسيت ماذا ؟
ـ قالت الاوراق شيئا من هذا .
ـ هل قالت هذا حقا ؟
ـ أنا متأكد .
ـ أراهن .
ـ قالت .. قالت .. قالت .
ـ اقرأ لنا يا طلعت لنرى اهل قالت أم لا ؟
قال « طلعت » فى غيظ :
ـ لم يعد هناك ورق .. سوى ورقتين اثنتين .
ـ مصيبة سوداء .. كارثة .
قال وهو يتلذذ بأيلامهم :
ـ كنتم تسرقون الورق .. وتمسحون به مؤخراتكم .
ـ والله اننا لحيوانات .. بهائم .. كيف نفعل هذا ؟
ـ تسألوننى ؟
ـ نريد أن نعرف من الذى سرق عرق الانفار .
ـ نريد أن نعرف هل حكمت المحكمة علينا حقا أم لا ؟.
قال « طلعت » :

ـ هل ذهبتم الى المحكمة ؟

قال « عبد السلام » مشوحا بذراعه الطويلة المشعرة :

ـ مئات المرات ٠

ـ ونطق القاضى بالحكم أمامكم ؟

ـ هذا مالا نعرفه ٠

ـ لم ينطق ؟

ـ لا ٠٠ لقد نطق ٠

ـ ماذا قال اذن ٠٠ بالضبط بالضبط ٠٠؟

قال « شيخ الغفر » :

ـ لم نفهم كلام القاضى يومها ٠

قال « عمرو » :

ـ انك تنسى يا شيخ الغفر ٠

شوح « عبد السلام » :

ـ أنا أيضا نسيت ٠

قال « عمرو » :

ـ يومها قال الابوكاتو ٠٠

ـ كان مع الاسطى فانوس ٠

ـ وشيخ البلد ايضا كان معه واحد ٠

ـ والعمدة كذلك ٠٠

ـ لكن الابوكاتو ٠٠ قال يومها ان القاضى سينطق بالحكم فى المرة القادمة ٠

ـ بالضبط ٠٠ بالضبط يا عمرو ٠٠ قالوا لنا تعالوا فى الجلسه القادمة ٠٠ وأنا نفسى ذهبت الى الكاتب الذى يجلس بجوار القاضى ٠٠غير أنه لم يسمح لى بالاقتراب منه ٠٠ أعطيت بريزة يشتغل بها رجلان طول النهار للـــولد كاتب المحامى وبعثته لكاتب الجلسة يسأله ٠

فماذا قال لك ؟

ـ قال أن القضية تأجلت للنطق بالحكـــم ٠٠ ثم كتب لى ورقة صغيرة قال انها تاريخ الجلسة ٠٠ أين راحت ؟٠

وأخذ يبحث فى محفظته ٠ فلم يجد بها سوى ثلاثة اختـام مربوطة ببعضها فى فتلة دوبارة ، وقسيمة زواج ، وورقة قال

انها شرط ملكية.الدار التي نزعوها منه مؤخرا ولم تكـــف للسداد • وكانت عين « طلبعت » قد اتسعت وبرق فيها كلام كثير بعيد الغور ، لكن يبدو أنه لم يستطع الامســـاك به •• فقال في لهوجة :

ــ لايهم ياخال « عبد السلام » •• لايهم •• هذه الورقة لا أهمية لها •

شوح « عبد السلام » وزفر ، ثم دب المحفظة في جيبه •

ــ المهم •• هل ذهبتم الى المحكمة يوم جلسة النطق بالحكم ؟

ردت أصوات كثيرة :

ــ لا •• لم نذهب •• لم نكن نعرف •• لم يقل لنا أحد •

ــ كيف هذا ؟

ــ العمدة أرسل الينا الخفراء •• فلمونا من المنازل ••

ــ العمدة كان متهما هو الآخر .. فكيف هو الذى يبعث لكــــم ؟ .

ــ لكنه عمدة •• نعم انه متهم •• ولكنه عمدة ••

ــ فكيف اذن جئتم الى الاسطبل وصرتم أنفارا ؟ ••

ــ أخذنا الخفراء الى الدوار .. وكان هناك العمدة وشيخ البلد والاسطى فانوس وأفندية كثيرون لم نعرف من هم •• وقال العمدة أن المحكمة حكمت علينا جميعا برد ما سرقناه من الحاج سليم •• ثم صاروا بعد ذلك يأخذوننا ويتركوننا كل يوم •• ومن لم يستطع أن يدفع شيئا جاء الى هنا ليشتغل والحاج سليم يقبض يوميته ••

قال « عمرو » وهو يجز على أنيابه :

ــ ليتنى صدقتك ياطلعت من الاول

وقال « عبد السلام » :

ــ نحن نستأهل مايجرى لنا

قال الجد « مهيوب » فى تشف واضح :

ــ طبعا •• قضيتكم بين أيديكم •• تمسحـــون بهـــا مؤخراتكم ؟

ونفخ « شيخ الغفر » كل الهواء الذى فى صدره ، وزغـد الأعرج فى جنبه قائلا : « انزاح » • فقال الاعرج :

ــ مافعلنا شرا •• لقد كان ورقا •• وانتفعنا به

قال « طلعت » في استنكار :
ـ مسحتم به مؤخراتكم ..
قال « الاعرج » مستنكرا هو الآخر :
ـ ما العيب قل لى .. قبل مجيء الورق كنا نضع خراءنا تحت أقدامنا .. ها أنتم ترون الآن ان الاسطبل صار بلا رائحة نتنة .. انني الآن أنغى الهم .. ولا أدرى ماذاسأفعل بعد أن نفذ الورق .. ويكون شيخ الغفر رجلا بحق لو أعطانى الورقتين الباقتين لانى محتاج اليهما الآن ..
صرخ الجميع :

ـ والله نأخذ رقبتك قبل أن تأخذهما
وقال « عمرو » بحقد شديد :
ـ من أدرانى أن الاعرج لم يلف خراءه باسمى وعريضتى؟
فصاح « الاعرج » بنفس الحقد :
ـ ولماذا الا تكون أنت نفسك الذى لففت ؟ .. من ذا الذى كان يرمى تلك اللفة الكبيرة الساخنه ، يوم جاءت فى دماغ واحد من السائرين فى الشارع خبط لزق ووقعنا فى عرضه حتى تفوت الليلة على خير ؟ .. هيه .. قل ..
لكن « عمرو » انخرس . الا أنه صرخ فجأة صرخة مفجوعة، اذ كانت سنته قد غاصت فى لسانه . وعاد « شيخ الغفر » يزغد الأعرج ثانية فى جنبه قائلا :
ـ قلت لك انزاح .. انزاح ياوجه الخراب ..
أمسك « الاعرج » جنبه وصاح متألما ، ثم سب ديك القضية وكل من فيها . هجم عليه « شيخ الغفر » وبرك فوقه ، وظل يضربه حتى لم يعد فيهما نفس . ولم يجرؤ مخلوق على رفع صوته بالصراخ أو الصياح ، بل ان المتعاركين كانا يدقان عنق بعضهما البعض فى صمت ، ولا صوت الا صوت اهتزاز الجدران وزلزلة الباب والارض ..

ـ ٢ ـ

كانت فرقة العزيق قد انتهت من الشريحة الشرقية لحوض

السلكاوى ، وأمر الخلولى بأن ينتقلوا للتخليص على الشريحة الغربية لانهم فى هذا اليوم فقط عليهم أن يقطعوا « فرط » حوض السلكاوى بكامله . تقدم «القيده» حاملا فأسه على كتفه وخلفه صف من الانفار ينتهى « بالساقة » . على مقربة منهم مشى الخولى يجر ساقيه وبلغته القديمة ويطوح عصاه .. كانوا جميعا يمشون فى تراخ ليمنحوا ظهورهم فرصة للاعتدال من عناء الانحناء الطويل .

منظرهم لم يعجب الخولى . خيل اليه أنه لم يكن قد دقق فيهم جيدا حين تسلمهم ، ولو فعل، لما اكتشف الآن أنهم جميعا مصابون بالهزال أو العرج حتى « القيده » نفسه ذا قدم طبيعية والأخرى مكورة كالقنفذ بلا أصابع ولا كعب » أما « الساقه » فكان مريضا بالطحال وبعين واحده . قال الخولى لنفسه : «هذه فرقة لاتنفع للعزيق ولا لشتل الارز ولا حتى نقاوة اللطع .. من الجائز أن تنفع فى أى شىء أما العزيق فلا » . ثم بصق على الارض ، ولعن أب الرجل الذى لايسمى ، وزعق :

ـ أفرش لكم لتناموا ؟ .. يا أولاد الكلب يالمن لامازكة لهم ؟

وانهال عليهم بالضرب ..

صار كل منهم يدفع الآخر أمامه مهرولا ، وأيدى الفئوس تزغد الاكتاف من الامام وحديدها يصطدم بالوجوه من الخلف .. شيئا فشيئا بدأت المسافات بينهم تتسع . واذا بالكاتب قد خرج من بين أعواد التيل ووقف يتابعهم خلسه ويخيل اليه أنهم يرقصون رقصة همجية غامضة ..

ـ عال عال .. والله عال .. أليس عندكم رقص أحسن من هذا ؟ ..

هكذا صاح الكاتب متهللا ، ولكن بصوت فيه نغمة سابت لها ركب الجميع ، وارتبك الخولى وانهال عليهم بالضرب من « الساقة» الى « القيدة » صاروا يبرطعون تحت وابل العصى كالأغنام الهزيلة ، لكن الكاتب صرخ : « قفوا » فتسمروا فى أماكنهم يلهثون يلقطون النفس ..

تقدم منهم الكاتب والشرر يتطاير من عينيه :
ـ نحن حفاتينا بكمهاهنا لتشتغلوا لا لترقصوا على شاطىء القناة .. وما دمتم قلبتم المسألة رقصا اذا لابد وأن ترقصوا جيدا ... انكم فى النهاية لابد وأن تتقنوا شيئا .. أى شىء .. ولكن نكلم من ؟ .. نكلم من وأنتم جميعا زباله مقطوعو الحيل والقلب والنفس .. أهذا منظر أنفار « شغيله » نهارهم لم يبدأ بعد ؟ .. ماذا ستكون حالكم اذن فى زنقة القياله ؟.. ستموتون باذن الله .. أنا أعرف هذا .. حضرة الباشكاتب محق فى قوله ان المقاول يورد للتفتيش جثثا لم تجد مكانا تموت فيه ، فاختارتنا ، اكرمها الله ، لتموت فى أرضنا .. انما وحق بارىء الارض والسموات انى ماأعرف غير الخنق باليد.. وسوف أكون مبعوث العناية الالهية فى التخليص على أى منكم اذا مابدأ يتثاءب ، لكى أريحه من التعب .. الى أين أنتم ذاهبون الآن .. أقصد أين الفرح الذى أردتم أن تذهبوا اليه راقصين؟ .. لعله فرح أمكم القحباء ؟ ..

و « لطح » هذه الكلمة الاخيرة فى وجه الخولى ، الذى نكس رأسه فى الارض ولم يتكلم . فصرخ الكاتب : « انطـــق » . فقال الخولى :
ـ كنا .. ياحضرة الكاتب .. ذاهبين الى الشرخة الجديدة
ـ ألا يجب الانتهاء أولا من القديمة ؟
ـ خلصنا عليها والحمد لله .
راح الكاتب ينظر حواليه فى الارض مرددا بسخرية :
ـ نعم .. ماذا تقول ؟
ثم أخذ يشير ببوز الشمسية الى خطوط القطن التى يقف على ضفتها :
ـ طبعا ستقول أنكم عزقتم هذه ؟
قال الخولى :

ـ نعم .. عزقناها
مد الكاتب يده وشد الخولى من خناقه فى غيظ ـ رغم أن الخولى يزن عشرة من أمثال الكاتب ، الا أن يد الكاتب ، على ضعفها وهزالها ، استطاعت أن تقلب الخولى على وجهه مطوحا

بيديه الى الخف يحمى بهما مؤخرته من الشبلوت الذى يعرف أنه سيناله ، وقد ناله ..

شحبت الأجساد الهزيلة وتهدلت كروشها وأخذت صدورها تعلو وتهبط . وخرجت الالسنة الجافة المبيضة ومرت على الشفاه المتشققة خلسة ثم اختبات كانت خيزرانة الخولى قد تطايرت الى بعيد .. فخطا الكاتب نحوها وعدلها فى يده ، ثم أخذ يطوحها فى وجه الصف آمرا :

ــ هنا .. هنا يا أبناء المفضوحة أنت وهو .. اعزقوا الارض بما يرضى الله ..

من آخر الصف جاء « القيده » يسحب خلفه بقية الصف . وصارت الخيزرانة تنتفض على ظهر لتستريح فوق آخر .

ــ ٢ ــ

ــ النفر منا اذا ضرب فى النهار يظل يضرب حتى آخره .. افهم هذا

هكذا همس « عمرو » فى اذن « طلعت » الــــذى تملى فى خط بجواره خاف « طلعت » وأعاد تقليب الشجرة من جديد . تناها الى اليمين مرة والى اليسار أخرى ، وفى كل مرة دقق النظر . صرخت الخيزرانة فوق ظهر « الساقة » فاندفع الولد فى الهواء صارخا وانحط فوق الارض باكيا . وبكى « طلعت » لبكائه ، فقد كان الولد يؤهنه وينوح من قاع بطنه .. فأحس طلعت أن الولد يبكى عن سنين طويلة مضت ، كأنه ادخر كل البكاء لهذه الضربة فحسب .

وقف الخولى عند الشجيرة التى نط منها الولد ، وبطرف العصا أشار له أن يعود . الولد يزحف عائدا وصوت بكائه يضيع فى خشخشة الاوراق . دود القطن يتساقط زاحفا على الارض والخولى يكز على أنيابه . الخيزرانة ترتفع وتهــوى ، وترتفع وتهوى . الولد مثل سمكة حية تنتفض فوق النار .

زحف الانفار ببطء ، الرعشة فى أرجلهم فى أيديهم فى أنفاسهم فى نظراتهم ..

صرخ الخولى فى الولد « الساقه » :
ـ ارجع خذ الخط من أوله يا ابن الرفضى
ـ ط .. ط .. طيب ..
ـ اشتغل ..
ـ حا .. شتغل أهه .. اه .. اهىء ..
ـ وطى يا ابن الرفضى .. وطى ..
ـ ج .. جاضر .. حاوطى أهه
نقص الصف واحدا ، تخلف الى الوراء قليلا . صاح الولد « الفتاش » بصوته الأخنف :
ـ لطعة مشنيره وراء الساقه
الوجوه كلها كشرت ، ونظرت الى الوراء خلسه ، وفى همس لعنت أب الفتاش وأمه ، وقالت أنه غرباوى وسخ ،وصاح الخولى بهدوء :
ـ ارجع .. ارجع اقطفها .. لاتخف
لم يكن الولد « الساقه » قد كف عن البكاء بعد . انتصب منعقد الوجه . فوجىء بظل الخولى وراءه فصرخ . وظل الخولى واقفا فى هدوء وقال :
ـ اقطفها .. احذر أن تقطف الورقة كلها

بحرص شديد ورعشة اقتطف الولد اللطعة وارتدت بها يده لتضعها فى الكيس المعلق فى رقبته . لكن يد الخولى أطبقت عليها ، ورفعتها الى فم الولد . نظر اليه الولد فى رعب وانكمش . صاح الخولى : هيا .. ضعها فى فمك» . ارتعد الاولاد . مالوا برءوسهم حتى كادوا يدخلونها بين سيقانهم المنفرجه لكى يتمكنوا من الرؤية دون أن يستديروا . الولد يفتح حنكه عنوة ، تصطك أسنانه ..
ـ أتقرف منها ؟ فمك مثل المجرور .. كلها يا ابن الكلب .
وارتفعت العصا . التهم الولد اللطعة مغمضا عينيه . صار يمضغ . وحين شد « طلعت » عينيه بسرعة ليرى بهما الوريقات التى كان الدود قد أحرقها وشيطها أيقن ان الولد « الساقه » كان ـ خوفا من العصار يمضغ اللطعة فى استمتاع كأنها الحلاوة الطحينية .

همس « عمرو » فى أذن « طلعت » :
ـ هذا مايحدث على الدوام ·· الولـــــد عميت عيناه ·· خلاص ·· فى كل خطوة سيترك وراءه لطعة ·· سيموت من الضرب طول النهار ·

ومال على خط « طلعت » وساعده فى تقليب الشجـيرات · اصطدمت قدم « طلعت » بقطعة من الزجاج فأمسكها ليزيحها صاح المفتاش بصوت كله سعادة :
ـ لطعة وراء القيده ·

انهار الصف كله فى الحال · مالت الظهـــــور حتى كادت تبرك فى الارض ، وتقوست أخرى لتتمكن من النظر فى جذع الشجيرات ، وتراجعت أجساد بضع خطوات لتعيـــد تقليب مافات · وصارت الاعين تختلس النظر الى الخولى فى ترقب ، والى « القيده » في اشفاق وتحسر ·· فان لطعة وراء « القيده » معناها انهم جميعا أولاد كلب لا يعملون ولا ينفعون، والمصيبةأن العصا هى التى تقول ذلك بوضوح وبلا ملل ·

ولكن الخولى وقف مستندا على عصاه العوجاية ، عاوجا رقبته في اندهاش ·· والقيدة مسمر فى مكانه · وقال الخولى بهدوء مخيف :
ـ نهارك بانت بشائره ·· ارجع واقطفها بنفسك ·
صار « القيده » يمشى وسط الخط مرتعشا ولكنه ماسك جسده · مال على الشجيرة ناظرا فيها كأنه غير مصدق ، ثـم اقتطفها · وكان المفروض أن يفعل فعلا خسيسا يعانـــد به «الفتاش» ويكيد له، كأن يمزق اللطعة أو يفركها فينقص بذلك عدد اللطع فى كيس « الفتاش » فتنتقص آخر النهار سمعته بين الفتاشين · لكن هذا الولد « قيده » بحق ويعرف الاصول ولقد آذاه الفتاش حقا ولكن ها هو ذا يسلمه اللطعة سـليمة فأن ينقص كيس الفتاش او يزيد أمر لا يزعزع مركزك « قيده » انما الذى يزعزعه حقا هو أن يترك وراءه لطعة · ثم ان «القيده» بدأ الشغل من نفس الشجيرة ، واخذ يزحف بدربة وسرعـة حتى لحق بالانفار ـ وكانوا يتلكئون فى انتظاره ·

ما ان حاذاهم حتى زغده الخولى بسن العوجاية ـ خلسة ـ فى جنبه فرفع رأسه ناحية الخولى فى ثبات و « تنح » لـه . فزغده ثانية . فنظر اليه بكراهية وقد تقلص وجهه وبرزت أنيابه الصفراء . ولما تأكد للخولى أن الفرقة لحظت كل شيء صاح فى عداوه :

ـ خل يومك يفوت على خير .. نعم .. ليس عندى خيار وفقوس .

استغرب « القيده » فالعادة أن « القوايد » لايحب تهزيأهم أمام بقية الانفار .. ولم يمنع الشرر من أن ينطلق .. فأعطاه الخولى ظهره قصرا للشر ، وأضاف :

ـ ان تكررت فسوف تأكلها انت أيضا .

وهنا صرخ «الفتاش» وارتمى فوق الارض يجعر .

نظر « عمرو » الى « طلعت » ولكزه فى فرح هامسا :

ـ يستأهل .. أنا الذى غرزت له الزجاجة فى الارض لكى تذبح قدمه فلا يفترى بعد ذلك .

اقشعر بدن «طلعت» وتضايق من «عمرو» ومع ذلك ابتسم ليجامله ، وقال :

ـ حقا .. انه يستأهل .

.

صراخ الفتاش يدوى ، يزعج العصافير على الجزورين ،يخرم طبلة الاذن . كان متكومافوق الارض ممسكا قدمه بيديه،والدم يتدفق ويتسرب فى شقوق الارض . جاء الخولى ورفسه بقدمه فى غيظ وأمره أن يبطل الجعير . ثم تقرفص أمامه وانتزعقطعة الزجاج من بطن القدم وحشا الجرح بحفنة من التراب الاسود الرطب ، ولصق فوقه ورقة قطن خضراء . أما الفتاش فقد مزق شريحة من قميصه المهترىء ولف بها قدمه وقام يحجل على قدم واحدة .

شخر الخولى ، صاح ..

ـ لا وحياة أمك .. هذا كلام لاينفعنا .. دس بقدمك فوق الارض وامش ، والا دست أنا فوق رقبتك .

فداس الولد فوق ألمه ولكنه لم يقدر على حبس البكاء . مال

على أول شجرة ثم صاح بصوته الباكى :
ــ لطعه وراء الولد التلميذ .. عدو الشمس هذا ..
انتفض «طلعت» . لكنه ترك قلبه يسقط بين قدميه حتى لاتسقط من عينيه دمعة واحدة .

ــ ٤ ــ

سبعة رجال كانوا يطهرون المصرف في أسفل حقول الارز . يصطفون وراء بعضهم تفصل بينهم مسافات بعيدة ، وكتل الطين الازرق تتكوم على الجانبين وتربط فيما بينهم . وكان الخولى قد جلس على مقربة منهم تحت شجرة الجميز وأخذ يبرم لنفسه سيجاره ، ويتفتف بقايا ورق البافرة وينظر الى هنا وهناك خلسة . شاربه الكثيف الاشيب أخذ يهتز فيما هو يسحب النفس من السيجارة . فتح فمه ليصب القدر اللائق من الشتائم حتى لايتصور الانفار انه قد نام . لكنه أغلق فمه . وتصعب ، ثم غمغم : « سبحان مغير الاحوال » . الا أنه أيقن ألا مفر من الكلام ، فصاح وهو يزدرد بقايا الدخان .
ــ وبعد .. وبعد ياشيخ الغفر .. ألا تريد أن تفوتها على خير ؟ .. اخز الشيطان يارجل واشتغل بما يرضى الله .. حكاية انك شيخ غفر هذه كانت زمان .. أنت الآن نفر .. أنت لست احسن من أحد .. فلاتجعلونى أعاملكم كالصغار فأقف وراءكم بالبوصة .. واننى لفاعل هذا بدون شك .

وكان «شيخ الغفر» يرتدى القميص الازرق ألبيسه ويخوض فى الطين بقدميه ويديه مقابل ستة قروش فى اليوم ، لا ليؤكل بها أولاده بل ليقبضها المقاول نيابة عنه خصما من الدين الذى حكمت به الحكومة عليه . فغمغم «شيخ الغفر» وهو يكوم الطين الأزرق بيديه فى قاع المصرف : «هه .. لايكفيه أن الزمن الاعمى وضعه خوليا على شيخ الغفر» وضغط حفنة من الطين بيديه وطوحها على الشاطىء : «عبد من عبيد التفتيش لا هنا ولا هناك .. يعرف أننا نشتغل سخره .. ويعرف أننى أعرف الحقيقة

أكثر من غيرى ثم يسوق الخولية على» • انحنى ليجمع الطين من قاع المصرف وقال لنفسه انه لابد أن يرى هذا الخولى مركزه قبل أن يمرمط كرامته أمام الانفار ، ثم انسابت كومة الطين من بين يديه فانحنى يلمها من جديد •

ـ اذا لم أستطع تربيتك ياشيخ الغفر سأحلق شاربى ••

هكذا صاح الخولى رافعا رقبته من بين ركبتيه •طوح «شيخ الغفر» بكومه الطين الازرق على الشاطىء ، وبصوت عال وصف فرج أم الخـولى بأنه أحمر • هنا انتفضت كـومة اللحم تحت شجرة الجميز محاولة النهوض مطوحة بالعصا ، لكنها تعثرت، فانهارت متكومة ، ثم سارت تتدحرج ، اكتسحت فى طـريقها كتل الطين الطازج فتلفعت بها ثم هوت الى قاع المصرف •

صاح «شيخ الغفر» مستغيثا ، وخلص قدميه من قاع المصرف وانطلق يجرى على الشاطىء •• رأى ظلالا كثيرة لرجال كثيرين قادمين يجرون نحوه • رمى بنفسه فى المصرف وشد الخولى من جلبابه • فخرج يشر منه الماء الرمادى ، يلهث يشهق ، يتطوح رأسه على كتفيه • كان يغمغم و « شيخ الغفر » يسنده •حين تمكن من الوقوف على قـدميه رفع ذراعه الهزيلة وخبط «شيخ الغفر » بالقلم على وجهه • عرف «شيخ الغفر » أن الخولى ماكان ليجرؤ على هذه الفعله فى غير هذه اللحظة ، فابتسم ، وأمسك يد الخولى فأعادها الى جنبه فى هدوء ولكن بتهديد •تجمع بعض الانفار وسالوا عن الحكاية ، فاستدار لهم الخولى وشخط فيهم صائحا بأن الحكاية هى أن يعودوا الى الشغل ولايعملوها حلوانه فى سلوانه •

وكان « شيخ الغفر » هو أول من استدار عائدا الى حيـث كان •

— ٥ —

ـ خولينا يا أبو دكه صوف ••
يا أبو دكه صوف •

شربنا واعمل معروف ·
اعمل معروف ·
خولينا ياأبودكه حرير ·
يا أبو دكه حرير ·
شربنا وانت الامير ·
انت الامير ·

واحلو صوت البنت « هانم » وصار الانفار يرددون خلفها فى غناء شجي دامع · وكانت شمس الظهيرة تتوسط السماء وتركب فوق الظهور المنحنية ، والحياة تسيل عرقا يتساقط فوق الاعواد النابته ·

تلفت الخولى حواليه وصار يدندن هوالآخر :«ياحلو سلامات من العام اللى فات بهلال» ·· وصل الانفار الى حافة الزراق ـ وهو الجسر الرفيع الذى تتفرع منه الخطوط التى تنتظمالارض تلكأ «القيده» قليلا فنظر اليه الانفار باستحسان ، وانتظروا أن يصيح الخولى صيحته المنتظرة ·· « اقعدوا اتشربوا » لكى يجلسوا فى الحال فى أماكنهم يتشربوا أنفاسهم لبضع ثوان · على أن الخولى صاح بينما يضغط بأسنانه على لسانه : «لاأريد اللكاعة يا ابن الحمار أنت وهو » · فانتفض « القيده » وقفز سائرا على حافة الزراق والانفار تنط من خطوطها وتنتظم وراءه ثم تتملى فى خطوط جديدة بجواره · فلما اكتمل شملهم بدأ « القيده » يقلب الشجيرات متعمدا اظهار التعب ، فاستمات الانفار وتهامسوا : « نشف رأس الخولى » وفى الحال ارتفع صوت البنت هانم :

ـ خولينا يا ابن الاصول ··
يا ابن الاصول ·
شربنا من غير مانقول ·
من غير مانقول ·

اعتدل الخولى وفرد الشمسية فوق رأسه وزأر :
ـ اشتغل بابن اللوطى منك له
ثم انطرحت عصاه ـ من باب المرح فقط ـ فوق ظهر «الساقه»

فصرخ ، ثم امتلأت الخطوط بالصراخ . فجأة ظهر الباشخولى بجانب الخولى وكان قد طلع من بين أعواد التيل ، وأخذ يروح ويجيء منكسا رأسه فى الارض ، يقلب الشجيرات بعصاه العوجاية ويلقى نظرات عابره . ثم ظل صامتا فى انتظار أن يصيح أحد الفتاشين معلنا عن لطعه وراء فلان أو علان . لكن جميع الفتاشين كانوا مثل الزنابير رائحين عائدين خلف الانفار بالعرض ، ولايصيحون بأى شيء انما يقطفون اللطعة من وراء النفر خلسه وفى دربة ، فاللطعة فى هذه اللحظة فقط لن تكون وراء النفر فلان بل تكون وراء الخولى نفسه .

سرح الخولى بناظريه مطلقا من فمه صفيرا بنغمة : «ياوابور الساعة اتناشر يامقبل ع الصعيد» . زهق الباشخولى من التنحنح ، فكح وبصق على الارض فى غيظ . هنا نظر اليه الخولى صائحا بدهشه خبيثة :

ـ باشخولى ؟ .. أهلا باشخولى

قال الباشخولى :

ـ أقفل هذه الشمسية ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ الشمسية لايمسكها الا الكاتب .. الباشكاتب .. الناظر .. أنا ياباشخولى لاأمسك شمسية .

ـ ماذنبى اذا لم يكن عندك شمسية ؟

صاح الباشخولى مشوحا :

ـ لانأخذ منك سوى طولة اللسان

ـ احترم نفسك ياباشخولى

هكذا زار الخولى ضاربا الارض بقدمه .

ـ طيب .. طيب .. سأريك كيف أحترم نفسى

واستدار الباشخولى وصار يهرول حتى اختفى . صاح الخولى متعمدا أن يسمع الباشخولى صوته ..

ـ أقعدوا اتشربوا ياولاد .

جلس الانفار فى اماكنهم . امتدت أيديهم وسحبت من ظهورهم قطعا من العيش المقدد راحت تطحنه براحتى اليد ثم

تسفه فى نهم • ومال بعضهم على بعض وهمس مؤكدا أن مايقال عن هذا الخولى يبدو صــــحيحا ، وأن أمه الخادمة فى سراى التفتيش تسنده وتحميه •

— ٦ —

العــين تبكى وتشــاشى
وتقول الكاتب ماجاشى
والعين تبــكى وتشــاشى
وتقول الــكاتب ماجاشى

والكاتب يعرف أن هؤلاء الملاعين يعرفون إنه قد جاء بالفعل وانهم لم يحلموا بمجيئه هكذا الا لكونهم رأوه بالفعل • عــلى أنه لم يستطع منع نفسه من الابتهاج • لكنه حاول ان يشــد جلد وجهه من الآن حتى يصدق الانفار صراخه ســـاعة يبدأ الصراخ ، فانه ان لم يطلق فى كل فرقة بضع صرخات هائجة لايكون كاتبا يحق وحقيق ولا يصلح لتمثيل التفتيش . هـــو يعرف أن الانفار يتمنون لحظة قدومه فى الظهيرة ليـــدون أسماءهم وعددهم ، وفى العصارى ليراجع الكشوف عليهم ففى مثل هذه اللحظة يسمح لهم بالوقوف لدقائق يريحون فيهـــا ظهورهم الى أن ينتهى الكاتب من مهمته ويتأكد أن هذا الصوت خرج من هذا الجسد وأن هذا الجسد هو نفسه الاسم المدون فى دفتر التفتيش •

كانت الفرقة تقبل زاحفة من بعيد متكورة الاجساد مثــل صف من القرود عارية الاذرع والسيقان والمؤخـــرات • رآه الخولى ، فأقبل نحوه مهرولا • رفع الكاتب ذراعه وبسط كفه نحو الخولى مشيرا له بالبقاء حتى يجىء مع الفراقة على مهلهم • ولو لم تكن مياه الرى قد راحت تتسرب خلال الزراريق لاخترق الكاتب الارض ذاهبا الى الفرقه •

— والعين تبكى وتشاشى •
وتقول الكاتب ما جاشى •
والابتسامة غلبت مقاومة الكاتب ونورت وجهه • وتذكـر

المنديل الذى فرده على رأسه تحت الطربوش • فرفع الطربوش وأزاح المنديل ماسحا عرقه فصار المنديل مثل الارض تماما ، فكوره ووضعه فى جيب الجلباب السكروته المهفهف • وفتح دفتره المستطيل وراح يفر صفحاته • على أن أذنه كانت تستلب صوت البنت التى تقوم بالحداء ويرد الانفار عليها • فى صوت الملعونة جلجلة مبحوحه تهدر فى عروقه • لابد أنها غرباويه • فالامر الذى لايجد له تفسيرا حتى الان هو ان الغرباويات جميعهن حلويات الصوت ، لايقصد حلاوة الصوت كأنهن المطربات ، ولكن آه من تلك الحلاوة التى لم يسمعها الا فى أصواتهن ، لايستطيع وصفها ، لكن شيئا ما فيها يجعلك تحس بالرغبة فى البكاء ، وتذرف من الدموع مايغسل صدرك من وساخة الاوجاع ، ولابد ان تتذكر اهلك وعيالك وكل ذويك فى البلدان البعيدة • انما لا • انه لايجب أن يأكل من هذا الكلام • ومع ذلك فان هذه الجلجلة التى فى هذا الصوت صريحة وواضحة وهو لن يتغابى أمامها • ملعون أبو زوجته التى غارت فى كسحة ، انه عما قريب سوف يتزوج واحدة من أصل تركى تكون عونا له على « مصاعب » الحياة • وقال لنفسه أنه يجب ان يسأل هذه البنت عن اسمها • لابأس من أن يمتدح صوتها • لا •• يجب ان يظل كاتبا ويطلبها الآن لمساعدة خدم السراى فى أمر من الامور •

ــ والعين تبكى وتنوح •
وتقول الكاتب مروح •

وهدرت موجة الاصوات • كانت ثمة ظلال قاتمة يشتد زحفها • استغرب الكاتب كيف يخرج هذا الصوت الحلو من هذه القرود العمشاء ؟• أحس بأنه يجب ان يؤجل فكرة دعوة البنت للمساعدة ، ثم بصق ، وكانت عينه قد سطت على البنت الغرباويه فذهب اليها بينما كانت مستمرة فى الحداء •

التحمت عيون الظهيرة بعيون الانفار وسرت وراء الكاتب عدة خطوات ذاهلة • وقف ناظرا الى البنت نظرة التوت لها كل ملامحه التواءشريرا • تدفق الدم فى خدى البنت وازاح عن

وجهها القشرة المحروقة كان جسدها قد استوعب الخطر الغامض المجهول • الكاتب يحاذيها وهذا شرف يستوجب الترحاب • انهزمت الابتسامة التى كانت مثل كرة من البللور تتقافز فوق ملامحها بينما هى تنتفض رافعة يديها تتقى بهما شرا غامضا . ثم انها صرخت ، ووقعت على الارض ، لكن عيون الظهيرة لـــم تصدق انه زغدها بعنف فى جنبها • وحين رفعها عن الارض قابضا بكفه على ذراعها ليزرعها واقفة ثم يصفعها على خدهـــا جحظت عيون الظهيرة واجمة • وكان صوت البنت يتلوى مع المياه الداكنة المنسربة خـــــلال القنيان والزراريق ، وبنفس الجلجلة التى كانت تغنى بها بكت بحرقة •

انكسرت العيون ، وتقهقر الكاتب بعد ان زرعها فى الصف من جديد • راح يلهث ويعدل طربوشه • ثم آخذ ينادى الاسماء واثر كل اسم يتسمع كلمة : أفندى • واذ صار كل شيء عـلى التمام وطوى الكاتب دفتره تحت ابطه حاذاه الخـولى وهمس فى أذنه :

ـ ما الامر ياحضرة الكاتب •• ما الذى فعلته هذه البنت ؟

طوح الكاتب رأسه ودمدم فى اشمئزاز :

ـ بنت كلب •• غرباويه •

ـ نعم •• ولكن ماذا فعلت حتى نريها شغلها •• لابد انها أجرمت •

فهز رأسه ثانية وتهيأ للسير وهو يتمتم :

ـ انها بنت كلب والسلام •

واستعد ليقفز القناة • وكان هدير الاصوات المتباعدة قد بدأ يودعه بنفس النبرة ، وبحداء نفس البنت : العـــين تبكى وتنوح •• وتقول الكاتب مروح •



الفصل الحادى عشر

لغة المسوقة

« ركبونى الرحا وقالوا شديده »
« ياكلم بالهنا والليالى السعيدة »
« طحين الرحا ع الشباب قاسى »
« وأنا عجيبه من عجايب ناسى »
« طحنت الرحايه مالقيت لى حيل »
« ليه العجوزه اللى ماتنام الليل ؟ »
« طحين الرحايه ع الشباب عذاب ؟
« ليه العجوزه وخادم الاحباب »
« نزلونى سوق العبيد ورضيت »
« وعيطونى باسم المره ٠٠ مارضيت»
((ونادوا وقالوا : يا بخيت رضيت))

((من أغانى الرحى)

— ١ —

جلس « عشم أفندى » الباشكاتب فى شرفة السراى واضعا رجلا على رجل · رغم أنه لم يكن هناك ذباب ولا بعوض فى تلك اللحظة الا أنه حرص على حمل المنشة فى يمناه · لم يكن هناك شىء محدد يريد ان يفعله . راح يتلفت حواليه محاولا أن يكون ملكا أو رجلا عظيما : ولابد أنه كان يتساءل : لماذا جمع خفراء التفتيش كلهم الآن تحت السراية ؟ . من المؤكد أنه كان يريد أن يكلفهم بشىء ·· فما هو هذا الشىء ؟ · المؤكد أيضا انه شىء هام ·· اللعنة ·

ارتكن بكوعيه على حافة الشرفه · رآهم ينكمشون يتداخلون فى بعضهم ويصلحون من هيآتهم · انبسطت ملامحه نطقت بالسعادة · ظل هكذا برهة طويلة · تحركت شفتاه لكن دون صوت · أخذ يذب الهواء فى عصبية · جلس مسندا ذراعه على حافة الشرفة · أخذ يدعك فى جبهته ، كأنه بدعكة مقبلة سوف يمسك بذهنه ويقرره بالشىء الذى يريد · .

●●●

·· لم يتحرك أحد من الخفراء · ظلوا كما تركهم منذ برهة · لكن عيونهم دب فيها نشاط سريع ، راحت تتقافز نحو بعضها فى خبث ضاحك ، تشير لبعضها البعض الى حافة الشرفة · لمحة سريعة والتقت كل العيون على نقطة واحدة ، ثم اندفعت الاجساد تهتز فى عنف بفعل ضحكات مكبوته تتمرد على الحبس فى الصدور ، فتخرج من الانوف والحلوق ، لتهرب وتختفى فى الحال وقد تنكرت لها الوجوه بسرعة · لم تكن النقطة التى التقت عليها العيون سوى راس مقبض المنشه العاجى المستطيل ،

المبروم فى شكل معين ، البرونزى اللون ، الذى ينتهى براس مقلوظة تترك فى الذهن انطباعا قبيحا .

أخذت الضحكات الهاربة من محابسها تطوف بأذهان الخفراء ثم ماتلبث أن تعود الى حيث انطلقت لتنطلق من جديد ، تتحول الى حوار هامس غير منطوق ، حوار كثيرا مادار بينهم فى غير هذا المكان حول هذه المنشة وحول مقبضها هذا بالتحديد .. فعشم أفندى لايترك هـذه المنشة من يده أبدا حتى وهو نائم . حينئذ يضيف أحدهم قائلا فى خبث : «بل هو لاينتفع بها الا عند النوم » . وهنا يتطوع ثالث فيمتدح اليد العاجية ونعومتها، ويمتدح — فى نفس الجملة — شباب الست اجلال .. وجسدها المتفجر بالحيوية . تصطدم هذه الصورة بصورة «عشم أفندى» بساقيه الهزيلتين فتنفجر الضحكات صاخبة عالية مدوية فى الحقول البعيدة العريضة .

●●●

ارتعد «عشم افنـــدى» وكذب أذنه فى أن يكون ماوصل اليه ضحكا ، ثم هب واقفا فى غضب شرس . مال بجذعه فوق الحافة شاملا الجميع بنظرة مؤنبة مستفزة . الوجوه صامتة . لـكن صمتها يشى بأنها انتهت لتوها من افراغ شىء كان يثقل الصدور ازدادت حيرته . بصق فى الهواء بغيظ ، جلس ، يكاد يعصف به الغضب . صفق بيديه .. وطلب شيخ خفراء التفتيش .

●●●

تقدم شيخ خفراء التفتيش ومثل بين يدى الباشكاتب ينتظر اوامره ، انجعص الباشكاتب وذب الهواء بالمنشة كما يفعل عليه القوم القادمون من الباب العالى تصلب شيخ الخفراء فى وقفته باحترام كبير ، ولابد أن رأيه فى هذه المنشـــة .. الذى كثـيرا مارددة بين الخفراء قد طاف بذهنه الآن . ففى رأيه أن التفتيش قد سلم هذه المنشة «لعشم أفندى» مثلما يوزع البنـــادق عـلى الخفراء والعصى على الخوله والباشخوله ، فاذا كانت البندقيـة سلاح الخفير والعوجاية سلاحا للباشخولى والخيرزانة سلاحا

للخولى والكرباج سلاحا للناظرفالمنشة أيضا سلاح للباشكاتب .. كيف ياشيخ الخفر ؟ .. افهموا يابهائم .. فبها . نعم بهذه المنشة يقتنع الانفار كلهم انه ليس موظفا مثل أى موظف ،انما هو ذو صلة وثيقة بأصحاب الوسية ، يتقمط بالبذلة مثلهم • ويلبس الطربوش والبرنيطه ، ومثلهم أيضا لايدع المنشة من يده ، هكذا علية القوم كلهم • وهكذا ايضا لاتكف المنشة عن الذب يمينا وشمالا خاصة حينما يمثل أحد على شاكلتنا بين يدى أحدهم •

انحرف شعر المنشة ولسع وجه شيخ الخفراء • ارتعد • خيل اليه أن المنشة عرفت مايدور فى ذهنه ، فكف ذهنه عن التفكير تماما • ظل واقفا كالصنم حتى ينتهى الباشكاتب من رشف القهوة • ويبدو انه خاف أن تعلن المنشة عما رأته فى ذهنه فتقدم باهتمام وأشعل عود الكبريت أمام سيجارة الباشكاتب لكن ذبة واحدة من المنشة أطارت العود والعلبه من يده فلم يفكر فى الانحناء لاستعادتها •

شخط الباشكاتب :

ـ هيه •• ماذا تم فى الاسطبل ؟

ارتخى شارب شيخ الخفراء ••

ـ كان المفتاح لدى الست •• ولم نعرف • • أقصد •• لم نعرف ماكان يحدث •• رفع الباشكاتب رأسه باهتمام ••

ـ هل حدث شىء جديد بالداخل ؟

ـ مايحدث كل يوم •• الصراخ طول الليل •• العراك ـ الناس تجرأت •• تشتم التفتيش والمقاول والعمدة والقاضى • هناك أيضا الولد الذى يغنى فى الليل ويترحم على رجل مات كان بيده الامر ، والبلدة كلها تسمعه وتبكى بحرقة .. ثم أنه يستغيث قبل أذان الفجر كل يوم •

اعتدل الباشكاتب •• هتف :

ـ وماذا بعد ؟

ـ كنا فى العادة نضرب الباب بدبشك البندقية فتنقطع الأصوات فى الحال وتختفى .. أما اليوم فانهم يلعنون أب الكبير فى هذا البلد •

خبط الفنجان في الطبق :
ـ وما السبب في هذا ؟ ..
ـ الله أعلم
ـ لابد أن تعلم .. ماوظيفتك هنا ؟..
ـ والله .. ياسيدى .. انهم .. الانفار .. يقولون كلاما كثيرا نسمعه في الليل .. يقولون مالم نسمعه في حياتنا أبدا عن الانفار .. لقد نفخ الله في صورتهم،فجعلهم يرفعون صوتهم على آخر الزمن .
وقف الباشكاتب :
ـ ماذا يقولون ؟..

ـ كلام كتير .. عن الاجرة التى .. عدم المؤاخذة أكلها المقاول .. عن الذمة التى شبع الحصان من الجرى فيها . يقولون أيضا عن .. حاميها .. و.. عدم المؤاخذة . . حراميها . . يضحكون كثيرا ياحضرة الباشكاتب .. ولما نبهنا عليهم بأن يكفوا عن هذه المسخرة ويتركوا سيرة العمدة والمقاول والتفتيش أثناء ضحكهم بدأ الولد يغنى وهم يزأطون خلفه .. ويستغيث ويؤذن للفجر كأن جامع أمه في الاسطبل .
ـ يستغيث ؟!

ـ أى نعم .. بكلام جديد لم نسمعه من قبل
انهى الباشكاتب أخر شفطة في الفنجان ، وأخذ لسانه يلوك طعم البن في فمه . والمنشة لاتكف عن الحركة . أشعل سيجارة أخرى وزام وراح ينظر الى شيخ الخفراء في تشكك . الامر الذى جعل شيخ لخفراء يضع وجهه في الارض .

ـ اسمع ياشيخ الغفر .. انت لست صريحا .. أنت من حزب الست هنومه زوجة الناظر .. انتفض شيخ الخفراء وخبط صدره بيده ..

ـ أنا ؟.. أبدا والله .. أنا من حزب التفتيش . وأنا خادمك ..
اعتدل الباشكاتب ؟
ـ جاءنى من يخبرنى أن في الامر مظروفا وورقا .. وولد

صغير يقــرأ .. محاضر وبلاغات وقضية ومحكمة .. وبلــد وتفتيش ومقاول وأنفار وعمدة وخفراء وكاتب وباشكاتب وجمعه المؤذن فما هذا الكلام ؟.

شحب وجه شيخ الخفراء . ابتلع ريقه . تنحنح :

ـ والله يا حضرة الباشكاتب .. الحقيقة يعنى .. كنت وأنا أمر فى الدرك حول الاسـطبل أسمع ولدا يقرأ .. وكنت أقف لاتصنت .. فأسمع كلاما غريبا .. كلاما مما تقوله ناس أمام النيابة ، وتقوله النيابة نفسها .. والولد ياحضرة الباشكاتب لبيب وفصيح .

وقف الباشكاتب . اندفعت شعيرات المنشة تلسع الهواء فى غضب . انزاح الطربوش الى الوراء ثم أعيد الى الامام .. « اذن فكلام الاعرج صحيح .. وكنت أظنه يكذب من أجل مكافأة ».

ـ هل قلت الاعرج ياحضرة الباشكاتب ؟.

صرخ ..

ـ لم أقل شيئا ..

ـ لابد أن أذنى أصابها الطرش .

ـ فى الاسطبل فتنه .. أتفهم يابهيم ؟ .

ـ نعم ..

ـ فى الاسطبل فتنة .. جازاها الله زوجة الناظر . . هى السبب فى هذه الفتنة .. يعنى لو سمعت كلامى وتركت الانفار يبيتون فى الخلاء لما كان هناك الآن مايقلق بالنا .. كانـــوا يسرقون البلد نعم .. ولكنناكنا نقبض على اللصوص ونحبسهم وينتهى الامر .

ثم جلس . أشعل سيجارة . سكنت المنشة تماما ..

ـ اسمع ياشيخ الغفر ..

ـ نعم ..

ـ اذهب الآن وهات العمدة وشيخ البلد والاسطى فانوس . قل لهم اننى أريدهم فى الحال .

ـ سأذهب .

ـ سأبصق هنا بصقه .. اذا لم تعـد قبل أن تجف هـذه

سأريك شغلك ·· استدار شيخ الخفراء وانطلق يجـرى فى اتجاه البلد · ونسى أن يكلم الخفراء الواقفين تحت الشرفة ، فظلوا كما هم ، لايتحركون ·

— ٢ —

اجتاز باشخولى السراى عتبة داره فى غبشة الصباح الباكر ·· فهلل لخطوه سقف الدار المعرش بالبوص وأعواد الحطب· زقزقت بعض العصافير المنتمية بأعشاشها الى هـذه السقوف منذ أزمان بعيدة · انطلقت يمامة ثم حطت على قبة الفرن فوق برام منكفىء على وجهه واخذت تدعو الناس أن « وحدوا ربكم·· وحدوا ربكم» — فهكذا تقول اليمامة كلما صاحت ·

راح باشخولى السراى يقلب كافة الاوانى المنـكفأة ليبحث تحتها عن طعام يزدرده بعد طول الجرى والـكلام · لم تذعر اليمامه ، لم يطر العصفور حتى السحلية المتلونة بلون الرماد والطين ظلت تبرق بعينها فى عنق الحجر · لم يجد الباشخولى شيئا يأكله · عاد الى المصطبة التى فى صدر الدهليز · حياه الكلب ، « عتريس » ، بأن مط رقبته وتثاءب ثم تلمظ ، وخفض رأسه خفضة سريعة كأنه يتوقع ضربة مفاجئة ، غير انه لم يبدو عليه الخوف أو الفرح ·

جلس فوق أول درجة من السلم الطينى المتآكل المواجه للباب صدره يعلو ويهبط فى غضب · ماذا يفعل بحق الله ؟ · لقد صنع المستحيل كى ينفرد وحده بالبقاء فى هذه الدار مع أهله وعياله ، لكن هذه المخلوقات تأبى الا أن تشاركه فيها ، تفرض نفسها بالقوة ·· نعم وأى قوة أشد من قوة هذه المخلوقات ·· ان سد بالطين جحرا خرج له الفأر من تحت الصـندوق أو من داخله ·· وأن سحق رأس ثعبان أطلت له أخرى من شق فى سقيفة الدار · تصدت الدار كلها ليال بطولها وقامت بتنقيـة أجساد بعضها البعض من القمل والبراغيث كما تعمل فى تنقية الدود من أشجار القطن ، ومطاردتها فى ثنايا الوسائد والملابس

ولا فائدة .. أما الحمام واليمام والعصافير فلا ضير منها . ربما كانت هي والكلب « عتريس » تؤنس وحشة الدار وتملأ الليل زقزقة وهديلا ونباحا .. لكن أغيثونا من بقية المخلوقات التى تشفط دمنا من العروق .

يارب هل كتب علينا أن نبقى فى هذه العيشه الهباب الى مالا نهاية ؟ . الجميع يغتنى وينتقل الى دور جـديدة ، وفلوس جديدة ، أما أنا فتكفينى هذه الخرابة ، الحـق على طبعا لاننى سكت على هذا . اندفع واقفا ومضى فى اتجاه القاعة الجوانية : كلما شكوت حالى للباشـكاتب شوح لى قائلا : « دعـك من « الفلسفة » « فوالله ياناس لا أنا ولا أبى عرفنا يوما ما هذه الفلسفة » لا لبسناها ولا أكلناها ولا شربناها ولا عرفنا لهـا طعما أو صنفا أو مكانا ، لاأفهم من أمرها شيئا سوى أنهاتجىء دائما فى وجهى كلما شكوت حالى .

دخل القاعة تتحسس عيناه الظلام .. لقد عرفت أن هـذا التفتيش نذل وابن كلب ، وكل من يخدمونه كلاب من ظهور كلاب . تعثر وانكفأ على وجهه . نهض . نفض يديه من التراب اذا كانت «الفلفسة» هى أن أنتقل بأولادى الى مسكن نظيف من مساكن التفتيش فأنا سوف أظل فى «الفلسفة» على طول رائحة الظلام المختزن تضيق صدره .. هاهم الأنفار .. الأنفار .. قد حصلوا على مسكن ، قصر يسمونه ظلما بالاسطبل . صحيح أنه بنى للبغال والجياد والابقـار والاغنام ، لـكن من قال ان الانفار يمكن أن يصبحوا فى معزة ساكنى الاسطبل السابقين، من كان يتصور هذا ؟ أن ترتقى الحال بالغرابوة هكذا ؟ . والله أن الايام كانت تلعب لمصلحتهم فى السنوات الماضية ، فالتفتيش يستجلب قطعانا جديدة من الخيـول والابقار من أنواع غالية الثمن .. قامت فى دماغ المفتش . نعم .. أيامها كنت سائسا فى الاسطبل وعرفت ورأيت كيف قامت فى دماغ المفتش .. قال : سأبنى اسطبلا جديدا داخل سور السراية نفسها ، حتى يستطيع الواقف فى فـراندة السراى أن يميز ويختـار منهـا مايصلح للركوب أو للذبيح فى الحال دون مشقة .. أيامها لم

نصدق ·· لكن ذلك الافندى الرفيع المدعو الباشمهندز راح ينط شمالا ويمينا فما مر شهر واحد حتى كان الاسطبل الجديد يفتح أبوابه لسكانه الجدد · هنيئا لكم ياغرابوه ياأولادالقحباء ولـكن من حقنا أن يكـون لنا من الحب جانب · · انما لى مع التفتيش كلام ·· بس صبرك ·· ان كان حضرة الناظر يسكن في قصر ذي فرانده ، والباشكاتب يسكن فى قصر ذيبلكونه، فباشخولى السرايه من حقه أن يسكن فى بيت ذى سـقف وبه فرش وغطاء ··

مضى خطوات أخرىفي جوف الظلام· قال لنفسهأنهحينكان سـائسا فى الاسطبل كان ينام فى حجرة مبنية بالبتن ، مبلطة ، حتي مصطبتها هى الاخرى مبلطه ، الماء فيها حنفية وخـرطوم ودلو ، وما أحلى النوم ساعة القياله فوق هذه المصطبةالساقعة ·· اليوم أنا باشخولى السراى يحسدنى الناس ولكننى أسكن فى هده الخرابة التى حسبوها على دارا · على أى شيءيحسدنى هؤلاء المغفلون ؟·

تعبت عينه من الظلام · توجه الى الركن حيث أمسكبجريدة طويلة دفع بها غطاء «الناروزة» فانزاح عن فتحة فى السـقف انهمر منها شعاع الشمس مثل عامود أزرق من النور والغبار والدخان · انكشفتالقاعة· الطاقة التى فىأسفلالجدارالمقابل

لاتزال بها علبة الدخان كما تركها بالامس فارغة ·· لقد نسى أن يمر على الدكان ليشترى دخانا على الحساب · ابتسـم حين رنت فى دماغه قولة : على الحساب ، فهو الآن مثل الافندية فى الميرى يقبض كل شهر · بيت النية على أن ينزل البلد اليـوم ليشترى شايا وسكرا ودخانا · مد يده تحت المخدة وسـحب «النوتة» الكبيرة ذات الجلدة السوداء التى تشبه المحفظة الانيقة مكتوب عليها بالاصفر كلام ··

ارتعش شاربه وهو يسـحبها · امتدت يده اليمنى لتبـرم طرف شاربه وهو يتذكر «بكرى» صاحب الدكان حين أغـراه بربع أوقية دخان من أجـل أن يأخذ هـذه النوته يقيـد فيها حساباته ، لكنه برم شاربه كما يبرمه الآن وقال له : « أنت

أحسن مني؟ ٠٠ أكتب فيها حسابى أنا وتبقى عنـدى» ٠ كان سعيدا أن (بكـرى) يعرف أن باشـخولى السراية يستطيع أن يحصل على مثل هذه النوتة الكبيرة المحترمة ٠

٠٠ برزت النوتة أمام عينيه سوداء لامعة جديدة ٠ لورقهـا رائحة تدخل الخياشيم ، وشخبطه «بكرى» بالقلم الكوبيا فى الصحفات الاخيرة لها رائحة هى الاخـرى ٠ أخذ يفرها مثلما يفعل كلما أمسك بها ٠ تواترت صفحات مكتوبة بالحبر الاخضر وراء بعضها ٠ ارتعد ٠ ارتكن الى الحائط ٠ الرعشة تتمشى فى جســده ٠ سقطت النوتة من يده ٠ عامود الضــوء الازرق الساقط من « الناروزه » يتضخم ويصير كبيرا ثم يختفى ويسقط الظلام ، وتتأرجح الارض ٠٠ وتزحف وتختفى به فى خلاءبعيد بعيد ٠

٠٠ كان «الرجل» يركب الحمار على شاطىء القناة وهـو مختبىء فى بئر الساقية يطل برأسه كل برهة ليرى أين ذهب الحمار ٠ وكان باشخولى السراى السابق «عبد السلام» الذىهو فى الاسطبل الآن ــ قد مــر به عائدا الى البلد يلهث ، وكانت دورية المساء قد تركت الرجـل يمشى فى حاله ٠ مر به الحمار يدقدق أرض الليل.و«الرجل» فوقه يتمايل ويحاول أن يهدىء من الجرى ٠ كان لابد له أنيترك بئر الساقيةويمشى وراءالحمار فان حضرة الناظر حين جاء به الى هذه الناحية بالكارته لم يكن يقصد أن يفرجه على بلدة أخرى ، انما أتى به ليفعل شيئا ما، ولا بد أن يفعله ، والا فسيبقى كما هو سائسا فى الاســطبل ولا يصبح « باشخولى السراى » كما يريد ٠ قال لنفسه ساعتها: كيف عرف حضرة الناظر أن هذا الرجل سيمر من هذهالطريق فى هذه الليلة ؟٠

لكنه قال لنفسه أيضا : حضرة الناظريستطيع أن يعرفمايشاء وهذا ليــس شغلى أنا ٠٠ عـلى فقط أن أفرغ هذه الغدارة فى جسده ، ثم بدأ فى الحال فأحكم النيشان ٠ اهتز الفضــاء ٠ تطايرت العصافير ونهق الحماروهاج ،وهوى الرجل فىالارض واندفع الحمار يبرطع فى الحقول البعيدة حتى اختفى ٠ذهب

الى الجثة . كانت يدها تقبض على حقيبة جلدية جميلة . نزعها ودحرج الجثة في المصرف بعد أن ربط فوق صدرها حجرا كبيرا. ارتد عائدا . كانت الكارتة تنتظره على السكة الزراعية البعيدة، لكنه حين وصلها لم يجد بها أحد ، حتى الحوذي لم يجـــده . أطلق صوته في الفضاء العريض مناديا عدة مرات ، فلما لم يجبه أحد ركب الكارته وانطلق . لم يطق صبرا . فتح الحقيبـــة . لم يجد بها سوى حزمة كبيرة من الاوراق داخل مظروف أصفر، ونوته ذات جلد سميك لامع . ارتعد، قال لنفسه انه سيتخلص من هذه الاوراق ويحتفظ لنفسه بالحقيبة . وكان قد دخل في زمام التفتيش والفجر يقترب ، فهبط ليفعل مثلما تفعل الناس، ثم حفر حفرة صغيرة في أكوام الردم ودفن المظروف وأهال عليه التراب وعاد الى الكارتة فركبها . لكن الحقيبة أفزعته ، وأحس أنها ربما تدل عليه الحكومة ، لم يجد في ذهنـــه كلاما يرد به حينما يسأله أحد : من أين جئت بهذه الحقيبة ؟ . ففي الحال نزع الخنجر المربوط في ذراعه وراح يمـــزق جلد الحقيبـــة الى قطع صغيرة يطوح بها في الترعة ، أما النوته فانه استخسرها ولابد أن من يراها سيعتقد أنه أخـــذها من التفتيش ، وأحس بسعادة حين وجدها تستقر مســـتريحة في جيب صـــديريه . الناظر لم يكذب عليـــه في الحقيقـــة ، قال له .. «سأعينـــك باشخولي السراي بعد أن تفعل ماطلبت منك» ولقد صدق . لكنه لم يصدق أبدا حين قال له : «ستكون مبسوطا وكل ماتحتاجه تأخذه مني أنا» .. فما الذي أخذه ياحسره ؟ .. يومية كالتي كان يأخذها من قبله «عبد السلام» كل مافي الامر انه بدلا من أن يقبض كل جمعة صار يقبض كل شهر ، يافرحتي .

زيق باب الدار فارتعـــد ، ورمى النوته وخرج الى وســـط الدار .

●●●

انفتح الباب على وسعه . دخلت زوجته « دهبية » مثنية ساقيها عبر العتبة خوف اصطدام السقف بالبلاص . صبحته بالخير فسألها ان كان عندها شيء «يطفحه» فمالت تسند البلاص

بجانب الزير وتضع الكوز فوقه قائلة : عندى ..

ـ قالتها بلهجة معجبانية واعدة ، فما الذى عندها ياترى؟.

اقتربت منه تمسح يديها فى ثوبها وتقف أمامه برهة . كاد ينهرها . لكن شيئا ما على وجهها منعه عن ذلك .. لعله التعب الشديد الذى يتمشى فى خدودها ولعله الذبول فى عينيها .. مسكينه .. كثيرا ماانتهرها لا لشيء الا لكونه باشخولى السرايه .. وكثيرا ماأنب نفسه وتعجب كيف تعود على الشخط والنطر والزغد والتوبيخ حتى مع أولاده ؟ .. لكن .. أسكت ياشيخ .. أنت طول الليل والنهار فى شغل التفتيش .. أنت على الدوام باشخولى السراية و « دهبية » . انها مثلك تماما . كان الله فى عونها .. لا تهدأ لحظة واحدة . من بيت الناظر الى بيت الباشكاتب الى استراحة السراية الى الدار .. كانسة غاسلة طابخة ناقلة للمياه من الآبار البعيدة .. طول عمرها تباريك فى الجرى على السكك فى خدمة التفتيش .. كثيرا ماالتقينا سويا فى مكان واحد لغرضين مختلفين كلاهما يخص التفتيش أو بعض أهله .. لكننى خنشور .لاأعطى هدية أو حلاوة بق . . أما أنت يادهبيه ، فبفضلك وبحلاوة لسانك نكسو الاولاد ونطعمهم .. أعرف أنك الآن مهدودة الحيل .. قضيت النهار فى خبيز الست «هنومة» والليل فى غسيل الست «اجلال» ، ومع ذلك صعبت عليك دارنا ألا تنال من عنايتك ماتستحقه وها أنت تشمرين الذراعين تسجين المقشة تتقرفصين تبدأين فى الكنس ، هذا والله حرام .

ـ تعالى يادهبيه .. اتركى الكنس الآن .

سأفرش لك الحصير لتأكل

ـ أنت مهدودة الحيل .

ـ فشر .

ثم أكملت استدارتها حول نفسها وهى متقرفصة ماتزال تعمل بالمقشه :

ـ تحمل شيئا على دماغك .

ـ أحمل الدنيا كلها .

ـ كفى الله الشر ٠
ـ لا أعرف ٠٠ لكننى غاضب على هذه الدار ٠
ـ قل لى ٠٠ ما الذى يحدث الآن فى الاسطبل ؟
ـ لا أعرف ٠٠ لا أعرف ٠
ـ ان الدنيا قائمة على زبانها
ـ الست هنومة تريد أن تحرق الست اجلال ٠٠ وحضرة الناظر لايطيق رؤية حضرة الباشكاتب ٠٠ والباشكاتب يلصق به كل التهم ٠٠ كل واحد يقول انه خائف على مصلحة التفتيش ٠٠ ها ٠٠ وعلى الطلاق مايخاف الواحد منهم الا على مصلحته هو وحده ٠
ـ أى ٠٠ ى ٠٠ ى ٠٠ كيف ياكامل ؟
ـ أحدهما يتاجر فى عرق الانفار ٠٠ والثانى يتاجـــر فى محصول التفتيش ٠

أخذت « دهبيه » تتلفت حـــواليها فى توجس ، تنظر فى ثقوب الباب تبحث عن الآذان التى هى للحيطان ٠ اغتـــــاظ الباشخولى وصاح :
ـ مم تخافين ٠٠ كفرنا ؟
ـ اقفل فمك واخز الشيطان ٠
ـ لم يضيع الانفار ســـوى الخوف ٠٠ نعرف كـــل شىء ولانفتح فمنا بشىء ٠٠ ولوقلنا كنا قبضنا الثمن ٠٠ لكننـــا نسكت ٠٠ نتخيل أن السكوت له ثمن ٠
ـ ضحكت « دهبيه » ، شوحت :
ـ عشنا وشفنا ٠٠ للسكوت ثمن ٠
ـ كل واحد فى هذا التفتيش يعيش من الثمن الذى يقبضه جزاء سكوته ٠٠ هل يفعل أحد شيئا ؟٠٠ أبدا ٠٠ كل واحـد يرى ويسكت ٠٠ وكل من يقولون له : افعل كذا ٠٠ يفعـــل ٠٠ ويسكت ٠٠ وكل واحد يحب دائما أن يعرف ٠٠ ليتعلم كيف يبدو عليه أنه لايعرف ٠
ـ كامل ٠٠ قم يا حبيبى لتأكل ٠
ـ أحضرى لى « الطفح » ها هنا ٠
ذهبت « دهبيه » واثناء عودتها سمعته :

ـ أنا أحسن واحد فى التفتيش « لايعرف شيئا » ‥ انما والله لن أسكت بعد اليوم ٠
الطبلية نوضع أمامه :

ـ ما الذى ستفعله بحق الله ‥ هه ‥ ما الذى ستفعله ؟
وقفت شعرات ذقنه البيضاء ،كادت تسود فى نظر «دهبيه» لشدة الغضب الذى تراه لأول مرة فى وجه زوجها ٠
بقى ساكنا برهة ، وفجأة ‥
ـ انك تستهزئين بى ‥ انما أنا ‥ الذى يجلس أمامك هكذا ‥ يستطيع أن يفضح أجعص من هؤلاء ‥ اننى أعرف الكثير يادهبيه ‥ لكننى لاأستطيع الكلام ٠ ولقد طال سكوتى حتى ظنوا اننى ، بحق وحقيق ، لاأعرف شيئا ‥ مع اننى لو فتحت فمى لأتثاءب فسوف آخذ نقودا ‥ هاتى الأكل هاتى ٠ أنت عبيطه ٠

برقت عينه بفرح صبيانى مفاجىء ٠ عاد يتفحص ماأمامه على الطبلية غير مصدق لما يرى ٠ ماهذا ‥ ماهذه الأمله ؟٠
ـ نصف ديك رومى ٠
ـ ظننته نصف حصان ٠
ـ كل ‥ بالهنا والشفاء ٠
ـ لكن من أين ؟
ـ الست هنيه ‥ كانت تنتظر ضيوفا ‥ فكسرت رقبة أكبر ديك فى «عشة» التفتيش ‥ ولم يحضر أحد ‥ فجاء من نصيبنا ٠
ـ انه أعلم بالحال ‥

طبق من الكسكسى يخرج من تحت الطبلية تفوح منه رائحة السمن البلدى المقدوح ، ورائحة الشواء ‥ لم يضع وقتا ٠ مد الملعقة الخشبية وراح يداعب الكسكسى ويطوح به الى فمه فى نهم ، ثم قال وهو يفسخ اللحمة الى قطع صغيرة :
ـ دهبيه ‥ هذا الكلام لايخرج من عتبة الدار
ـ كلام ماذا ؟٠

ـ الذى قلته لك الآن ٠
ـ وحق أشرف خليقة الله لاأتذكر شيئا مما قلت
داعب شفتيها بشريحة من الفخذ وطوح فى فمه بأخرى :
ـ على فكره ٠٠ كلامي هذا دليل على حبى لحضرة الناظر ٠٠ ورحمة أبى اننى أتمنى له الخير دائما ٠٠ انه يعرف اننى أعرف وأسكت ٠٠ أسكت من أجل خاطره هو فقـط ٠٠ لكن لو على حد الباشكاتب كنت قلبت الدنيا على رأس الجميع ٠
هتفت فيما تضع يدها فى سيالتها :
ـ فكرتنى ٠٠ الست اجلال اعطتنى ورقة شاى ٠
آن له أن يعقد «زردة» شاى محترمة يعدل بها رأسه :
ـ طيبة والله هذه السيدة ٠٠ اننى أحبها ٠٠ والله ماأحد غيرها يجعلنى أطاوع الباشكاتب ٠٠ انها سكره ٠٠ لو وضعت على الجرح يطيب ٠٠ أما الباشكاتب استعنت عليه بالله ٠
قالت «دهبيه» فى غبطة :
ـ انه سيجعل ابنتـنا خادما فى أم الدنيا ٠٠ عند قريبة له هنـاك ٠
تراجعت الملعقة عن فمه ٠ هتف غير مصدق :
ـ بالذمة حصل ؟
ـ الرجل لم يكذب على أبدا ٠
ـ انه رجـل طيب والله ٠٠ اننى أحبه كـل الحب هـذا الباشكاتب ٠
طرقات على الباب ٠ نداء :
ـ كامل ياسليم ٠٠ ياكامل ياسليم ٠
توقفا عن الاكل ٠ أنصتا تجاه الباب ٠ قال الباشخولى :
ـ من ينادى ؟
ـ افتح
ارتعش ٠ نهض ٠ فتح الباب :
ـ شيخ الغفر ؟
قال «شيخ الغفر» لمن معه :
ـ هذا هو كامل سليم الذى تطلبونه ياأسيادنا

أخذت «دهبيه» تلم الاكل بسرعه . أما الباشخولى فقدراح ينظر فيمن يغفون بفتحة الباب : ثلاثة رجال غلاظ ، الواحد منهم يفلق الحائط بسيف اليد الواحدة . قال :

ـ ماذا .. ماذا ؟.

أشار له «شيخ الغفر» .. فخرج . قال :

ـ أنا عائد بعد قليل يادهبيه .

ثم أغلق الباب خلفه ومضى معهم .

●●●

ـ ماذا حدث .. خير ياجماعه ؟

ـ أنت مطلوب .

ـ أين ؟

ـ فى المديرية .

ـ المديرية ؟ .

استدار الباشخولى « كامل » عايدا ليبلغ الخبر الى «دهبيه» لكن يد كبيرهم كانت قد طوقت عنقه وأدارته فى عنف .فنظر اليه الباشخولى محاولا اخفاء غضبه ، لكنه نكس رأسه وسار.

●●●

كان الباشخولى يتوقف من حين الى حين ويسأل :

ـ خير .. لماذا لاتقولون لى ؟

فلا ينطق أحد . فيمشى . ثم يقترب من كبيرهم هامسا :

ـ أنا كامل عبد الحميد كامل سليم .

ـ نعم .. أعرف أنه أنت .. والا ماجئنا بك .

ـ ماذا حدث ؟

ـ لاأعرف .

ظل يمشى معهم . يخرمون من قلب الاراضى . يتخطون المصارف . جاء الظهر وجاء العصر واصفرت الشمس ثم احمرت ثم هبط المساء وهم مازالوا يسيرون بلا طعام .

فجأة توقفوا . رفع الباشخولى رأسه عن الارض قليلا ،فاذا

بالارض التى أمامه كلها لامعة ، فبدت فى الليـل المدلهم مثل بقايا شحم يلمع فى قاع اناء جوفه داكن كان التعب قد هده ، وبدأ يرى أشباحا تقف على رؤوسها أمامه · دعك عينيه فتحهما بصعوبة · أمامه بحـر عريض هائل لم يره من قبـل أبدا · اقشعر جسمه وشل لسانه فوقف ذاهلا صامتا · فوجىء بمن يطوقه من الخلف ويكتفه بحبل ويعصب عينيه بمنديل ·فوجىء بنفسه يتهاوى بسرعة ، ثم يهتز فى الفضاء رائحا غاديا عـدة مرات ·· ثم يطير كريشـة فى مهب الريح ·· ثم يسـقط فى أعماق البحر ·· ويغيب فى ظلام لا نهاية له ·



الفصـــل الثانى عشر

المـــــوت بالمجـــــان

(دخل الحكيم يركز عل النبوت)
(روح بلادك ياغـريب لتمـوت)
(دخل الحكيم يركز على جريدة)
(قال الحكيم ماليش خلاص فى ده)
(قالوا الحكيم في الزاويه جبته)
(ومشـــيت على قدمي وركبتـــه)
(قالوا الحكيم في الزاويه جبناه)
(ومشيت عـلى قـدمي وركبناه)

(بكائية من الدلتا)

شيء غريب قد حدث في الاسطبل ، جعل الناس تختلط ببعضها اختلاطا لم يسبق له مثيل : أى واحد ينام فى أىمكان .. وأى مكان يتسع للجميع « عمرو » الآن هو الكل فى الكل .. يقف ـ نصف وقفه ـ عى المذود .. يضع يده على خده . ملامحه ليست ملامحه .. وجهه يرتدى فى هذه اللحظة وجها آخر يبك الدم منه ، كأنه يبكى بلا دموع .. صوته أيضا يبكى، ينوح من أعماق بعيده :

الناس نابها بخت كامل وأنا نابنى ربع بخت ومال
والبين عملنى جمل .. واندار عمل جمال
لوى خزامى وشيلنى تقيل لحمال
أنا قلت يابين هوه الحمل التقيل ينشال ؟
قال ياجدع بطل وعوعه وامشى .
ان كان زمانك كده ايش يعمل الجمال ؟
زأر الاسطبل كله دفعه واحده :
ـ ياسلام .. تانى .. تانى ياعمرو .. تانى ياجبيبى
قال «عبد السلام » :

ـ بالراحة ياجماعه .. لاتزعقوا هكذا .. أنتم تعرفون أن «البين» وراءنا فى كل مكان .. «البين» يقف الآن تحت جدار الاسطبل .. لايهمنا منه طبعا .. لكن « البين » اذا قامت فى دماغه رحنا فى داهيه ..

ظلت الاصوات ساهرة فى الحلوق لكن شيئا من كلامها لايفهم . وارتفعت بعض الاكف وانبسطت فى الهواء متماوجة ترتفع وتنخفض كأنها تهبط بالاصوات الى قاع البطون .راحت الاصوات تهبط شيئا فشيئا . الى أن وضح صوت الارغول واخذ يطلق حشرجته المتقطعة ، والرعوس تتمايل مغمضة العيون .

تعجب «طلعت» من أن هـذه القطـع من البوص ، التى ظل «دياب» يقطعها من الحقل ويسويها بالمطواة ويخرمها ثم يدخل كل عقلة منها فى الاخرى يمـكن أن تخرج منها هـذه الانغام الجميلة التى تذيب الدموع فى العيون ، تذكر « طلعت » بأمه وبأبيه الذى لم يره ولم يعرف عنه شيئا .

كان «عمرو» ينظر الى «دياب» فى انبساط واعجاب ،ومثل المغنيين الكبار يضم أصابعه محـركا بها ذراعه فى الهواء أمام «دياب» ليهدىء النغم أو يلهبه .. ثم يبكى الارغول فى نشجة سريعة واحدة ، وارتفع صوت «عمرو» مدويا :

من فعل ليام كرهنا الدنيا وما فيها
النفس زهقت من الاحوال وما فيها
عجزنا من غير أوان والفكر بهدلنا
وكل ساعة نقول بكره حتتعدل
وصاحب العقل فى الدنيا عايش مظلوم
يشوف ويسكت ولايقدرش يتكلم
يبقى فى النار ومش قادر يقول : مظلوم
وصاحب الاصل من فعل الزمان حاير
الكلب شفته حكم .. أمامه الاسد حاير
الدنيا حالها كده .. فيها الاصيل حاير
لها أصل جاير .. وبيتوه الاصيل فيها

انطلقت زغرودة كسيحه بلا أجنحه . تلفتت جميع الرقاب تبحث عن أصلها ، عرفوا انها تلك المرأة التى سلقت شـيخ الخفراء ذات يوم . ضحكوا . وقف شـيخ خفراء التفتيـش السابق ونظر نحوها ضاحكا ..

ـ تظنين نفسك فى فرح ياوليه ؟
ـ الغناء يجعلنى أزغرد والسلام .
ضحك متلفتا حواليه :
ـ تظن أننا نغنى .. أننا ياوليه لا نغنى .. اقصد .. لسنا نغنى غناء الافـراح والليالى الملاح . . اننا نغنى بدلا من أن نبكى .

ـ البكاء مكتوب علينا حتى في التغنى ؟

دخل الأرغول واكتسح كل الاصوات وغطى عليها ، ناشجا طاغيا . في أعقابه دخل « عمرو » ..

ياعينى قـلى البكا يوم روايق لك
عماله تبكى ودمع العين رايق لك
عمال يخطط فىالتراب ورايق لك
وان آذن الله ورجعت أنا بـلدى
لاخلع هدوم الشقا وألبس هدوم بلدى
واعمل وليمه تكفى كل من بلدى
تفضى ياعين ويبقى الحى رايق لك

يا لـ . . ل يا .. ليل يالـ ..

ثم هوى على الارض راكعا يصرخ . قطعة من السماء سقطت فوقه باركة عليه .. ثم هبطت قطعة أخرى راكبة فوق كتفى دياب ، ثم راحت السماء تتساقط فوق الناس من كل ناحية، والصراخ يرتفع وينكتم فى الحال .أقدام تدوس فوق الاجساد وتهوى عليها بالعصى وقحوف النخيل . نحيب . نهنهة . . صوات ..

ـ هذه الاغنام تسكت فى الحال ..

ـ ولا كلمه

ـ المواشى تبطل جعيرها .

ـ يزن الدبور على خراب عشه .

ـ جئنا بالحبال والسكاكين .

ـ فلربما وجدنا من يستأهل الذبح هاهنا .

عيون الانفار ذاهلة . تلقى هنا وهناك . تعجب مما ترى: رجال غلاظ لايدرى أحد كيف وصـلوا الى المذود الدائر مع الحوائط الاربع .. رجال لم يرهم أحد من قبل فى التفتيش أو فى البلد ، سود الوجـوه ، عمالقة ، بعضهم يتقمـط مثل العساكر السوارى ويمسك كرباجا مطويا . بعضهم الآخـر يرتدى الجلباب ويحمل البندقية على كتفيه .

كفت الاصوات داخل الاسطبل . تصاعد من خارجه لغط

يتسلق الجدران من جميع النواحى ٠
العيون كلها ترتفع الى أعلى الجدار ، فى الفراغ الموجود بين الجدار والسقف الجملون ٠ سلم خشبى طويل يزحف على حافة الجدار داخلا ، ثم يأخذ فى الميل ٠ تلقفه أحد لابسى الجلباب حاملى البنادق، عدله، أوقفه مسندا اياه على الحائط . برزوجه الباشكاتب بطربوشه مثل القراقوز . راح يتكور على حافة الجدار ويتقرفص حتى زحف السلم تحته فاعتلاه وأخذ يهبط فى أعقابه ظهر افندى آخر ، ثم ثالث ، ثم رابع ، وخامس .

وقفوا فوق المنذود ٠ هبط أحد لابسى الجلباب حاملى البنادق ٠ غاص بين الاجساد ٠ سرت فى الاسطبل رجفة عنيفة تساقطت لها كثير من الاجساد ٠ زغد بسن العصا رجلا عفيا مشيرا له نحو المذود قائلا : «اطلع» ٠٠ فمضى الرجل كأنه يغوص فى وحل ٠ ثم تبعه أربعة رجال طوال عراض ٠ وحين صاروا أمام المذود أمرهم واحد من المقمطين بالصعود الى المذود فصعدوا يترنحون ٠ أوقفهم وراء بعضهم ، ثم أمسك أولهم من رقبته وكسر قامته وعدله فى وضوع الركوع ٠ ثم أمر الباقين أن يفعلوا مثله ٠ ففعلوا ٠٠ فصاح :
ـ تفضلوا ياسعادة البيه ٠

تقدم الباشكاتب وجلس فوق أحد الظهور واضعا ساقا على ساق ٠٠ ففعل مثله بقية الافندية ، واستراحوا فى جلستهم ٠ وكان ثمة فوانيس قد انتشرت على حافة الجدران الاربعة ٠
أشعل الباشكاتب سيجارة :
ـ هاتوا ذلك الولد المدعو طلعت
صرخ الجد «مهيوب» خابطا ركبتيه بيديه :
ـ كبدى ٠٠ آه ياكبدى ٠٠ الولد ٠٠ ماذا تريدون من الولد ؟
طار فى الهواء رجل كالخفاش ، ثم هبط عليه ٠ فكبسه فى الارض ٠ حينئذ اندفع «طلعت» يبكى فى فزع :
ـ آه ياجدى ٠٠ حاسب ياعم ٠٠ أنا أهه بس سيبه ٠٠

صاح الباشكاتب :
ـ تعالى ياولد ٠٠ تعالى هنا
صاح «مهيوب» وهو يبكى :
ـ اتركـوه ٠٠ انه صغير ولم يفعـــل شـيئا ٠٠ ما الذى فعله ؟

شكمه الرجل فى فكه بقبضته :
ـ اخرس أنت الآن ٠
ـ تضربنى وأنا فى عمر أبيك ٠٠ ياقليل الحياء ؟
شيع له لكمة فى جنبه ، فانكسرت قامة الجد « مهيوب » وتلوى من الالم :
ـ ملعون ٠٠ كافر ٠٠ مفترى
شيع له الاخرى فى بطنه ، والثالثــة فى صدره ، ورابعة فوق رأســه ، وخامسة وسادسة ٠ ترنح الجد « مهيوب » ٠ وسقط لسانه وراح يلهث ويزغــط ٠ بدفعه سريعة طوحــه الرجل خلف ظهره ووقف مكانه ٠ انطرح الجد « مهيوب » كما يتهاوى خيال المآته ٠ تلقفته أيدى بلدياته ، سحبته ، أوسعت له شريحة مددته فيها ٠ كان رأسه يتدلى ويتطوح ، ولما وضع أحدهم يده على قلبه وأمســك رسغه لم يجــرؤ على النطق بأن الجد «مهيوب» قد مات ٠

سقط «طلعت» من بين الايدى أمام الباشكاتب يرتجف ٠٠
ـ أنت طلعت ؟
ـ نـ ٠٠ نعم
نظر الباشكاتب الى الافندى الجالس بجواره ٠ قال الافندى :
ـ ياولد ٠٠ أين الاوراق التى معك ؟
ـ ضاعت ٠٠
ـ ضاعت ؟ ٠٠ مصيبة أمك سوداء
انفجـر «طلعت» يبكى ٠٠ لقـــد دخلت أمه فى الامر ٠٠ صـــاح :
ـ والله ضاعت
ـ كيف ؟ ٠٠ أين ؟ ٠٠ انطق

ـ أخذها الناس ومسحوا بها مؤخراتهم ٠
ضحك الأفنديه ٠ نظر أحدهم الى آخر ٠ ٠ قال الافندى المتكلم :
ـ هذا الولد يسوق العبط على الهباله
ـ السقف موجود والحبل موجود ٠٠ والكرباج ٠ ٠ ها هو ذا ٠

هكذا قال الباشكاتب ٠ ففى الحال تسلق أحد المقمطين السلم وربط الحبل فى القضبان الحديدية التى يستوى فوقها خشب السقف ٠ صنع منه عقدة مفتوحة الفم ٠ صرخ الافندى المتكلم :
ـ هيه ٠٠ تقول الحق أم ٠
صار جسد «طلعت» ينتفض ٠ نظر الافندى بجانبه ٠ تقدم أحدهم ورفع «طلعت» من تحت ابطيه وسار به نحو الحبل المعقود ، و «طلعت» يصرخ ويرفس الهواء برجليه :
ـ سيبونى ٠٠ سيبونى ٠٠ ياولاد الكلب
هبده الرجل فوق الاجساد ثم رفعه من جديد ليعلقه ٠
ـ سيبوه ياكفره ٠٠ يالصوص
تلفت الجميع ٠ وقف الافندية جميعا يبعثون البصر فى عمق الاسطبل ، فاذا بالمرأة التى سلقت شيخ الخفراء ـ والتى سبق أن زغردت ـ تزحف نحوهم وهى تنتفض كالطائر الذبيح :

ـ تريدون أن تصوروا قتيلا آخر ٠٠ لقد مات مهيوب ٠
ـ مات ؟ ٠٠ جدى مات ؟ ٠٠ ياخلق هو ٠٠ و ٥٠٠٠ ، جدى ٠٠ جدى ٠٠ وشق ثوبه من الطوق مثل الرجال ، وبرأسه الصغيرة دب الرجل فى وجهه فطار صواب الرجل وصرخ ، ووقع «طلعت» من بين يديه ، واندفع يجرى فوق الاجساد ، يتساقط وينهض وهو يجعر ويبكى الى أن وقع ولم يستطع القيام ٠ أما الرجل فقد أخرج منديلا راح يجفف به الدماء السائلة من فمه وأنفه . وكان لابسو الجلاليب حاملو البنادق قد أحاطوا بالمرأة وراحوا يضربونها ، فأطلقت صواتا

ملتاعا يمزق ليل التفتيش ويوقظ فيه حتى ورق الشجر ..
تكفل الرجال بتكميمها بشاشها الاسود لكنهم لم يتمكنوا من ايقاف عوائها المتواصل .
قال الافندى المتكلم :

ـ هاتوا الولد .
قال الرجل المقمط الذى يجفف دمه :
ـ الولد مغمى عليه
ـ نريد أن نعـــرف أين ذهبت الاوراق .. حتى لو كان ميتا .
ـ قلنا لكم أن الورق ضاع .. مسحنا به مؤخراتنا .
نظروا ليعرفوا من ذا الذى يتكلم . قال الباشكاتب :
ـ تعال هنا .. أرنا وجهك .
تقدم شيخ خفراء التفتيش بقـــــدم نابتة . هب ميـــه الباشكاتب :
ـ أهو أنت ؟ ..
ثم نظر الى الافندية :
ـ انه شيخ الغفر اياه .. المتهم فى السرقة .. والمحـكوم عليه أيضا .. امسكوه من فضلكم .. انه ضـلع كبـير فى الموضوع .
أمسكوه بالفعل . كتفوه . تمطع «شيخ الغفر» وفك نفسه من أيديهم . زحزحوه حتى ألصقوه بالحائط ونيموه على بطنه وجلسوا فوقه وهو يصرخ ..
ـ قلنا ضاع الورق .. لم يبق سوى ورقتين اثنتين
ـ أين هما ..

فتشه الرجال . أخرجوا من محفظتــه ورقتين مطـويتين أعطوهما للافندى المتكلم فتناولهما ونظر فيهما وصاح :
ـ صح .. هو الورق المقصود .. الحمد لله .
ـ اذن يكون هذا هو المجرم الاول .. اقبضوا عليه
هكذا صاح الباشكاتب . قال الافندى المتكلم :
ـ مبروك عليك السجن

جعر « شيخ الغفر» بصوت مشروخ :
ــ سجن ٠٠ ها ٠٠ ماالسجن وما الاسطبل ٠ ٠ انكم تنصبون على الانفار وعلينا بعد ان سرقتم عرقنا جميعا ٠ ٠ لن يتركم الله ٠٠ سوف يخلص لنا منكم يالصوص ياكفره٠

انهالت عليه العصى والكرابيج وصار يصرخ ٠ قال الافندى المتكلم :
ــ سوف تعدم اذا لم تقل لنا من أين جئت بهذه الاوراق ٠
ــ لقد وجدناها تحت الردم ٠
ــ من الذى وجدها ؟
ــ واحد من هنا ٠٠ دياب ٠٠ نعم دياب

قال الافندية :
ــ أين هو دياب هذا ٠٠ هاتوا دياب
ــ أنا ٠٠

وتقدم «دياب» نحوهم ٠
ــ شوفوا الواجب معه أولا ٠

تقدم منه أربعة رجال ٠ علقوه فى السقف من تحت ابطيه انهالوا عليه ضربا بقحوف الجريد وهو يصرخ :
ــ أنا فى عرضكم ٠٠ فى عرض النبى ٠٠ والله العظيم أنا لقيته تحت الردم ٠٠ قلت ورق للولد يذاكر فيه ٠٠ أحلف على المصحف ٠٠ أريكم المكان الذى وجدته فيه ٠

لكنهم لم يكفوا عن ضربه بينما راح الافنديه يتبادلون النظرات ويميلون على بعضهم بعضا ويتهامسون ٠ فجأة اكتشف «دياب» أن ذراعيه طليقتان دفع جسده الى أعلى وأمسك الحبل بيديه فارتفع حتى خبط رأسه فى القضيب الحديد ، والعصى تلاحقه ٠ تمكن من الاستناد بذراعيه على القضيب الحديد ، ثم وضع كل قوته فى قدمه وطوح بها فى وجه أحدهم فسقط يصرخ والدم يتدفق من فمه ٠ انهالت العصى ٠ لكن القدم الاخرى لبست بعنف شديد فى وجه آخر ، فسقط أيضا ٠ ثم أخذ «دياب» يرفع نفسه أكثر وأكثر حتى استطاع أن يشبك طرف قدمه فى القضيب الحديد ، ثم

اقترب منه ولوى جسده فصار نائما فوق القضيب ، ثم أخرج من جيبه مطواة قطع بها الحبل وأمسكه بيده ثم اعتدل راكبا كالبهلوان المدهش ، وصار يصرخ بأعلى صوته :

ـ قتلتم مهيوب ياكفره .. ماذا تريدون ؟ .. والله العظيم لن يفوت مقتل مهيوب على خير .. ماذا فعل بكم هذا العجوز الغلبان ؟ .. ونحن أيضا .. ماذا فعلنا بكم ؟ .. دعونا نعود الى بلادنا .. ما الذى أخذناه منكم ومن التفتيش ؟هه؟ .. أكلتم علينا أيام شقاءنا والآخر تضربوننا . نشتغل فى أرضكم بعرقنا ودمنا ولانأخذ أجرا وتريدون قتلنا ؟ من يقترب منى سأشرب من دمه .. لقد نشفت البركه وبانت زقازيقها .. ليس فى قعر البركة غير الطين لقد عرفنا كل شىء .. طول عمرنا نشتغل بالعربون .. وقليل الشرف هو الذى يستطيع العيش بينكم .. أما نحن .. فالضرب فوق . . والله عال .. راح الباشكاتب جاء الناظر .. راح الخولى جاء الباشخولى .. على ماذا هذا كله !.. سوف أخرج من هذا الاسطبل الى بلدنا والرجل يتعرض لى .. نعم ستقولون لى أننى لن أستطيع .. هل لكم عندى شىء ؟ أنا الذى له عندكم .. أنا الدائن .. أنا الدائن .

وقف الباشكاتب صارخا :

ـ هاتوه .. اصعدوا اليه وهاتوه .. سأضربه بنفسى .. لن يشفى غليلى سوى أن أضربه بنفسى حتى يموت .

وكانت القضبان الحديدية التى يرتكز عليها سقف الجملون قد صارت مركبة ، يزحف عليها رجال قادمون من هنا وهناك وقد تنبه « دياب » اليهم فطوى الحبل وشيع به ضربة عنيفة فى عين أحدهم سقط على أثرها . ثم زحف نحو الجدار ، واذ رأى شخصنا آخر يقترب منه عند تقاطع القضبان ضربه بقدمه فى ساقه فاختل بتوازنه وسقط هو الآخر يصرخ . وكان هناك شخص ثالث يقترب من ناحية التقاطع الآخر نجح فى أن يطوق ذراعية من الخلف ، لكن دياب بكل قوته واستمواته فك نفسه

وطعنــه بالمطواة فى رقبته فسقط فاقــد النطـــق · فصرخ الباشكاتب :

ـ ماذا تنتظرون بعد هذا ؟·

وكان « دياب » قد صار على حافة الجدار مستعدا للقفز الى الخلاء · لكن طلقا ناريا لحق به ، فاندفع الى الامام دفعة صغيرة ثم ارتد وهوى على أرض الاسطبل · وهنا صرخت امرأة صرخة فــزعة :

ـ يالهوى ·· مات طفلى ·· وقع فوقه ·· مات ··

وامتلأ الاسطبل يصراخ وهدير ارتجت له الارض · ولكن قلب التفتيش لم يهتز ·



الفصل الثالث عشر

بيوت للغـــــباء

« حكمت يابين بخنقى •• »
« بحبح الخيمه •• »
« لا أم تبكى •• »
« ولا عمـــه •• »
« ولا خيـــه •• »

(مقطع من حدوته مصرية قديمه)

— ١ —

اريد وجه النهار . صار رماديا قاتما ، لانسمة هراء الجو ناشف كالحديد الصلب ، كأن الكون كله قد اختنقت انفاسه كانت أكوام الردم تترامى على حافة الترعة ، واشجار الجازورين تقف فى قلبها طويلة كهيافة الرجال ، تتدلى فروعها ميتة لاحياة فيها . شراذم الانفار ملقاة على أكوام الردم رجالا ونساء وأطفالا يتسربلون فى خرق لونها لون الافق الرمـــادى القاتم الكئيب لون آكوام الردم لون أقرع الجازورين: بقايا طين أزرق جاف.
كانوا يتناثرون على قمم عاليه . يتقرفصون ينظرون أمامهم فى بلاهة وخوف ، يلتصقون بالردم مثلما تلتصق خرقهــم بأجسادهم : بفعل الرطوبة وحدها . عيونهم مرسلة الى هناك، حيث ينتصب القصر شامخا أمامهم قاتم الوجه مخيفا ، معقـــد الشكل ، عشرات النوافذ والابواب والاضلاع ، أعمـــدة من النوافذ الصغيرة تتسلق أعمدة أخرى من النوافذ الكبـــيرة ، أسقف من الجملون متعددة الاحجام والزوايا ، فوانيس معلقة فى مشاكيها ، سور أخضر وحديد وجرس وبنادق ، الكون كله صامت ينتظر انفجار بركان .
الاسطبل فى نهاية البصر ، يلتف حول القصر كفتحة القوس القصر وسطه كنجمة بأربع وعشرين ضلعا ، مع ذلك فأقدام الانفار تقطع المسافة بين القصر والاسطبل فى ضحوة كاملة . العيون الشاخصة يصيبها الملل ، ترتد باحثة عن بعضها البعض فى لمعات بلا معنى ، قد اختفى منها الحزن ، لم يعد فيها سوى البلادة ، بقايا ذبول تجمد فى الوجوه منذ زمن بعيـــد .. من يعزى من ؟ .. ابن هذه المرأة دهسته الاقدام .. زوج هـــذه المرأة فرمه النورج .. هى نفسها انكسر ساقها مرة وانفقأت

لها عين مرة أخرى ، تنقيا الآن دما فليس فى بطنها ماتتقيأ سوى أمعاءها ٠٠ هذا العجوز المسكين مكسور الضلوع فى ليلة الاسطبل القريبة ٠٠ هذه الصبية مذبوح وجهها بالكرباج ومات أبوها ولم تعرف وربما لن تعرف انه مات ٠٠ هذا الصبى مات جده وثمانية من بلدياته ، مع ذلك فها هو ذا يجلس بينهم وقد شاخ عمره تماما وكبر اربعين عاما دفعة واحدة ، يتقرفص مسندا رأسه على ذراعيه فوق ركبتيه ، فحمة احترقتمن لهيب البكاء وحرارة المأساة فلم يعد فيها نفس تقول به آه ٠

فجأة تقلب ، كأن الارض مالت فحركتهم فبعثرتهم ثم عادت فألصقتهم بالارض من جديد فى غمضة عين ٠ شخصوا فى اتجاه النجمة الهائلة ذات الاربعة والعشرين ضلعا التى تحتويها فتحة القوس الاصفر الشاحب ٠ كانت (النيسابه) خارجة من البلد متجهة نحو الطريق الزراعى ٠٠ فرسان كبيران فى المقدمة ، فوق كل فرس رجل متقمط بالاصفر فى أصفر وجهه أسود غليظ الملامح ، طربوشه مثل وجهه اسمر كالح فى يد كل منهما كرباج مطوى ٠
خافهما ظهرت «الكارتة» بجرسها ، وراءهاخفيران . ظل هذا الموكب يقترب ويقترب ويملأ الدنيا غبارا ، حتى اذا ما استدار على الطريق الزراعى وصاريمشى بحزاء الانفار ـ هدأ من خطوه والتوى الفرسان داخل الكتل المتراصة ٠ صاح أحدهم :

ـ أين الولد المدعو طلعت ؟
نكست الرءوس ولم ترد ٠
ـ قلنا أين المدعو زفت ؟
ارتفعت الرءوس من جديد ٠٠ راحت تتلفت حواليها فى بلاهة

لا تعرف أين احد ، لا تقوى على النطق .
وصلت « الكارته » توقفت واطل منها وجه أحمر شاب الملامح ، صاح :
ـ حاولوا أن تعرفوه بالهدوء ٠٠ اذا كان قد مات هو الآخر فأين جثته ؟
نزل احدهما عن فرسه مطوحا كرباجه المطوى فى الهواء ٠ جاء خفير يجرى ٠ أمسك بالفرس من لجامه ٠ صار حامل

الكرباج المتقمط يجوس بين أكوام اللحم المتراصة ، يتفرسها يزغد الصبيان واحدا واحدا بطرف الكرباج قائلا :

ـ انت طلعت ؟

فيشخص الصبى نحوه فى ذعر هازا رأسه بالنفى . فلما اقترب من « طلعت » كان الكرباج قد سئم الزغد وسئم حامله السؤال بالنظر فيه . كان « طلعت » يحس انه ميت بالفعل ولن يقوى حتى على الاحساس بالضرب لما تجاوزه الكرباج والمارد ازداد رأسه التصاقا بذراعيه ولم يكن فى رأسه شيء سوى الردم والطين المعجون بأنهار الدموع .

ضاح الوجه الاحمر المطل من فتحة الكارته :

ـ على كل حال سوف نجيء به من أى مكان يذهب اليه .. انه مطلوب فى التحقيق ولابد أن يظهر ولايخف .. ان ظهر من تلقاء نفسه فسوف نراضيه ونكرمه واذا قبضنا عليه فسوف نريه شغله .

ثم اشار بذراعيه نحو الاسطبل فى رصاته :

ـ من كان له جثة قريب أو أخ أو أب أو أم او اى شيء فليذهب ويتسلمها لقد أمرنا بدفنها .

ثم اختفى وجهه ، صعد المارد الى فرسه . استأنف الموكب زحفه من جديد أخذ يتباعد ، يختفى بين شواشى الجازورين البعيدة يصبح قطعة من لونها الرمادى . أخذت الاجساد تزداد التصاقا بالردم ، مثلما تلتصق خرقهم بجلودهم : يفعل الرطوبة وحدها .

ـ ٢ ـ

ـ ليس للغرباء فى هذه الدنيا بيوت .

هكذا قال « طلعت » وهو يقف حائرا أمام جثة جده «مهيوب» وجثث « دياب » و « صالح » و « سماعين » وغيرهم من بلدياته . كانت عيناه قد ضاقتا وذبل فيها الضوء من طول البكاء ، مع ذلك فخيوط الدموع تنثال على خديه دون صوت .

ـ هيه .. ليس للغرباء فى هذه الدنيا بيوت .. انما لهم مقابر .

قالت العجوز التى سلقت شيخ الخفراء ذات يوم ٠ ثم تحاملت وذهبت الى «طلعت» واحتوته فى صدرها :
ــ كفاك بكاء ياولدى ٠٠ لقد قطعت قلبى وقطعت نفسك ٠٠ مثلك لايصح ان يبكى ٠٠ مثلك رجل ، ولد رجلا ٠٠ فتحمل ماأصابك يكرمك الله ٠٠ والله انك لرابح فى دنياك ٠ وأن الله لمعوضك جزاء مالقيت من اختباره ٠٠ فلاتحزن ياولدى ٠٠ استكان «طلعت» فى صدرها واختفى ، وكان يرتعش كسمكة فوق النار ٠ لم يعد فى الاسطبل أحد من بلدياته أو ممن يحملون همه ٠ حتى « عمرو» أصابته طلقة رصاص فى قلبه ٠ «عبد السلام» و« شيخ الغفر » و«الاعرج» لم يعد لهم وجود ، ولابد انهم ذهبوا مع النيابة ٠ الاسطبل لم يعد مزدحما بأحد ٠ أين ذهب كل الانفار ؟ ٠ لايعقل أن يكونوا كلهم قد ماتوا ٠ لابد ان كثيرين منهم قد هربوا ٠أما هو فكيف يهرب ؟ ٠ كيف وأمامه جثة جده «مهيوب» وجثث بلدياته ؟ ٠

احتضنته العجوز ٠ صوتت :
ــ أليس هنا من رجال ؟٠٠
ربما كانت صادقة ، فليس هؤلاء برجال أبدا ، مع انهم ذكور ، يتكورون على أنفسهم يعلوهم الصدأ لايجرءون على رفع هاماتهم فى اى رجه ٠

ــ قوموا ياأبناء السفلة وادفنوا موتاكم ٠٠
هرش واحد فى قفاه ٠ بصق آخر على الارض ٠ بصق ثالث ماذا يفعلون ؟٠ انهم لابد أن يدفنوا موتاهم هذا حق ٠ ولكن أين يدفنوها ؟ أين المقابر أولا ؟ وأين ماء الغسل والاكفان؟
كانت أبواب الاسطبل مفتوحة على وسعها ٠ من أحدها تقدمت العجوز ساحبة «طلعت» من يده فى حزم وقوة :

ــ تعال معى ٠٠ أنت اللى راجل انت وحتستحمل ٠
مضى معها دون تردد :
ــ الى أين نذهب ياخاله ؟
ــ امض معى ٠٠ ألست تريد أن تدفن جدك ؟

ـبكى «طلعت» من جديد،وتكسر صوته في نهنهة ، وشعر يقلبه يهتز وينتفض :
ــ و٠٠ أمي ٠٠ أمي ياخاله ؟
ــ مالك ولامك ٠٠ مادخلها هنا ؟
ارتفع صوته بجعير ملتاع :
ــ ماذا أقول لها ؟ ٠٠ كانت تخشى أن يعود لها بدونى ٠ فماذا بي سأعود لها بدونه ٠
ــ الحى أبقى من الميت ٠٠ لقد أخذ المرحوم عمره ونصيبه ٠٠ الدور والباقى عليك انت ٠٠
ــ و ٠٠ و ٠٠ أمى ٠ انها لابد أن تراه ٠
ــ ياكبدى ٠٠ وكيف تراه ؟٠
ــ ألا نستطيع أن نسافر به ؟٠

ــ سافر ان قدرت ٠٠ يالك من ولد طيب ٠٠ كيف تسافر به؟ ٠٠ تقطع الطـــريق من هنا لبلدتكم في عشرة أيام عـلى قدميك ٠٠ من يحمله لك ؟ ٠٠ تحمله أنت ؟٠٠ حتى بلدياتك لم يبق منهم سوى أبى كرش وأعور العين وأبى طحال ،أتظن أنهم يحملونه لك ؟ ٠٠ تمـــوت من الجوع والبرد والعطـش والتعب في الطريق ٠٠ تتعفن جثثكم جميعا وربما أكلتـكم الذئاب قبل كل شيء ٠٠ امض ياولدى ٠٠ لاتكن عبيطا ٠ ٠ اكرام الميت دفنه ٠

وكان الاسطبل يتراجع خلفهما ويبتعد ويتضاءل حجمه ٠ والعجوز تحجل على الطريق الزراعى و«طلعت» يلهث بجوارها غارقا فى الدموع وفى العرق ، يتعثر يكبو يعتدل ٠ أخـيرا لاحت لهما ربوة عالية تتصاعد منها رقاب ورؤوس حجـرية بيضاء ، وأشجار عتيقة ، وأشواك ٠ وحلفا ٠ انحرف الطريق الزراعى المعد للعربات والكارتات ، وصـــار الى اليمين مدقا منحدرا ٠ أخذا يصعدانه ويغوصان بقدميهما في التراب ٠
ــ السلام عليكم ٠

قالت العجوز ٠ دهش «طلعت» لان ثمة أحد لم يكن موجودا يتلقى السلام ٠ لكنه مشى وراءها ، فظللتهمـا فروع جميز

عتيقه ممتدة متعانقة تصنع كهفا مظلما فى عز الظهر . تسربت الى أنفيهما رائحة زهور برية نفاذة يسمونها فساء الكلاب ، ورائحة أشواك حادة لها عشرات الاسماء . والمقابر مرتمية تحت الاشجار وفى قلب الحفر ، بعضها مبنى على هيئة منزل صغير ، وأخرى على هيئةهرم مستطيلمنتفخ كظهر الجاموسة، وثالثة على هيئة مصطبة ورابعة مجرد كومه من الرمليعلوها شاهد .

اقشعر بدن «طلعت» وأحس بجلد وجهه يؤلمه من الوخز ، وبجفونه تدب فيها نار حامية . راح يتابع العجوز ، وراحت هى تدخل بين الصفوف وتخرج وترتد عائدة وتقف ناظرة حواليها متمتمة بكلام . تناهى الى سمعيهما صوت هدير يزحف من جميع الاتجاهات ، لزحفه على الارض وقع مخيف ومقبض . لغط غير مفهوم وصياح . ثم صار الزحف يقترب ويقترب حتى امتلأت ربوة المقابر بالاشباح تظهر فجاة من منحدر أو تخرج من حفرة أو تهبط من عل . ارتعد «طلعت» وازداد اقترابا من العجوز وقد أحس فىظلها بكثير منالامان، فهو يوقن انها قوية قوة الابد ، وتمنى أن تكون رجلا يصادقه ويذهب معه الى كل مكان .

غمزته فى يده بألا يخاف من شىء . فتوقف بجوارها .. مرتعشا . تكاثرت الاشباح وتناثرت الى أجزاء تقف أمام المقابر أو تلف حولها أو تتصنع بعض الاصلاحات ..

قالت العجوز لطلعت كأنها تزيل خوفه :

ـ جاء كل واحد ليحمى مقبرته .. يظن اننا جئنا لنفتحها ونحشر فيها بلاوينا .. لكن لا .. أنا لاأحب نبش المقابر .

سحبته ومضت نحو العمق ناظرةبعينها هنا وهناك ،تلقى السلام على الواقفين وتعافيهم بالعافية كأنهم أقاربها المقربين ، تقرأ الفاتحة لكل قبر تمر من أمامه اكراما لأهله وبعثا للطمأنينة فى نفوسهم ، ثم ارتفع صوتها فى الوجوه وقد لمعت عيناها ببريق جهنمى مخيف :

ـ أنا لاأحب نبش القبور أتفهمون ؟ .. أعرف انها ضيقة

.. ضيقة .. فكيف أضيق على أهلها أكثر ؟ . . القبــور ضيقة لانها تزدحم بذنوبنا التى تدفن معنا .. ولكن ..هناك موتى لابد من ايوائهم .. الغريب مكروم لأجل النبى ياناس .. ومن لم يكرمنا أحياء ينوبه الثواب اذا أكرمنا موتى . . أعرف أنكم ياأهل هذه البلدة غرباء مثلنا وان كنتم تبيتون فى دوركم .. وأعرف انكم تعرفون أن دوركم ليست بدوركم ، وانكم ضيوف عليها تؤجرونها من الزمن بعرق السـنين لمن يقبض وهو مرتاح ، ولهذا فأنتم تهتمـون بهـذه الدور التى تقفون الآن لحراستها من سطوة جثثنا .. أنتم محقون فهذه دوركم الحقيقية .. هذه دوركم التى تزينـونها وترطبونهـا وتتهيأون للرقاد فيها آمنين مطمئنين .. ان الله حق والمـوت حق .. وهذه الدور لن تحميكم من جهنم .. فلا يحميكم من عذاب الجحيم الا سلامة نفوسكم .. ان الاجسام اذا تجاورت صنعت جسرا من النخيل الاخضر فى جنة الخلد .

تقدم منها رجل وقور ، يرفع ذيل ثوبه الابيض النظيف عن الارض ، ويطوح بيده المسبحة :

ـ اسمعى ياخاله .. كلامك حق . ولكن .. ضعى نفسك فى موضعنا .. اننا نتشاءم من فتح مقابرنا حتى ولو تبرعا لوجه الله .. لكنا والله نصدق كلامك ويقول كل منا لنفســه

أفظع منه .. لكن ماذا نفعل ؟ النفس أمارة بالسوء .

وكانت سحابات الغبار الكثيف قد هدأت قليلا ، ولكنها سرعان ماارتفعت ثانية قادمة من اتجاه الاسطبل . ثم ازدادت كثافتها وظهر من خلفهـا معظم الذين كانوا فى الاسطبل ، يمشون فى بلاهة كنعوش تسير وحـــدها ، فما أن وجـدوا «طعلت» و «العجوز» حتى وقفوا منتظرين .

بدأ الرجل ذو الثوب الابيض النظيف يتجه اليهم :

ـ حاسبوا ياأسيادنا .. ليس هكذا تدخلون المقابر . .
انكم تدوسون فوقها وتدهسونها .. هذه جريمة ..

ـ قالت العجوز فى حده :

ـ أما الذين يدوسون فوقنا فليسوا مذنبين .

استدار اليها :

ـ شوفي ياخاله ·· أرض الله واسعة ·· وكلنا سنموت ·· وربما نموت أشنع ميته فنجد من يستر لحمنا ·· تعال ياخاله ··

تعال معى ·

واستدار وصار يمشي · فمشت بجواره والجميع خلفهما · مشوار طويل بين الصفوف أفضي بهم الى وسعاية كبيرة على شكل حفرة ، كأنها بئر جف من زمان · قال الرجل ذوالثوب النظيف انها بفعل النشاب واللصوص في الزمن القديم ، وأن هذه الوسعاية هي الوحيدة التى لايملكها أحد ، ولا يريد أن يملكها أحد ، فهيا ادفنوا فيها موتاكم ، أتنفع ؟ أنا شخصيا أرى أن البطر عليها فعل لايرضى الله ·

أومأت العجوز برأسها موافقة ، ثم نظرت الى بنى بلدتها الذين جاءوا وراءها · صاحت وهى تشمر ذراعيها :

ـ اذهبوا وانقلوا الجثث وهاتوها الى ·

دب فيهم الحماس وانطلقوا يبرطمون خلف بعضهم ، فلقد وجدوا ما يمكن أن يفعلوه · أما «طلعت» فقد انزوى بعيدا يحاول البكاء ولكن دموعه تحجرت فى حلقة الجاف · صاحت العجوز فى الرجل ذى الثوب النظيف :

ـ ايتونى بفأس ومقطف

أخذ الرجل يهرول مبتعدا · تابعه «طلعت» فرآه يختفى بين المقابر البعيدة · التوت أمعاؤه ، التوت رأسه نحوالعجوز كانت تلف حول الحفرة وتقيسها بقدمها طولا وعرضا · ثم ظهر صف من الرجال يمسكون الفئوس والكريكات والمقاطف اتضح فى مقدمتهم الرجل الذى كان يلبس جلبابا نظيفا وقد خلعه وظل بالفانلة والسروال ، فما أن اقتربوا من الحفرة حتى صاح :

ـ هيه ·· هيا يارجال ·· كله فى سبيل الله ·

انقضواعلى الحفرة وانهالت فئوسهموكريكاتهم تكومجوفها وتنزحه وانطلق آخرون يجلبون أكوام التراب من كل ناحية ثم امتلات الدنيا كلها بالغبار ، اختفى كل شىء اختفاء تاما ·

أقدام تزحف مقبلة تئن وتتوجع وتبسمل وتحوقل . صاحت العجوز :

ــ انتظروا بعيدا .. ضعوا الجثث ها هنا بجوار بعضها .. اذا لم يحضرها ، الماء وجب التيمم حتى فى الغسل .

نزلت الى الحفرة التى ازدادت عمقا واتساعا كحجرة كبيرة تقرفصت وانكمشت على نفسها ، وظلت تتقلص وتتقلص . وتختفى أطرافها شيئا فشيئا داخل ثيابها السوداء ، حتى رأسها لم يعد له وجود . تحولت الى كومة من الفحم تتقلص وتنفرج ، ثم ظهر ذراع ، وخلفه ظهر الثانى . ثم نهضت واقفه . فوقع من جوفها ثوب ابيض ذو كورنيش . رفعته فى يدها فتبينوا انه قميصها الداخلى ، ودهشوا من نظافته ظلوا يبحلقون فيها ، فاذا بها تمزقه بكل هدوء ، الى شرائح متساوية . تصنع منها أربطة وألثمة ، وصاحت :

ــ ايتونى بواحد واحد .

ففى الحال اقتربت أذرع الرجال بواحد كلوح الخشب . تلقفته أذرع أخرى من داخل الحفرة وطرحوا الجثة أرضا فى هدوء . تقرفصت أمامه العجوز وأسبلت عينيه وصاحت بصوت مرتعش رهيب :

ــ أشهد أن لا اله الا الله .. الموت حق .

ثم راحت تمرر يديها على الرمل الطرى المنزوح من الحفرة ، وتعود فتمررهما على الجثة متمتمة بكلام مضغوم . ثم سحبت شريحة من قميصها ولثمته . صار «طلعت» ينتفض كفرخ مذبوح ، لقد كانت جثة «دياب» ، ها هى ذى العجوز توسع لرأسه مكانا فسيحا ، ثم تصنع من التراب جسرا رفيعا . ثم طلبت الجثة الثانية فعلت بها مافعلته فى الاولى . الى أن أقبلت جثة الجد «مهيوب» تشق سحب الغبار مندفعة نحو الحفرة ، وكانت المحفظة تتدلى من فتحة الصديرى المربوطة بفتلة دوبارة .

غاص «طلعت» فى بئر سحيق مظلم . صار يطلق صيحات هستيرية متتالية متداخلة ، ويلقى بنفسه فوق جده ويصرخ

فى شراسة . يشده الرجال ويحكمون لف الاذرع حوله ولكن الجسد النحيل ينتفض من الالم ويفقد القدرة على النباح ، وتتحول أصواته الى رغوة من الزبد تتناثر بين شدقيه .

وحين كان الرجال يحملونه عائدين به الى الاسطبل خلف العجوز المتعبة لم يكن يدرى بأى شىء مما يدور حوله ، ولم يكن يحس بيد العجوز وهى تدس محفظة جده فى جيبه هامسة فى أذنه :

ـ احذر أن تضيعها .. انها قسيمة زواج أمك .. ربما صارت مجرد ورقة لانفع فيها .. ولكن .. من بغيرها يصدق أنك من أب وأم معلومين ؟

وفى تلك الليلة لم يغلق الاسطبل من الخارج بالقفل .. لأن الذين لم يهربوا غير قادرين على الهرب .

ـ ٤ ـ

رغم أن الاسطبل يبيت مفتوحا منذ ليال ، الا انهم حين يستيقظون فى الصباح يظلوا فى أماكنهم لايتحركون الا بعد أن يجىء من يفتح الباب داخلا يصيح فيهم : «انهض ياكلب أنت وهو .. تظلوا نائمين للضحى ؟» .

فيهبون واقفين .

واليوم هبوا واقفين على الرغم من أن أحدا لم يصح فيهم تلك الصيحة المعهودة . كان الباب قد انفتح بهدوء وأطلق زيقا غليظا ، ثم دخل رجل لم يروه من قبل ، يرتدى جلبابا بياقة من الاقطان وكمين رفيعين وفتحة الصدر قصيرة كفشخة الحنك ، جلباب لا يرتديه الا القصابين وتجار الطيور وتجار الخضار ، وقد لايكون الشخص نفسه واحدا من هؤلاء ولا أولئك ولكنه يرتدى هذا الثوب اكراما لأهله ورمزا على انتمائه لهم .

ظل واقفا برهة لاينطق حتى اكتمل وقوفهم جميعا . فقال بهدوء مخيف :

ـ اسمع يامقصوف الرقبة انت وهو ·· وجع دماغ لاأريد ·· أنا تعبان وخلقي ضيق ·· ولاأحب اعادة أي كلمة أقولها
ـ هي كلمة ·· والآن ·· تعرفون أن قدمكم كان على أرض الوسية نحسا في نحس ·· الدود يرعى الآن في القطن · · كل شيء تغير اليوم في الوسية ماعدا أنتم ·· الناس الذين كنتم ترونهم كل يوم تاب الله عليهم من رؤية وجوهكم النكدة ·· لم يعد هناك خولي واحد ممن كنتم تعرفونهم · · والذين كنتم تعرفونهم من قبل شيء ، والذين ستعرفونهم اليوم شيء آخر ·· انهم يفهمون أنكم لاتحسون الضرب الا بالمسوقة ·· فاتقوا الله في أبدانكم وامتثلوا للعمل بما يرضى الله ·· والآن ·· شدوا حيلكم ·· ارفعوا رؤسكم · انفخوا صدوركم واسترجلوا قليلا انكم سوف تعرضون الآن على سيادة المندوب شخصيا وبذات نفسه ·· نعم ·· أتفهمون مامعنى المندوب ؟·· المندوب هنا من ليلة أمس ، وسوف نذهب اليه جميعا ليرانا ويتأكد أن في التفتيش رجالا وأنفارا بحق ·· فهيا ·· صفوا انفسكم بأنفسكم وتحركوا أمامي ·

تدافعت أمواج هزيلة من الاذرع والمناكب والارداف محاولة أن تصنع من نفسها صفا واحدا ·

ـ ٥ ـ

كانت مقدمة الطابور تقبل من بعيد تطوح أذرعها في الهواء وتبدو كالغربان الكالحة ·

وكان في انتظارهم مجموعة من الرجال تمتلىء بهم وسعاية أمام القصر ، فلما تكامل طابور الانفار صدر الامر بتوقفهم في مكانهم ·· فتوقف الانفار في أماكنهم ··

أتسلت الرجل الذى أتى بهم من الاسطبل واتجه نحو مجموعة الرجال وشخط فيهم :

ـ صفوا أنفسكم أنتم أيضا

صاح واحد منهم :

ـ كيف ياباشخولي ؟

زحفت الزغدات واللكزات بين ظهور الانفار ، وتعاقبت الهمسة :

ـ باشخولى ٠٠ باشخولى السراى الجديد ٠٠

قال الباشخولى الجديد :

ـ ألا تعرف كيف تصطف ياأعمى العين ؟

كان الرجل بالفعل أعمى ، كان أعمش العينين يربط رأسه بمنديل محلاوى وينظر فى موضع قدميه كلما خطا ٠

صاح الباشخولى :

ـ «القيده» فى الاول ٠٠ والساقه فى الآخر ٠

ـ قيده ؟٠٠ وساقه ؟

نظر الانفار فى قائل هذه الكلمة ، فاذا به رجل هزيل ذى قدم واحدة ، يتابط عكازا بدلا من الساق المفقودة ، ويحجل بالقدم والعكاز رائحا غاديا مطوحا بخرزانته فى الهواء ٠

برطمت العجوز فى تعجب :

ـ لم يبق سوى هذا الاعرج المسخه يعملونه خوليا علينا ٠

فهمس واحد بجوارها ؟

ـ ستجدينه أشدهم قوة ٠٠ كل ذى عاهة جبار ٠

احتدت الأصوات بين مجموعة الرجال ٠ ارتفع صوت الباشخولى مزمجرا :

ـ أنا الباشخولى واختار كيف أشاء ٠

ـ انك لم تعين بعد ٠٠

ـ لكنهم كلفونى بالعمل أمامكم ٠٠ فما معنى التعيين اذن ؟ ٠

ـ انهم سوف يعيدون النظر فى هذا الامر ٠

ـ أخرس ياأبا طحال ٠٠ ياعيان بكيفك ٠

دقق فيه الانفار ٠ كان بالفعل آكرشا مريضا بالطحال ، أصفر الوجه حاد الملامح لاينبىء وجهه عن أى خير ٠

ـ «القيده» يقف فى أول الصف ٠٠ هيا ياحكيم ٠٠ امسك «القيده»

برز «حكيم» ، رجل قصير غليظ ذو شارب مفتول ،علىوجهه

جد مثير للضحك • صار يتهــادى كالبطة المختالة ثم وقف في المقدمة بجوار صيف الانفار •

ـ الذى وراءه •

هكذا صاح الباشخولى ، ثم أردف : اطلع يافلان •• وراءه فلان •• ثم فلان ، حتى اكتمل صف من الخــوله بجوار صف الانفار : القيدة « حكيم » ذو الشارب المفتول ، والساقه الرجل الاعرج ذو الساق الواحدة والعكاز •• أما الباشخولى فانه ظل يروح ويجيء أمام الصــفين المتجاورين ، يشــخط دون داع ، ويسب ويلعن من يكون في رأسه أى خبث أو لؤم •

وكانوا في انتظار أن يخرج المندوب من القصر ليشاهدهم ويعاينهم ويلقى عليهم أوامره وما عنــده من توصيات وشتائم في الرجال السابقين • غير أن الوقفــة طالت حتى الضحى ، وبدأ العرق يتصبب منهــم جميعا ، والباشــخولى أمام القصر واقف يتأهب لملاقاة المندوب ، لكنه رأى أحد الســـــياس مقبلا يجر فرسا في اتجاه الترعة •

صاح السايس ضاحكا في سخرية :

ـ مأتم هذا ياباشخولى ؟ ••

ـ مأتم أمك باذن الله ••

هكذا صاح الباشخولى • فأخــرج السايس لسانه وانفجر ضاحكا :

ـــ لماذا تقف هكذا أنت ـــ •• وبنى اسرائيل ؟ •

ثم أغرق في ضحك هستيرى :

ـ مع أني والله ماأعرف بنى اسرائيل هؤلاء يطلعون ماذا ؟•

ـ سعادة المندوب صحا من النوم أم لا ؟

ـ مندوب ؟ •• هاهاها •• أتنتظر المندوب ؟ • • هاهاها •• ى ••

ـ نعم المندوب •: هاهاها ••• ى •

هكذا رد مقلدا اياه •

ـ ياجدع •• المندوب ليس هنا •

ـ ليس هنا •• كيف ؟ •

ـ المندوب بات الليلة فى بيت حضرة الناظر ٠
ـ حقا ؟٠
ـ نعم ٠٠ عزمته الست على العشاء ٠٠ ويظهر أن الطعام كان دسما وثقيلا ٠٠ فنام سيادة المندوب فى مطرحه ٠
ـ أو لعله لم ينم بعد ٠
هكذا أضاف ذو الساق الواحدة ٠
ـ ياللمصيبة ٠٠ ماذا سيقول عنى الآن ؟٠
ـ سيقول أنك حمار ٠
ثم زغد الفرس وانطلق يجرى ٠٠
استدار الباشخولى وصاح فى الجميع :

ـ نهاركم أسود من قرون الخروب ٠٠ اطلعوا بنا الآن على بيت حضرة الناظر ٠٠ لنقف أمامه حتى يصحو من النوم فيجدنا فى انتظاره ٠
رفع قامته وصاح مقلدا شيخ الخفراء :
ـ معتادا ٠٠ ن ٠٠ مارش ٠
فمضى «القيده» من صف الخوله سائرا يجاوره القيده من صف الانفار ٠ لكن الباشخولى صاح من جديد :
ـ قف ٠٠
فتوقفوا ٠٠
الافضل أن نكون أكثر تنظيما من هذا ٠٠ كل خولى يمشى وراء فرقته ٠٠

ـ كيف ؟
ـ بسيطه ٠٠ ماعليك الا أن تعد عشرين نفرا وتقف وراءهم ٠
ـ واذا زاد عددنا عن عدد الانفار ؟
ـ قسموهم على بعضكم ٠

فبدأ صف الانفار يتمطى ، كل بضعة أنفار ينحشر «خولى» يسوقهم بعصاه ، حتى صار الصف طويلا وفكها : يبدأ بقيدة الانفار ، وينتهى بساقة الخوله : الرجل ذو الساق الواحدة والعكاز ٠

تلوى الصف قليلا وصنع نصف دائرة لكى يستدير عائدا الى بيت حضرة الناظر ٠

– ٦ –

بيت حضرة الناظر يقع فى أعماق حارة جميلة وضيقة ، فى مواجهة الداخل تماما ٠ وهى ليست حارة من السكان ، انما هى طريق طويل فيما بين الحديقه وبين المخازن والابـــراج والحواصل الملحقه ببيت الناظر ٠ أما الحديقة فطولها ثـــلاثه افدنه يلتف حولها سور من الاسلاك الشائكة ٠ وأما المخـازن والحواصل والابراج فعلى يسار الداخل وفى مواجهة الحديقة٠

وكانت الست «هنومه هانم» تطل من خلف المشربية الصغيرة حين لاح لهـا طابور يقترب من أول الحارة ثم يدخلها صـانعا جلبة شديدة ٠ كاد قلبها يسقط فى قدميها من فرط الغيظ٠ ازاحت الستار أطلت برأسها الندى الصبوح ، صاحت :

– أين أنتم ذاهبون ياموراشى ؟

فتوقفوا فى الحال ، وتصـادموا ٠ وظهر الباشخولى مقبـلا نحوها فى خنوع :

– عدم المؤاخذة ياست هانم ٠٠ جئنا لنقابل المندوب حسب طلبه ٠

– وهل قال لك المندوب اصنع طابورا من الغربان وهاته؟٠
– أنا رجل منظم ياست هانم ٠
– ومن قال لك أن المندوب هنا ؟٠
أسقط ما فى يده ٠ تردد ٠ صار يتمتم :
– أنا ٠٠ لم يقل لى أحد ياست ٠٠

– على كل حال سيادة المندوب مستغرق فى النوم ٠ ٠ ولا نستطيع اقلاقه الآن ٠٠ اذهبوا ٠٠
– اننا نفعل الواجب ياست هانم ٠٠ فما الذى تأمرين به؟
أشارت بذراعها نحو الافق البعيد :

ـ إنكشحوا ·· اذهبوا الى عملكم ·· وحين يصحو سوف يمر عليكم في العمل ·

استدار الباشخولى طائعا · ارتبك قليلا · الحارة ضيقة ، ومسدودة ببيت الناظر ، ولابد من الطابور · أخيرا صاح :

ـ للخا ·· لف ·· در

استدار الانفار حول أنفسهم في الاتجاه المضاد

ـ معتادا ·· ن ·· مارش

اندفع العكاز يخطو في المقدمة سابقا الساق الواحدة، ومضى خلفه الانفار ودقة العكاز فوق الارض تنظم خطوهم وتقوده · ولم يكن صاحب العكاز يدرى أن فرقته نقصت واحدا ، وأن هذا الواحد قد تسلل وزحف على بطنه تحت الاسلاك الشائكة واختفى في سور الحديقة المعرش باللبلاب ·

ـ ٧ ـ

صار قلب «طلعت» يدق بعنف وهو ينكمش على نفسه بين العشب واللبلاب ، وينظر من ثناياه متفرجا على الطابور الذى كان منذ برهة واحدا منه · ورغم أنه لم يكن مدركا تماما لخطورة مافعل ، بل لم يكن في كامل وعيه ، الا انه ابتسم ساخرا وقد داخله شيء من الاطمئنان على مافعل · غير أن الابتسامة أفلتت ضحكة قصيرة مكتومه ، حين اقتحمه من الطابور صوت لعله صوت العجوز هامسا في كمد :

ـ في السنين العمياء يصبح الاعرج قيده ·



القمر يتسلل من الاسطبل

فتح «طلعت» عينيه فجأة ، كأنه يفتحها لأول مرة منذ سنين طويلة كانت جفونه مليئة بالعماص ، والقمر يداعبه من خلال العشب واللبلاب، وينظر اليه بعينين باسمتين • أدرك «طلعت» انه انكسر تحت سلطان النوم والخوف فلم يدر الا والنهار قد ولى • لم يكتشفوا غيابه اذن ، لم يمر أحــد فى الحديقة طول النهار • كان المكان رطبا وجميلا وكان ظهر «طلعت» ملتصــق بالارض يبغى حراكا • لكن الخوف سرعان مــــادب في قلبه ، فانتفض جالسا ثم أخذ يزحف وسط الزراريق المستقيمة مع أضلاع الحديقة حتى صار فى نهايتها البعيــدة ، وصار بيت الناظــر خلف ظهره ولايزال هو يزحف فى الحــديقة الكثيفة التى أفضت به الى ترعة رآها واضحة منخلال السور الشائك المعرش • بيد مرتعشة رفع سلكا شائكا الى أعلى ، جذبه بكل قوته ، ، شبكه في السلك الذى فوقه •• طأطأ رأسه ثم دفنها فى الفجوةالمامونة ، مغمضاعينيه اتقاء لاطراف العشبواللبلاب •• فصار فى الخلاء ••

اندفع يجرى بحذاء الترعة ، ويجرى ، ويجرى • ولما أحس انه تجاوز حدود القرية ، واختفى القصر والاسطبل فى الافق البعيد ، تمدد على شــاطىء الترعة يلهث ويشرب أنفاســه •

استراح ظهره فوق الارض وكأنه سيلتصق بها الى الابد . التقت عيناه بعيني القمر في وسط السماء . رأى في عيني القمر صديقه «عمرو» و «دياب» ، والملف . والنياية وشيخ البلد وأباه والقتله والسفاكين وجده «مهيوب» . ورأى أمه ، وكانت خيوط الدموع تنثال على خديه ، وتصنع نقطا يللورية سميكة على وجه القمر .. وكان يحس انه يعرف كل شيء ، كل شيء في هذه الدنيا ، ويحس انه لن يقوى على السكوت على مايعرف ، وانه لم يعد ذلك الصبى القديم . . سوف ينتقم لجده «مهيوب» ، ولأمه ، ولعمرو . وللدنيا كلها . ثم خيل اليه انه يستطيل فوق الارض . وأن دماغه ينتفخ . وينتفخ ويصير صندوقا هائلا يسع كل هذه الدنيا .

رأى على الارض ثعبانا كبيرا يزحف بسرعة رهيبه ، ويقفز مختفيا بين أعواد البوص على شاطيء الترعة . انتفض واقشعر جسمه . اعتدل مسرعا . نهض واقفا . ثم أخذ يمشي على أطراف أصابعه ، ثم أخذ يجرى ، يجرى ، حتى تهافتت أنفاسه فارتمى على مدار ساقية مهجورة . ووضع يديه على وجهه .. الى أين هو ذاهب ؟ كيف فعل مافعل ؟ كيف تم كل شيء بهذه البساطة ؟ ان مقتل جده «مهيوب» ومقتل «دياب» و «عمرو» والجميع أسهل من ان يرى نفسه طليقا هكذا ، شيء لم يكن يتصوره أبدا . كيف ترك جده «مهيوب» ؟أيرجع للبلدة بدونه؟ ماذا يقول لأمه ؟ أتراه يستطيع العودة الى بلدته ؟ لا . . انه لن يستطيع ، لن يستطيع رؤية وجه أمه .. يعرف بالضبط ماذا سيحدث لها ان هو عاد وحده بدون جده مهيوب . ستكون الكارثة عظيمة .. انه يحب أمه ، لهذا فهو لن يستطيع رؤية وجهها ساعة تتلقى النبأ .

انتبه راى نفسه يمشي ، ورأى نفسه يدخل في طريق لم يكن في حسبانه طريق يؤدى الى بلدة كبيرة واضحة . في الطريق ناس يمشون راكبين وراجلين . أحس بالخوف برهة انقلب الخوف الى شعور بالامان .. ان أحدا من السائرين لم يعبأ به ، لم يقبض عليه ، لم يسأله من أنت وابن من ؟ ..

ظل يمشى ، والقمر يمشى معه ، يختفى فى الشوارع ويظهر من جديد فى الحوديات والاجران • انتبه مرة أخرى : الى أين يذهب بالضبط ؟ • لم يعرف الجواب • رأى شيخا معمما يمشى مهرولا فيما يتمتم بكلمات وآيات •مشى وراءه مسرعا• تذكر الغرباء الذين يجيئون قريته « بلاد الله خلق الله» ، ويبيتون فى المسجد الجامع وفى الصباح يعطيهم الناس القروش والارغفة •

قاده الشيخ الى وسعاية ، وفى المواجهة جامع كبير، وللجامع مئذنه • اقشعر بدنه من فرح غامض ، وانفتحت فى داخله طاقات من الضوء • تذكر « عمرو » وجمعة المؤذن ، والاستغاثة ، والحب ، وانكشاف الرؤية ، و •• والشكاوى• الشكاوى التى كان يريد أن يكتبها لعمرو • ما الذى كان يريد عمرو أن يقوله فى شكاويه •• وتذكر الشكاوى العديدة التى قرأها فى الملف ، تذكر أمه ، والقاضى المجهول الذى رمى بذرته فى جوفها واختفى ، لايعرف ان كان ذلك الاب المجهول نذلا أو كريما •• لكنه يتذكر الآن كل الاغانى التى كانت أمه تغنيها كلما انفردت بنفسها ، والمواويل التى سمعها وتعلمها من الغرابوه ، وما تعلمه من عمرو •

هرول الشيخ فى داخل المسجد ، وهرول فى أعقابه «طلعت» • اتجه الشيخ الى الميضأة ، ومثلما فعل الشيخ فعل قال له الشيخ أثناء الوضوء سويا :

— زمزم
فغمغم بكلمات ضغمه ضحك لها الشيخ بسرور ، ثم أنهى وضوءه وانطلق فى صحن الجامع يبسمل •

وقف « طلعت » وحده على حافة الميضاة • الجو ساكن ورهيب لكنه مريح مع ذلك • رأى على يمينه بابا عرف أنه باب المئذنة •• دفعه بيده فانفتح ، فتراقص قلبه • دلف داخلا ، احتواه الظلام ، لكنه تحسس درجات السلم وسلكها صاعدا • ظل يصعد وقلبه يتقافز معه ، حتى رأى نورا يتسلل من أعلى فى فتحة المئذنة • اندفع متراقصا • دخل شرفة المئذنة ، وقف

مطلا على الخلاء الفسيح ، وعلى وجه القمر .

تضاعف وجه القمر ، وأحس «طلعت» انه يرى كل شيء أكثر من ذي قبل ، وأنه من هذه الشرفة يستطيع أن يرى مالايراه بقية عباد الله . انبثقت في دماغه كلمات لاتحصى : من أغاني أمه ، من مواويل الغرابوه ، من شكاوى عمرو . من استغاثات جمعة المؤذن . رفع ذراعيه ووضع كفيه على خديه .. صاح فجأة مستغيثا :

ـ يارب يا .. رب يارا .. ا .. ا .ب.

ثم توقف مرتعدا ، اذ ارتد اليه صوته قادما من الافق البعيد ، رائقا بريئا ، شديد الحزن ، رنانا . فأعاد الجملة من جديد . وما أن أتمها حتى رأى كثيرا من الاشباح تخرج من المسجد وتبزغ من الحوارى وتقف تحت المئذنة رافعة رأسها نحوه في انبهار .

ارتعشت أوصاله ، ارتعشت كفه خلف أذنه . خرج صوته متماوجا حلو الرعشة حلو الرنين :

ـ يالـ . ب .. يالـ . مـ . صـ . طفى بلغ مقـا . صدنا .. ا .. ا .. واسمح .. لنا يالرضا ياواسع الكرم .. ى .. ى .. ى .. .

هتف أكثر من صوت :

ـ الله يفتح عليك يابنى .. ياسلام .. الله يفتح عليك . كمان والنبى

هنا أحس بأنه يولد من جديد ، وأن الدنيا تعطيه وجهها . في الحال وذكر أمه . ثم تذكر جده « مهيوب» .. انه لن يتركه لن يترك هذا المكان ، سوف يعود اليه ليزور قبره ، ويقيم بجواره . سوف يشكر لله ، وللدنيا ، كل ماقرأه في الملف ، وما سمعه من «عمرو» وما عاشه مع أمه .

صار صوته يجلجل في الأفق ، والناس تتزايد وتتزايد أمام المسجد ، فتظل واقفه محملقة في المئذنة في انبهار ، وتصيح هاتفة تطلب المزيد ، ويبدو عليها الانشراح من كلام يقوله ولا يدرى كيف قاله ومن أين جاء . هنا ابتسمت أمه

تحى الظلام ، وكانت رائعة ، رائعة ، كانت فى الواقع تريد أن تبكى . فما بالها لو رجع اليها بدون جده «مهيوب» ؟ . . انه لن يرى هذا المنظر ، لن يراه ، فلسوف تموت أمه لو عاد اليها بدون جده مهيوب .. لن يتركها تموت .. ولسوف تحزن لو طال غيابهما .. نعم سوف تحزن ، ولكنه واثق انها ستظل تستقبل المساء كل يوم بابتسامة ، بينما تنظف زجاجة المصباح .

— تمت —

المعادى : السبت ١٠ سبتمبر سنة ١٩٧٧



الفهـــرس



رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٨ / ٤٢٤٥

طبع بمطابع روزاليوسف





هذه الرواية

يمكن أن نعتبر رواية « الأوباش » للاستاذ خيرى شلبى « بحثا ميدانيا » موفقا عن عمال التراحيل وعن القوة الشيطانية العاتية التى تكمن حول واقع غريب . اذ يركز المؤلف منظاره المكبر على « قبيلة » من البشر قد تجمد بها الزمن تماما . قرية مصرية على شمال الدلتا وسط برية من براريها فى سنة ١٩٥٠ ، لم يصل الى علمها أن البلد لم يعد فيها سلاطين ولا ملوك ، أو أن نظام « جباة الضرائب » قد انقرض ولم يعد هناك ما يسمى بالكاشف الذى يحصل الأتاوات لافندينا ٠

ومن خلال مجموعة من الشخصيات المرسومة بدقة ، يحركها المؤلف ضاربا رؤوس بعضها بالبعض الآخر ، يواصل بحثه الدءوب عن تلك « القوة » العاتية الغامضة القادرة على تجميد الزمن ونهش الحياة ٠

((سعد مكاوى))

